صُنع الله إبراهيم

التجربة الأنثوية

دار الثقافة الجديدة

إتحاد كتاب دولة الإمارات العربية المتحدة

التجربة الأنثوية

[١

صنع الله ابراهيم

التجربة الأنثوية

(مختارات من الأدب النسائي العالمي)

دار الثقافة الجديدة

التجربة الأنثوية
صنع الله ابراهيم
الطبعة الأولى ١٩٩٤

دار الثقافة الجديدة
٣٢ ش صبري أبو علم/ القاهرة
ت ٣٩٢٢٨٨٠

لوحة الغلاف: الرسامة الجزائرية بايا
تصميم الغلاف: محيي الدين اللباد

تقديم أول

فى سنة ١٩٦٦، وقع فى يدى كتاب أمريكى صدر فى نفس العام بعنوان : «النساء الجديدات الجريئات» "The new bold wom-en" Fawcett.1966، تتنوع مواده بين القصة والرواية والمقالة والمسرحية، ويجمع بينها أمران: أن المؤلف دائما امرأة، وأن الموضوع واحد هو الجنس.

كانت هناك أسماء معروفة بين الكاتبات، تنفى عن الكتاب صفة الابتذال، فعلى رأسهن الانجليزية **دوريس ليسنج** Doris Lessing التى حققت مكانة رفيعة قبل ذلك بأربع سنوات بروايتها الشهيرة «الكراسة الذهبية» The Golden Notebook ، والايرلندية **ادنا أوبريان** Edna O'berien التى تتمتع بشهرة مماثلة.

وفى تبرير هذه المجموعة من الكتابات، كتبت محررة الكتاب تقول، إن سنوات الستينيات شهدت تغيراً عظيماً فى الطريقة التى تكتب بها المرأة، وفى موضوع كتابتها. فقد أصبحت أصلب عودا، وأقل سنتمنتالية، ولم تعد تعبأ برقة التعبير، والأهم من هذا كله، ان كتابتها صارت فى أغلب الأحيان كتابة شخصية.

وترى المحررة ان السمة الأخيرة تشكل مظهرا جديدا للنفس المعاصرة التى تستبدل الرؤية الشخصية بالمعرفة الشاملة، وتعكس التغيرات فى الأعراف والمحرمات، فبفضل تحول الموضة من الكاتب «الإله»، إلى الكاتب «أنا»، وما تحقق من اختراق لقيود النشر فى

انجلترا والولايات المتحدة، «بدأت الكاتبة تستكشف وضعها والعالم بأمانة أكثر، وطبيعية أكثر، وجدية أكثر».

***

لماذا الجنس؟

ترى محررة الكتاب أن الكتابة الذاتية لا الموضوعية، والكتابة عن الجنس، أمران طبيعيان بالنسبة للمرأة، و«لعل الكتابة بحرية عن الجنس أكثر أهمية للنساء منه للرجال». فالمرأة تقع فى نقطة توتر بين طبيعة بيولوجية لم تتغير على الإطلاق، ورؤية حديثة بعض الشئ عن حرية جديدة، مما يجعلها مشغولة بالمحيط الذى تعمل فيه بيولوجيتها: «الجنس هو مركز هذا المحيط، ولهذا فان أسبابه ونتائجه، وتأثيراته الأجتماعية والوجدانية، تشكل مادة وجودها. ان التجربة الجنسية لأغلب النساء ليست مجرد تجربة جنسية، وانما هى محاولة للإمساك بالكون. وسواء كانت حسنة أم سيئة، فانها تسفر دوما عن كشف».

***

وبالطبع، فان الجو الذى ساد العالم فى الستينيات، هو الذى دفع المرأة الكاتبة، وأتاح لها، أن تتمعن عالمها الجنسى بحرية.

ولاشك أنه كان عقدا فريدا، شهد فيه العالم أحداثا هائلة: اكتشافات علمية، غزو للفضاء، ثورات تحريرية (من الجزائر إلى فيتنام)، وتمردات على الأنظمة فى الغرب والشرق على السواء (من الثورة الثقافية الصينية وربيع براغ إلى ثورة الطلاب فى ألمانيا وفرنسا). كان هناك ضيق عارم بالأوضاع المستقرة، وبالمنظومة الأخلاقية السائدة. وانفجرت الحركة النسوية. واستكشف المنتجون (فى الفن والصناعة) إمكانيات التعبير الفردى الجرئ (من الملابس إلى السينما). وكما كان الشأن فى الانقلابات الكبرى (الثورة

الفرنسية ١٧٩٠ والروسية١٩١٧) ارتبط الموقف من العدالة الاجتماعية والمشاركة السياسية بالموقف من وضع المرأة وقضايا الجنس. وسواء بالحق أو الباطل، ارتبطت المظاهرات الطلابية التى جابت شوارع أوروبا والولايات المتحدة ضد العدوان الأمريكى على فيتنام، والمؤسسة البرجوازية ذاتها، بتدخين الماريجوانا، والموسيقى الجديدة، بمثل ما ارتبطت بالحرية الجنسية.

فالى جانب اليوتوبيا الأجتماعية السياسية، والتى يحصل فيها الفرد على كل مايحتاج اليه، ويشارك فى صنع القرار العام، وهى التى ألهبت خيال المتظاهرين، كانت هناك يوتوبيا أخرى تحركهم، يوتوبيا جنسية، مؤداها سيادة كل فرد على جسده، وحقه فى الاستمتاع به بالشكل الذى يجلب له السعادة، على أى وجه، ودون أى قيد.

(مما يلفت النظر، ان عام١٩٦٧ وحده، شهد فى انجلترا صدور قانون يبيح الأجهاض، وآخر يرفع التجريم عن العلاقة الجنسية بين رجلين بالغين طالما تتم باتفاقهما الحر، كما شهد العام التالى الغاء الرقابة على المسرح الأنجليزى، وفى نفس الوقت ألغت الولايات المتحدة القوانين التى كانت تُحرِّم البورنوجرافيا، وتعاقب على نشر الكتب والمجلات والأفلام التى تتناول الجنس بصورة مباشرة وصريحة).

***

لكن «الثورة» لم تستمر طويلا. وسواء أثبتت الأنظمة قدرتها على الثبات فى وجه رياح التغيير -ولو إلى حين- أو أن «الحركة استنفذت قواها، أو ببساطة ان الموضة تغيرت، فان الطلاب عادوا إلى مقاعد الدراسة، بعد ان حصلوا على بعض المكاسب، وغادروها بعد قليل ليلتحقوا بالمؤسسة، ويتفانوا فى خدمتها. وعادوا يُعلون من شأن قيد الزواج (والخيانة الزوجية بالتالى!) الذى تمردوا عليه، وخرجت

المرأة بالذات، مثخنة بالجراح، ولم يمض عقد إلا وقد انفجر طاعون «الإيدز»!

***

كان صدور كتاب مثل «نساء جديدات جريئات» أمرا طبيعيا اذن في أواسط العقد الفريد، بمثل ما كان اهتمامي به آنذاك.

والحق انه يمثل «وثيقة» هامة تتعلق بعالم مازال يحتاج كثيرا من الكشف.

فقد حرصت محررة الكتاب، عند اختيار النصوص الأبداعية، على تحقيق التنوع الذى يسمح بتغطية الحياة الداخلية للمرأة فى مراحلها المتعددة وصورها المختلفة، فتتبعتها مراهقة، عاشقة، زوجة، مغامرة، باحثة عن اللذة، أماً، ضحية للبرود الجنسى، ومُحبَّطة.

وعندما سافرتُ إلى الخارج فى صيف عام ١٩٦٨، كان هذا الكتاب من بين الكتب التى حملتها معى وحرصت على عدم مفارقتها سنوات طويلة. فقد كنت أداعب فكرة ترجمة بعض نصوصه إلى اللغة العربية. وألفيت نفسى بعد قليل مدفوعا إلى ذلك بضغط الحاجة، خلال وجودى ببيروت (رغم الاقامة الآمنة التى وفرها لى زميلى فى وكالة أنباء الشرق الأوسط وقتها المرحوم فتحي القشاوى). وعرضت الفكرة على الشاعر أنسى الحاج الذى كان يرأس تحرير مجلة «الحسناء»، ويكتب لها افتتاحيات باسلوب رشيق يتعمد الهاب خيال المراهقات، فرحب بالأمر. وقع اختيارى على النصوص التالية:

«استيقاظ مود» Maud Awake من رواية بنفس العنوان للأمريكية مارج بيرسىMarge piercy وتتناول سذاجة وكوميدية التجربة الجنسية الأولى.

«أنا الغريبة الجميلة» I am the beatuiful stranger، من رواية بنفس العنوان، تستكشف عالم الرجال بعيون فتاة مراهقة.

للأمريكية روزالين دريسكلر(١٩٦٥) Rosalyn Drexler وهي كاتبة مسرحية وشاعرة ورسامة ومصارعة أيضا!

«الحب بالشخص الثالث والثمانين» Love in the 83rd person للأمريكية جويس إلبرت Joyce Elbert، وتصور خواء التجريب الجنسي الذي يأخذ شكل الألعاب الرياضية.

«لا يمكن أن يكون ميتاً، فعد تحدث إليّ!»

He can't be dead, he spoke to me!

للأمريكية المعروفة رونا جافي Rona Jaffe، ترسم فيه صورة ساخرة للعربدة الجنسية التي تبتذل الجانب الأنساني.

«أهلا بك!» Hello, Baby! لهاريت سومرزHarriet Sommers، التي كانت تشارك في تحرير مجلة provincetown الطليعية، وتتعرض في هذا النص لتجربة الأجهاض في مجتمع يحرّمه.

«يوميات زوجة غير مخلصة!» Diary of un Faithful wife للأيرلندية ادنا أوبريان Edna o'Berien التي شهرها فيلم «الفتاة ذات العيون الخضراء»، المأخوذ عن روايتها «الفتيات الوحيدات» The lonely Girls.

«الكراسة الذهبية» The Golden Notebook، وهو مقطع من الرواية الشهيرة التي تحمل نفس الأسم، والتي وُصفت بأنها «واحدة من أهم روايات القرن العشرين» لواحدة من أبرز كتابه هي Doris Lessing، التي ولدت في جنوب أفريقيا سنة١٩١٩وهاجرت إلى انجلترا في سن الثلاثين. وتتفحص ليسنج في هذه الرواية بكل صراحة، معاناة المرأة العصرية المثقفة، والتناقض الذي تعيشه بين تكوينها العاطفي والنفسي القديم، وبين حياتها الاجتماعية العصرية. فالبطلة كاتبة، تعجز عن مواصلة الكتابة، وتكتشف انها تواجه اشكالية واحدة في أمور الزواج والحب والأطفال والدين والسياسة

والمال تنبع من تمسكها باستقلاليتها من ناحية، وحاجتها لأن تكون مرغوبة من ناحية أخرى.

***

كانت هذه هي النصوص التى اخترتها، وبدأت ترجمتها على الفور، كما بدأ أنسى الحاج فى النشر بحماس، وقد أتاحت له ممارسة هوايته اللغوية، فقدّم أحدها مثلا على أنه يصوّر **«عالم المراهقات الموحش واللذيذ والوحشى!»** لكنه لم يلبث ان قال لى مستنكرا : «انت تكتب لنا دعارة!» وتوقف النشر. لكنى لم أتخل عن مواصلة الترجمة. بل وأقبلت أجمع فى اهتمام، طوال الأعوام التالية، النصوص المماثلة، وكأنى فى رحلتى الشخصية من أجل دراسة وفهم المرأة والسلوك الجنسى عامة. كنت أستكمل بلا وعى كتابا أقدمه لقراء العربية ذات يوم.

هكذا التقيت **بأنابيس نين** Anais NiN.

بدت لى هذه الشخصية الفريدة فى مبدأ الأمر غير حقيقية، مُخْتَلَقة، وشككت طويلا فى أن إسمها مستعار، يتخفى وراءه احد الكتاب المعروفين، إلى أن قرأت يومياتها.

ولدت أنابيس عام١٩٠٣ (وماتت عام١٩٧٧) من أب أسبانى، عازف بيانو ومؤلف موسيقى، وأم دانمركية، وقضت طفولتها فى أجزاء مختلفة من أوروبا، ثم تركت باريس فى الحادية عشرة من عمرها إلى الولايات المتحدة. وعادت بعد ذلك إلى باريس حيث درست علم النفس على يد العالم المعروف أوتورانك، وتعرفت على الكتاب والفنانين الذين كانت تموج بهم العاصمة الفرنسية فى العشرينيات (وهى فترة شبيهة بالستينيات، تكررت من قبل فى القرن التاسع عشر، مما يوحى بوجود دورة ما لموجات التمرد والثورة تعقبها فترة من المحافظة يتراوح أمدها بين ثلاثة عقود أو أربعة،) من مبتدع

المسرح الاسود، أرتود، إلى رائد الأدب الجنسى هنرى ميلر.

وفى الحادية عشرة من عمرها، بدأت يومياتها الفذة، على هيئة رسائل إلى أبيها الذى كان قد هجر الأسرة. وظلت تكتب هذه اليوميات طول حياتها، بالفرنسية حتى عام ١٩٢٠ وبعد ذلك بالأنجليزية، إلى أن بلغ عدد صفحاتها ٣٥٫٠٠٠ صفحة! وأتاح لها العمل اليومى فى هذه اليوميات، دون قراء أو رقابة ما، القدرة على تسجيل مشاعرها وعواطفها بدقة، وهى القدرة التى بلغت أوجها فى فترة علاقتها بهنرى ميلر التى بدأت عام١٩٣١.

وهنري ميلر، أيا كان الرأى فى قيمة كتاباته اليوم، هو بلاشك من أوائل الكتاب المعاصرين الذين تحدوا المنظومة الاجتماعية والأخلاقية السائدة، باصراره على تسمية الأشياء باسمائها، واستخدام ماسمى بكلمات الأربعة حروف، التى كانت محرّمة قبل سقوط قيود البورنوجرافيا فى الستينيات، فى كتب مثل «مدار السرطان» و«مدار الجدى»، ظلت تطابع سرا فى السلاسل الجنسية حتى هل العقد الفريد.

كان التقاء أنابيس نين بهنرى ميلر أهم حادث فى حياتها على الإطلاق. فقد وقعت فى أسر كتابته، وفى عشق زوجته! وما ان سافرت الأخيرة إلى نيويورك، حتى بدأت مع هنرى علاقة حررتها جنسيا وأخلاقيا، وقوضت زواجها من المصرفى هيوج جويلر، الذى كانت تعتز به، ثم قادتها إلى أريكة التحليل النفسى المعهودة. وخلال ذلك بلغت كتابتها الأوج،فأتمت دراسة عن د.ه.لورانس، وسودت مئات الصفحات من اليوميات، ضمت أولى تجاربها فى الكتابة الإيروتيكية أو الشبقية. ورغم تأثرها بهنرى ميلر وقاموسه «البذئ» فان صوتها كان مختلفاً تماماً، وتميز أسلوبها عن أسلوبه الفظ العدوانى، إذ اتسم ببساطة آسرة، وحساسية انسانية، وادراك عميق لأغوار النفس

البشرية، ولجذور الأستيهام الشبقى أو أحلام اليقظة، كما يتجلى فى مجموعتين من القصص القصيرة،، نشرتا بعد موتها، هما:«دلتا فينوس» Delta of Venus ،و«فتيات صغيرات» Little Girls.

داعبتنى فكرة ترجمة اليوميات، التى تمثل رحلة رائعة من أجل اكتشاف الذات، خاصة بعد نشر أجزاء كاملة منها، بالأسماء الحقيقية للشخصيات الواردة بها، عام١٩٨٦، بعد وفاتها. لكننى اصطدمت بالصعوبة التى تواجه كل من يحاول اليوم ترجمة الأنتاج الأدبى العالمى الحديث إلى العربية، فلن يتبق شئ من «اليوميات»، إذا جُردَت من التحليل الدقيق لمشاعر الكاتبة، أو من بعض المعلومات الكاشفة عن شخصيات معروفة مثل هنرى ميلر (من قبيل انشغاله بصغر حجم أعضائه التناسلية، وهو ما قد يفسر اصرار الراوية فى معظم كتبه وخاصة تلك التى كتبها عن عمد من أجل الأثارة الجنسية مقابل دولار واحد للصفحة، على الأشادة دائما بالعكس!)

***

ولم أواجه هذه الصعوبة إلا فى القليل، عندما قررت أن أترجم نصا آخر للكاتبة الفرنسية، فرانسواز ماليه -جوريس Francoise Mallet-Joris، تتقصى فيه العلاقة بين فتاة مراهقة وامرأة مجربة ذات نزعات سادية، كتبته المؤلفة عندما كانت فى العشرين من عمرها (ولدت سنة١٩٣٠)، وأثار فضيحة كبرى عند نشره فى العام التالى(١٩٥١)، تحت عنوان **«شارع رامبار دى بيجوين** "Ram-par des beguines". وبالرغم من ذلك فقد تابعت الكتابة، لكنها لم تلق ماحققته من نجاح بروايتها الأولى، وان كانت قد نالت جائزة فيمينا الفرنسية عام١٩٧٠ عن رواية بعنوان «منزل الورق».

عثرت على ترجمة انجليزية لهذا النص فى مجموعة هامة من الكتابات المتنوعة التى تتناول قضية الجنس المِثْلى لدى المرأة،

صدرت سنة ١٩٦٠ عن دار Fawcett الأمريكية بعنوان Carol in a thousand cities من اعداد وتقديم شخصية فريدة أخرى تدعى **آن ألدريش** Ann Aldrich، يمكن وصفها بانها راعية لهذا الشكل من الحب الذى طالما أثار مشاعر العداء والكراهية ولم يحظ بشئ من الفهم إلا أخيرا. ويتضح دورها من عنوانى الكتابين اللذين نشرتهما قبل المجموعة التى نحن بصددها وهما: «نحن أيضا لابد أن نحب»، «نحن نسير بمفردنا».

والمجموعة المذكورة تضم بعض القصص القصيرة، منها قصة «لجى دى موباسان»، والدراسات العلمية، منها واحدة «لفرويد» وأخرى «لسيمون دى بوفوار»، وبضع «حالات» واقعية على لسان بطلاتها، بالأضافة إلى مختارات من مجلة تصدرها مجموعة من نصيرات الحب المِثْلِى باسم «السلّم»، The ladder.

تقول ألدريش فى مقدمة الكتاب، ان المرأة المثلية كانت موضوعا مثيرا للأدب منذ عصر «سافو» فى القرن السادس قبل الميلاد، **«ولما كان الأدب هو مرآة الحياة، فان ماتعكسه هذه المرآة يبلور أفكار وآراء أغلبية كبيرة من الناس. ويمكننا ان نعرف الكثير عن موضوع المثلية النسائية بقراءة التعبير الأدبى القصصى عنه، مثلما يحدث عندما نقرأ الدراسات العلمية عنه».**

وتلاحظ ألدريش ان الكتابات المعاصرة لا تتعامل مع المثلية النسائية كحالة شاذة جديرة بالإدانة أو السخرية، وإنما كموضوع واقعى جدير بالإهتمام والفهم. فقد اختفت الصورة القديمة للمرأة المِثْلية، (الشريرة أو المجنونة وفى أحسن الحالات المسترجلة ذات الشَعر القصير والبنطلون) وحلت محلها صورتها الواقعية كامرأة، لا ككائن

غريب بين الجنسين.

***

لم تخل رحلتى بين النصوص النسائية، من البحث عن فضاء مغاير لذلك الذي تسكنه وتملأه ضجيجا الطبقة الوسطى فى الغرب. ووجدت ضالتى في كاتبة من جنوب أفريقيا، تدعى بسى هيد -Bes sie Head، ولدت عام ١٩٣٧ وتوفيت أخيراً، وتدور جل قصصها فى بوتسوانا، حيث استقر منفاها.

ففى قصتها الرائعة **«جامعة الكنوز»** The collector of treasures، تعبر بأسلوب بسيط له نكهة خاصة، تقرّبه إلى القصص الشعبى، عن نمط من الخواء الجنسى، فى مجتمع متخلف يمر بمرحلة انتقال، يدفع بالمرأة إلى أقصى درجات اليأس، فتجتز الأعضاء التناسلية لزوجها.

وفى تعليل هذا التطور المأساوى تقول الكاتبة إن أغلب الرجال فى المجتمع الأفريقى الحديث مروا بثلاث فترات زمنية. فى العصور القديمة، قبل الغزو الاستعمارى، كان الرجل يعيش حسب التقاليد والتابوهات التى حددها أسلاف القبيلة. وقد ارتكب هؤلاء الأسلاف أخطاء فادحة، أكثرها مرارة انهم أعطوا للرجل مركز المتسيّد فى القبيلة، بينما اعتبروا المرأة، شكلا ناقصا من أشكال الحياة الانسانية.

ثم جاء العصر الأستعمارى، وصحبته ظاهرة النزوح للعمل فى مناجم جنوب أفريقيا، فتحطمت سيطرة الأسلاف، وتحطم الشكل القديم التقليدى للحياة العائلية، إذ اضطر الرجل للأفتراق عن زوجته وأطفاله فترات طويلة، يعمل خلالها من أجل الفتات كى يجمع من النقود ما يكفى لسداد ضريبة الرأس الاستعمارية البريطانية.

وبدا الأستقلال مجرد بلوى جديدة فوق البلاوى التى نزلت بحياة الرجل الأفريقى. فقد غير نسق التبعية الأستعمارية تغييرا مفاجئا

ودراميا. سنحت فرص أكثر للعمل فى ظل برنامج المحليات الذى تبنته الحكومة الجديدة، وارتفعت الرواتب ارتفاعا صاروخيا، فتهيأت الفرصة الأولى لحياة أسرية من نوع جديد، أرقى من نظام العادات الطفولى، ومن مهانة الاستعمار.. ووصل الرجل إلى نقطة التحول هذه **«حطاماً هشاً، دون أى طاقات داخلية. وكأنما استبشع صورته، فحاول أن يهرب من فراغه الداخلى، ولهذا أخذ يدور مبتعداً عن نفسه، فسقط فى دوامة من التبديد والتدمير، أقرب إلى رقصة الموت»**.

***

ترفر لدى بذلك عددمن النصوص، يكفى لتشكيل الكتاب الذى اكتملت صورته فى ذهنى. وقررت أن أستهله بنص فراسواز ماليه، الذى يحقق نوعا من التسلسل الزمنى لمحتويات الكتاب، يواكب التدرج فى العالم النفسى الذى تصوره.

إلا أنى عندما أمعنت النظر فى هذه النصوص، راعنى انها ترسم صورة قاتمة لحياة المرأة الجنسية، تخلو من بهجة النشوة أو التحقق الذى تقابله أحيانا على الأقل! فى الحياة. وأمدتنى **كاتبة** سوداء أخرى، من أمريكا هذه المرة، **هى تونى موريسون** Toni Morisson، التى تمارس التدريس الجامعى، وتعتبر من أهم روائى الولايات المتحدة اليوم، كما وُصفت بأنها: «د.ه. لورنس النفس السوداء»، أمدتنى هذه الكاتبة بنص جميل تصف فيه لحظة التحقق الجنسى لدى المرأة، بكلمات أقرب إلى الشعر، ورد فى روايتها **«سولا»** Sula(١٩٧٣)، التى تتتبع حياة مطلقتين زنجيتين، نشأتا فى بلدة صغيرة، واختارت إحداهما، «نيل»، أن تبقى فى مكان مولدها وتتزوج وتنجب وتصبح من أعمدة المجتمع الأسود المتماسك. أما الأخرى، «سولا»، فتهرب إلى الجامعة، وتنغمس فى حياة المدينة، ثم تعود إلى

بلدتها، ساخرة، متمردة.

***

لم يبق اذن سوى العثور على نص ملائم لخاتمة الكتاب. ووجدته في مقاطع من رواية حديثة، صدرت عام١٩٨٢، للكاتبة الأمريكية **مارلين فرنش**Marlyn French التي ذاع صيتها في السبعينيات عندما نشرت رواية **«حجرة النساء»** Women's room. وتعمل مارلين هي الأخرى بالتدريس الجامعي، إذ تحمل دكتوراه في الأدب من جامعة هارفارد.

وبدت لي الرواية المذكورة، وعنوانها **«القلب النازف»** The bleeding heart وكأنها استئناف للحديث الدائر في رواية «الكراسة الذهبية» قبل عشرين عاما! وكأن شيئا لم يحدث، أو كأنما توقفت رحلة المرأة من أجل الإعتراف بمكانتها لتتأمل ما كسبت وما خسرت، فألفت نفسها مازالت محكومة بعالم الرجل حتى وهي في قمة المجتمع، أستاذة جامعية وامرأة حرة، في أغنى البلاد وأكثرها تقدما، وتتساءل بمرارة: **«لماذا تتكرر القصة القديمة دائماً؟ فرغم نوايا الجميع الطيبة، فان المرأة دائما هي التي تدفع الثمن».**

***

وأعترف بأني ترددت طويلا قبل الأقدام على نشر هذا الكتاب. فالمواجهة المستمرة، طوال العقود الأخيرة، مع قوى الأمبريالية من ناحية، والتخلف والرجعية من ناحية أخرى، دفعت بعديد من القضايا، إن صوابا أو خطأ إلى مرتبة ثانوية، ومنها قضايا بالغة الأهمية، مثل تلك المتعلقة بوضع المرأة والأقليات الدينية والعرقية والجنس. وكان التقدير أن حل القضية الجوهرية، وهي التنمية المستقلة، سيسفر بطبيعته عن حل بقية القضايا.

حسنا! (بلغة الروايات المترجمة).. مرت السنوات دون أن تحل القضية الجوهرية، بل تعمقت التبعية، ونشر الأجنبى مظلته فوق بلداننا، جنبا إلى جنب العباءة السوداء لقوى الظلام والردة. وتعمق الجهل بأمور صارت من أمد، موضع دراسات نظرية واحصائية ومعملية، وابداعات أدبية وفنية. وازداد وضع المرأة تدنياً، وجرت محاولة اعادتها إلى ركن التفريخ، لتصبح مجرد «أداة جنسية»، كما كانت فى الماضى السحيق، ومحاولة التعمية على مشاعرها وعواطفها، بل وعلى وجهها وملامحها الخارجية أيضا.

كل ما أرجوه من هذا الكتاب، هو أن يزيد من معرفتنا بالمرأة، و فهمنا لأنفسنا، وأن يساهم فى تقريب اليوم الذى لاتدفع فيه نساء بلادنا الثمن!

صنع الله ابراهيم
اكتوبر ١٩٩٢

تقديم ثان

بعد الإنتهاء من مخطوطة هذا الكتاب، وقبل دفعها إلى المطبعة وقع تطوران:

الأول هو أن الكاتبة الأمريكية **«توني موريسون»**، التى ترجمت لها نصا من إحدى رواياتها، نالت جائزة نوبل للآداب عن عام١٩٩٣. وبرغم أنه سبق ترجمة إحدى رواياتها إلى العربية، فان النص الحالى المأخوذ عن روايتها «سولا»، هو في رأى أول نص للكاتبة ينقل كاملا إلى اللغة العربية، وهى مهمة شاقة للغاية بالنظر الى مايتميز به أسلوبها من حرية فى التعامل مع المادة الأدبية والحياتية على السواء، من شأنها أن تؤذى النفوس التي أرهف الجهل والتخلف حساسيتها، وأظن أن النص الحالي هو الوحيد الذي سينشر لها كاملا باللغة العربية، فى مصر على الأقل، وأنها ستنضم إلى قائمة الكتاب العالميين الممنوعين من دخول البلاد، ومن بينهم زميلها فى الجائزة، نجيب محفوظ، التي مازالت روايته الهامة «أولاد حارتنا» محظورة على المصريين!

التطور الثاني: هو إضطراري للتدخل فى بعض الأماكن من النصوص الحالية وخاصة فى نص رقيق للغاية هو «إستيقاظ مود» الذى أزلت منه مقاطع كاملة واستبدلتها بالنقاط المشهورة التى ألف

«إحسان عبد القدوس» أن يزركش بها كتاباته الأولى! فعلت ذلك بكل حزن وألم لكى أضمن وصول رسالة الكتاب الأساسية إلى القارئ المصرى (فلم أفعل ذلك فى طبعة أخرى خاصة بالمغرب يجري إعدادها الآن للنشر)، وهي الرسالة التى أشرت إليها فى نهاية المقدمة الأولى وأضيف إليها الآن: تقريب اليوم الذي نستطيع فيه أن نكتب عن أدق أمور حياتنا، وننقل الإبداعات العالمية إلى لغتنا، دون أن يتدخل مقص الغباء والجهل وضيق الأفق!

ص. إ

القاهرة

١٦ أكتوبر ١٩٩٣

بين ذراعى تامارا
شارع رامبار دى بيجوين
للكاتبة الفرنسية
فرانسواز ماليه -جوريس
(١٩٥١)

Ramprant des Beguines

par

Francoise Mallet-Joris

1951

(تبدأ رواية شارع رامباردي ببجوين، بفتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، تكتشف وجود عشيقة سيئة السمعة لأبيها فتقرر زيارتها. وتجد نفسها أمام مطلقة روسية في الخامسة والثلاثين من عمرها، تدعوها للمجيء مرة أخرى:
«الخميس.. حوالي الثالثة أو الرابعة إذا شئت»)

كل ما أعرفه عن تامارا جمعته بالتدريج من شذرات المعلومات التي صادفتني في الرسائل القديمة، وألبوم صور، ومما كان يصدر عنها أحيانا من عبارات. لم تكن تحب الحديث الحميم عن نفسها، لأنها كانت تمقت الفشل، وكانت تعتقد أنها لم تنجح في حياتها. كانت مزيجا غريبا من الكبرياء الجريح، والطموحات المحبطة التي ماتزال حية، وكانت تجمع بين اللامبالاة التامة والأهتمام المشبوب بالبشر. كل هذا كان ممتزجا بأمور أخرى، ما زالت تحيرني حتى اليوم، وهو غالبا ما جعل سلوكها يفتقر إلى الترابط. على الأقل هذا ما أفسر به الآن ثقتها الغريبة بالنفس، واهتمامها بلقائي، ونفاد الصبر الذي استقبلتني به عندما دققت جرس بابها، كما طلبت مني، يوم الخميس التالي.

جاءت الى الباب في غلالة، وقد تشابكت خصلات شعرها فوق جبهتها الناعمة، وبدت ناعسة، غاضبة. وقبل أن تسمح لي بالدخول، حدقت في برهة، كأنها لم تعرفني.

وأخيرا قالت : «أوه هذه أنت! كنت نائمة».

كنت قد ظننت أنها ستطردني. دلفت إلى الغرفة الزرقاء

الكبيرة، وأنا ألقى بنظرة حائرة على الفوضى الضاربة فى أرجائها. كان المقعدان الجلديان مقلوبين، والمائدة حافلة بأعقاب السجائر، مثل يوم زيارتى الأولى (فتامارا تطفئ سجائرها فى أى مكان، وبأى طريقة، ولا تنظف مسكنها غير مرة واحدة فى الاسبوع) والكتب والاسطوانات الموسيقية مبعثرة فوق الأرض. ذلك اليوم، بالرغم من اضطرابى، كان بوسعى أن أرى الحليات الصغيرة التافهة الموزعة فوق الأرفف، والتماثيل الزجاجية، والأقنعة الأفريقية. وفى نهاية الغرفة بدا مطبخ أبيض اللون من خلال باب مفتوح.

توقعت أن تقدم تامارا، على الأقل، تفسيرا ما لهذه الفوضى التى لاتصدق. لكنها لم تفعل. لقد أنشأنى أبى- اذا كان بالامكان حقا القول بأنى تلقيت تربية ما- على اعتبار النظام واحدا من الخصائص الجوهرية للإنسان، وعلى الأعتقادبأن انتفائه يعنى انتفاء الإحساس الجوهرى بكرامة الأنسان. أبسط إحساس بالكرامة. فهل يجب على أن أستخلص من وضع الغرفة، أنه كان يقول لى ما لايعتقد؟ أم أن عاطفته نحو تامارا كانت من القوة بحيث جعلته يتغاضى عن هذا الوضع؟

تخيلت أنها تبذل بعض الجهد، قبيل زيارته، لعمل شئ من الترتيب فى الغرفة. ولم أكن مخطئة تماماً فى تصورى. ففيما بعد، أدركت أن أبى، دون أن يكون فى الأمر نفاق ما، يمكن أن ينفر من الفوضى فى منزلنا، بل ويعانى منها جسديا، بينما يميل إلى وجودها فى أماكن أخرى، وفى الحالة الأخيرة يعتبرها خلفية تصويرية، نوعا من الإطار الذى يضاعف من شعوره بأنه فى جو مختلف تماما أثناء وجوده مع تامارا. نفس ما اجتذبنى فى مثل هذا المنزل الغريب. كان مسلياً. مضحكاً. لكن أبى ما كان ليرغب فى الحياة فيه، أيا كان الثمن. وعندما فهمت ذلك، أدركت أيضاً أنه لم يكن يفتقر إلى الخيال، كما سبق أن قررت بحسم، بغرور الفتاة الصغيرة. لكن الخيال

لديه كان مجرد لهو وتسلية، ترويح لطيف، بينما جعلت منه أنا، بالتمرينات المستمرة، ودون أن أخذ الأمر، وحشا التهم كل شئ، حتى قوة ارادتي.

بينما كانت بعض هذه الخواطر تجول في ذهني، أنعشت تامارا وجهها بماء العطر، ثم مشطت خصلاتها الكثيفة في شئ من الشرود، دون أن تلتفت نحوي، كأنما لم يكن لي وجود.

قالت أخيراً بصوت حال من أي عاطفة : «المسكن غير ملائم. انه عبارة عن سلسلة من الغرف. سيئة التنظيم، بطول الجناح الخلفي من المنزل».

مضت إلى المطبخ، وفكرت أنه من اللائق أن أتبعها. وفوجئت به يفتح على غرفة أخرى تقوم بدور المخدع.

كان فرش السرير مطوياً، يوحي بأنها غادرته لتفتح لي الباب. وبجوار السرير كان ثمة مطفأة ممتلئة، موضوعة مباشرة على الأرض، قرب كتاب مفتوح. وكان الباركيه يلمع. ولم يكن ثمة سجاد، الامر الذى كان مفاجأة محببة لي. ففي منزلي كنت أمقت الطريقة التي يظهر بها الآخرون فجأة دون تحذير، لأن الأبسطة الوثيرة كانت تخفي أقل الأصوات شأنا. وكانت نافذة كبيرة، كالتي في الغرفة الأخرى، تطل مثلها على البحيرة. وكانت هذه الغرفة أكثر فراغا، فبالإضافة إلى الفراش، لم يكن بها غير مقعد جلدى بذراعين، وصندوق مطعم ذى أدراج.

ألقت تامارا بغلالتها الفارسية فوق المقعد. كانت ترتدى بيجامة شاحبة الزرقة وخُفاً جلدياً. أعجبت بقامتها النحيلة، وبلباسها الذى بدا بالغ الاناقة وأنا أقارن في رأسي بينه وبين ثياب نومي، وهي عبارة عن أشياء قديمة منتفخة، محلاة بباقات صغيرة من الزهور. كانت جوليا تصنعها لي، واحدة بعد الأخرى، كلما بليت احداها، وكانت

جميعا متماثلة.

قالت : «انه مشهد جميل من هنا. لكنى أحيانا أسمع موسيقى المقاهى طول الليل».

«وهل يمنعك هذا من النوم؟»، سألتها فى أدب، شاعرة ان هناك شيئا غير طبيعى فى الطريقة المتصلبة التى أخاطبها بها، أنا التى أمقت أسلوب «الانسات الحاصلات على تربية جيدة» اللاتى أرغمت على مخالطتهن. لكنها لم تشجعنى على مخاطبتها بطريقة غيرها.

كانت قد جلست فوق الفراش. ولم تلبث ان تخلصت من خفّها واستلقت بين الملاءات. شعرت بأنى مثار سخرية وأنا واقفة أمامها، مثقلة بسترتى وحافظة كتبى، فقد كنت قادمة لتوى من المدرسة، واندفعت الدماء الى وجهى من الغضب. كانت هى، عمليا، التى أمرتنى بالمجئ، وها أنا واقفة أمامها كأنى غير مرغوبة. شعرت أنها تستمتع بحرجى. أدركت ما يجب عمله: أن أنصرف، وأعود إلى منزلى، وأتجاهل احتجاجاتها. لكننى لم أكن واثقة انها ستحتج، وهذا هو، للغرابة، ما كبح جماحى. وأخيرا تكلّمَتْ.

قالت بهدوء، كأنما وصلت لتوى: «ضعى حافظتك إلى جوار الحائط واخلعى سترتك. ضعيها فوق المقعد. هذا حسن. والآن تعالى واجلسى هنا بجوارى».

عندما جلست فوق الفراش، تفحصتنى بتعبير لم أره على وجهها من قبل، أقرب إلى الرقة.

قالت : «عليك ان تقررى الآن ياحبيبتى ألا تحملى اية ضغينة إزائى». فوجئت بالنغمة الحميمة التى لجأت إليها، كأنما هى عادة قديمة لديها: «أنا لست دائماً مرحة. لأسباب كثيرة. على اية حال، ليس الأمر بذى أهمية، ولا تستطيعين شيئا إزائه. كل ما عليك هو أن تأخذى الأمور ببساطة كما هى، ولا تزعجى نفسك بشأن أى شئ».

صعقت من أسلوب حديثها، كما لو كنت قد أعلنتُ للتو انى سأقضى بقية حياتى معها.

قالت بلطف : «خبرينى بما كنت تفكرين فيه بالأمس».

رغم سلوكها المربك، شعرت انى أستطيع الثقة بها. هكذا حاولت أن أشرح لها كل شئ: كيف أشعر أحيانا بانى شخصين، أو أن جزءا منى يتلاشى تماما فى بعض الأحيان، وعن ذلك البيت فى قصيدة فيدرا الذى يلح على دائما، والذى تتمنى فيه أن تهبط مع هيبوليت إلى المتاهة.

قاطعتنى بعد لحظات: « ياطفلتى العزيزة! لك خيال خصب. خصب للغاية!».

قلت محتجة : «أنا لست طفلة، كما انك لست كبيرة جداً أيضا».

«أنا فى الخامسة والثلاثين».

«أوه!». لم أجد ما أقوله ردا على هذا التصريح الذى أدهشنى. لكنى بعد أن تفحصتها بامعان، تبينت الخطوط الخفيفة فى أركان عينيها ووجنتيها البضاوين، والحلقات السوداء حول عينيها. وما كان بوسع أي ملاطفة أن تترك فىّ أثرا قدر الذى تركته علامات الجمال الزائل هذه.

«خمس وثلاثون سنة. انها لاتعنى لك شيئا. لكنها تعنى لى الكثير. كل ما تركته ينساب من بين أصابعى: الزواج، الثروة، حب حقيقى. خمس وثلاثون. ولم أستسلم بعد. ليس تماما. فها أنا ذا ياعزيزتى، أسيرة هذه البلدة الصغيرة. على أية حال، أنا انطلقت من بلدة صغيرة مثل هذه، بل أصغر منها. وهناك كنت أعيش فى كوخ، أسوأ من هذا الماخور القديم الذى أعيش فيه الآن».

أوشكت أن أقاطعها لأقول لها أنى أحب هذا المنزل كثيرا، لأسألها عن معنى كلمة «ماخور»، لكنى أحجمت خوفاً من أن تعنفنى، أو تتوقف عن الحديث. كانت تنظر إلى بمودة- أو هكذا ظننت.

«أنت أيضا سوف تخرجين إلى العالم من بلدة صغيرة. لأنك تحلمين بمغادرة هذا المكان، أليس كذلك؟ وانى لأتساءل: إلى أين سينتهى بك المطاف! لايمكننى اسداء النصح إليك. لقد كنت أعرف دائما مايتعين علىّ أنا عمله، لكنى لم أعمله أبدا! ربما ستكون الأمور أسهل بالنسبة لك، فأنت بريئة للغاية».

أثرّت فىّ صراحتها. وتنبأت بصداقة طويلة، تتخللها أحاديث حميمة، مثيرة. وهُيئ لى أنى قد وجدت أخيرا ملجئاً، مكاناً بعيدا عن المنزل، يرحب بى وقتما شئت. وقبلت يدها مرة ثانية.

تفحصتنى فى فضول.

قالت برقة: «اخلعى حذائك ياعزيزتى»، كأنما ذلك كان شيئا طبيعيا للغاية.

استغرق منى فك رباط حذائى وقتا طويلا للغاية. كانت يداى ترتعشان بشدة، مما أرغمنى على تكرار المحاولة، إلى أن نجحت.

«والجوبة .. والبلوزة .. هذا حسن. والآن تعالى إلى الفراش».

كنت أرتعد، دون أن أستطيع السيطرة على نفسى، وأنا أدلف إلى الفراش. وانفكت شبكة شعرى، وسمعت صوتها (لم أجرؤ على النظر إليها) يقول بلهجة عادية: «شعرك جميل».

تلمست كتفها بحركة غريزية لأخفى وجهى به، وشعرت أن شيئا مرعبا على وشك الحدوث. لكنها رفعت ذقنى إلى أعلى، وأجبرتنى على النظر اليها.

قالت: «مؤكد أنك لست خائفة؟ لايمكن ... فى سنك؟».

كانت قد رفعت نفسها قليلاً إلى أعلى، معتمدة بمرفقها على الوسادة، وكنت أرقد متصلبة، يغمرني الفزع. لكنها انحنت خارج الفراش، وأدارت فيما يبدو جهازا للراديو، فوق الأرض، لأن الموسيقى الناعمة ما لبثت ان تصاعدت.

قالت : «هذا أفضل ، أليس كذلك؟» وجذبت رأسي إلى أسفل فوق صدرها: «لا تقولي شيئاً. استريحي».

أطعتها. وسرعان ماكنت قادرة على الأنصات للموسيقى في شئ من الطمأنينة. وعدت إلى مداركي، فأخذت أتساءل عما أفعله في فراش هذه السيدة بينما أنا في نصف ملابسي.

كنت بالذات منزعجة بشأن ملابسي الداخلية. فبدافع الرغبة في المعارضة، ولأكون مختلفة عن قريناتي، اللاتي لايفكرن في غير المُخرمات والمُطرَزات والحرائر، كانت ملابسي الداخلية من الكتان الخشن دون تبييض. لكنى اليوم كنت أتمنى أن أكون في ذلك النوع من الملابس الذى أمقته. ومع ذلك، بدأت أشعر بالتحسن تدريجيا بينما كنت أحدق في السقف، ويد تامارا تملّس لى شعرى.

قالت: «تشجعت الآن قليلاً ياعزيزتى؟ أتشعرين بالبرد؟»

هززت رأسى نفياً.

«أرى أنك مازلت غير مستعدة للحديث. لكن ابذلي مجهوداً! احكى لى عن نفسك. ماذا فعلت بالأمس؟»

حاولت لكنى لم أستطع التفوه بكلمة.

«قولى شيئا... أيا كان!».

بدت نافدة الصبر بعض الشئ، الأمر الذى أصابنى بالشلل. وللمرة الثانية رفعَت وجهى إلى أعلى وتأملتنى بإمعان: «اصغى إلىّ ياطفلتى. إذا لم تقولى شيئا خلال خمس دقائق، سأصفعك. قولى شيئا

ولو حتى أوه! لك الخيار».

لم يبد عليها الغضب، لكنى أدركت أنها تعنى ماتقول.

همست برغمى: «أنا خائفة!».

أجابت بهدوء بالغ: «هذه بداية طيبة».

لكن الصدمة التى شعرت بها من جراء تهديدها، ضاعفت من خوفى وحرجى، ودفعتنى إلى الانخراط فى البكاء. وعلى الفور انحنت على وأخذتنى بين ذراعيها. شعرت بجسدها النحيل، ذى العضلات المفتولة، كأنه لصبى. وضعت ذراعا تحتى وهى تهدهدنى، وفاضت دموعى فوق رقبتها وصدرها.

كنت دائما أهوى البكاء. وفى الخامسة عشرة كنت أبكى لأى سبب: كتاب، كلب تعرض للدهس فى الشارع، كلمة حادة، مشهد طبيعى جميل، كونسير، أغنية حزينة، وعندئذ أشعر بقلبى وقد انشطر الى جزئين، وتحطم فى صدرى، محدثا ألماً لذيذاً. وكانت جوليا تأخذنى هكذا بين ذراعيها، وتمدنى كلماتها المطمئنة بمتعة غامضة. هكذا ذقت بين ذراعى تامارا بهجة التسرية والعناق، وسماع الكلمات الحانية، والمتعة الطبيعية فى القبلة الطويلة التى أعقبتها.

لم يسبق لى أن قبلت أحداً من قبل بهذه الطريقة، ورغم أنى طالما أنصت لثرثرة زميلاتى عن فتاة بلا حياء سمحت لكل أولاد المدرسة بتقبيلها فى فمها، لم تكن لدى أية فكرة عن القبلة وما تعنيه.

والواقع أنى ظللت طوال أسابيع فى أعقاب هذه القبلة الأولى، تحت وهم انها ابتكار رائع لتامارا ذاتها. وذات يوم قررت أن أرضى فضولى، فأمعنت النظر عن قرب إلى عاشقين يتبادلان القبلات فى الحديقة العامة، وهو سلوك كنت أتجنبه دوما بدافع من شعور بالاشمئزاز، فزالت عندئذ كل أوهامى.

هكذا كانت تلك القبلة كشفاً تاماً ورائعاً. ولم تكد تكف عن تقبيلي حتى رفعتُ إليها شفتيّ من جديد. وفيما بعد، جردتني كلية من ملابسي، ولاطفتني بيدها، كما يداعب الأنسان جواداً، لكنني كنت عاجزة عن التفكير في شئ آخر، وبدت لي لذة تقبيلها تامة. كما كنت عاجزة عن التغلب على الأرتباك اللذيذ الناشئ عن وجودي بهذا القرب من شخص آخر، وهو أمر لم أتخيل أبداً امكان حدوثه. بين القبلات، التي لم أمل منها مطلقاً، رويت لها كل شئ، في سيل متدفق من الاعترافات المختلطة، ضمنته كل ما حلمت به أو تخيلته و رغبت فيه. بل اختلقت بعض الأمور. عندما لمست مدى اهتمامه، وقفزت من مكاني عندما قالت في سلطان هادئ: «حان الوقت لأن ترتدي ملابسك ياعزيزتي وتنصرفي إلى منزلك».

كنت أترنح من السعادة عندما تركتها، ومضيت أتحسس الجدران والأشجار والثلج. كنا قبل الكريسماس بيومين، وشعرت انى تلقيت هدية من السماء.

هكذا بدأت الأمور بيني وبين تامارا

***

من النظرة الأولى لصورة اميلي، قد أبدو شبيهة بها. أنا نفسي ظننت ذلك عندما عثرت على الصورة الكبيرة في ألبوم تامارا، الأمر الذي أعطاني نوعا من الصدمة. لكني عندما تأملتها بدقة أكثر، اكتشفت سطحية الشبه. كان لإميلي شعر ذو لون بني خفيف، وعيون كبيرة، وملامح متناسقة- مثلي. لكنك سرعان ما تتبين أن تعبيرها أكثر برودة، ويجب أن أضيف، أكثر ذكاء. فأنا أمتلك - طبقاً لرأي تامارا- نظرة بليدة. وقد واسيت نفسي عندما قالت تامارا ذلك، بان انتحلت لعينيّ صفة «عيون الثور» التي اعتبرها اليونانيون مقياساً للجمال.

كانت ملامح اميلى أيضا أكثر رقة وتأثيرا من ملامحى. ولاشك انها كانت مختلفة عنى للغاية، وفقاً للروايات المختلفة، ولهذا لم يكن بامكانى أن أطمح إلى منافسة الفتاة التى كانت الحب العظيم فى حياة تامارا.

ما عرفته عنها من تامارا (التى كان يؤلمها الحديث فى هذا الموضوع) كان أقل مما علمته من قراءة الرسائل القديمة التى احتفظتْ بها، وتركتها باهمالها المألوف، فى الأدراج المفتوحة لمائدة زينتها. وكان بوسعك ان تتبين على الفور الفرق بين خطينا، وإن خط إميلى هو النقيض التام لخطى. كان كبيرا ثابتا، حاد الزوايا، مُدّت الخطوط العرضية لحروفه باحكام ينطق بالعزم والعناد. أما خطى أنا، ياللسماء فكان خط تلميذة، ينطق بالجهد: الحروف مستديرة ومهتزة قليلا، نوع الخط الذى تطالعه فى الكراسات المدرسية المسّطرة، حيث تتوقع أن تقرأ تحته هذه الملاحظة: «جيد، لكنه متيبّس بعض الشئ». طالما عانيت من خطى، كما كان الأمر مع وجهى، فرغم ان الآخرين قد يرونه شبيهاً بوجه مادونا المانية، كان يبدو لى مجردا من الشخصية تماما. كان ثمة شئ عارم وشيطانى فى وجه إميلى، بينما كان وجهى، إذا لم يكن منفعلاً من جراء عاطفة قوية، يبدو كأنما يعكس رصانة تامة.

لم أرَ اميلى مطلقاً. لكنى ظللت مهووسة بوجودها عدة شهور، لهذا يجدر بى أن أحكى القليل عنها وعن تامارا، قبل ان أظهر فى حياتها.

كانت تامارا قد تركت قريتها فى روسيا، وفقرها هناك، لتنتقل إلى باريس، عروسا ليهودى أرمنى يدعى عزرا سولر، كان معجبا بها. كانت آنذاك فى السادسة عشرة من عمرها، لاتعرف القراءة أو الكتابة، ولا تتكلم غير لهجة دارجة يصعب على الروس أنفسهم

فهمها. كانت رائعة الجمال في ذلك الحين، وكان التاجر مسرورا بجهلها وهمجيتها. وكان قد اشتراها عمليا عندما تزوجها، وظن أنه قيدها إليه بالزواج لكنها بعد خمس سنوات في باريس، صارت قادرة على القراءة والكتابة والحديث بالفرنسية في طلاقة. ومنذ تلك اللحظة صارت تستطيع الترويح عن نفسها من دونه، فتخرج بمفردها، وتختار ملابسها بنفسها.

كان سولر فخوراً بها، كأنما هي من خلقه. لم يقدمها أبداً إلى أصدقائه دون ان يتباهى بما أجراه عليها من تحسينات، كأنها حيوان أليف. وسرعان ما ضايقها هذا المسلك، وكانت قد تبينت انه في الخمسين من عمره، نحيف وأصلع، وان ذكاءه من النوع المدمر. كان سلوكه في المجتمعات لطيفا، لكنه كان يحتقر الجميع. وكان يحب اسداء الخدمات، لكنه كان يفعل ذلك بدافع من ساديته، فقد كان يسر عندما يحتاج إليه من يزدريهم، ويجد في خنوعهم مبررا لازدرائهم. كان يردد أن هذه الخاصية سمة لجنسه، لكن هذه السخرية ذاتها كانت تثير حنقها. واكتشفت أيضاً أنه ثري، وأتاح لها كرمه أن تستفيد من ثرائه. فحصلت لنفسها على شقة كبيرة، وفرشتها بأثاث فاخر، ذي ذوق رصين، واشترت سيارة، وحصاناً.

راقبها سولر بفضول واستمتاع، تاركاً إياها تفعل ماتشاء. توقع ان تكشف عن ذوق همجي، وترتمي فوق الجواهر والشرائط والملابس المعقدة. لكنها بدلا من ذلك كانت تنزع إلى البدلات المحاكة، أو البنطلونات الفضفاضة في المنزل، رافضة ان تكشف عن كتفيها الجميلين في أردية السهرة، كما عكست شقتها نفس الرصانة والعزيمة. وابتسم سولر لنفسه عندما شاهدها تخطو في غرفتها ببنطلون الفروسية، وترمي بقفازاتها السميكة، أو بسوط الركوب، فوق مائدة واطئة، وقد أمتعته هذه البوادر الرجولية. كان يحب غرفتها، ويدعوها ضاحكا بالحظيرة، أو الجاراج، لكنه شعر بان رغبتها في

الأستقلال موجهة بلا وعى ضده، فوجد لذة خبيثة فى تحطيم أى وهم بالحرية يدور بخلدها، بمجرد وجوده. فتعود أن يتناول طعامه، ويروح عن نفسه، في حلبة أحدث المعجبات بها. ولاحظ كيف تعامل كافة صديقاتها بتعالٍ نابع من شعور لا واعى بالانتقام. فحدث نفسه، ان نزعات تامارا ونزواتها، مدعاة للطمأنينة. واكتفى بأن يذكرها بوجوده، بين الحين والآخر، بكلمة لاذعة يشحب لها وجهها من الغضب. وحدث نفسه انه يتسنى بترويضها بهذه الصورة، فلم يدرك انه يحبها.

وقد استقبل إميلى بنفس الطريقة التى اتبعها مع صديقات زوجته الأخريات، ولو انه دهش قليلا من صغر سنها - فلم تكن قد بلغت العشرين بعد - و الحرية الغربية التى أتاحها لها أبواها. كانت قد جاءت من جزيرة جيرسى إلى باريس لتتعلم الفرنسية وستبقى بها عامين. أعجبه وجهها الجميل المعبر، لكنه اعتبرها بغير ذات أهمية. لهذا لم يكن لذهوله حد عندما تركته تامارا لتعيش مع إميلى. ومع ذلك استمر يقدم لتامارا دخلا صغيراً، متظاهرا بأنه يفعل ذلك بدافع النبل الخالص، بينما كان ذلك فى الواقع بأمل استعادتها ذات يوم.

أقامتا فى مسكن صغير مشمس، أقرب إلى الدير، حيث عكفت الفتاة الشابة على دراستها. وكان المبلغ الذى أعطاه سوزر لتامارا محسوبا بدقة: إذ يكفى بالكاد ليحول بينها وبين العمل - فقد كان يعرف جيداً مدى حماقتها وطيشها وأنها لن تفكر فى العمل إلا إذا دفعتها الحاجة الماسة إلى ذلك. وجه آخر لحسبته الدقيقة، أن يجبرها على الاقتراض منه كل شهر. وفى كل مرة تأتى إلى مكتبه من أجل النقود، كان يحصيها ببطء، وهو يرقب وجهها، بحثاً عن تورد عابر، أو طرفة عين، تكشف عن شعور بالمرارة أو الأسف. لكن تعبير تامارا وهى تتأمل الأثاث المطعّم، واللوحات، ومنافض السجاير الفضية، لم يكشف إلا عن قناعة جذلة، كأنما تقول: «لايمكن الحصول

على كل شئ».

لا أعرف سوى القليل عن علاقتها بإميلى: أنها استمرت سنتين ونصف السنة، وكانت مشبوبة، عاصفة وجامحة، لكن سعيدة فى إجمالها. وقد قرأت الرسائل التى كتبتها إميلى لتامارا عندما افترقتا ذات صيف، فاحمر وجهى خجلا. وأخيرا تركتها إميلى إلى «شاب ممتاز»، مهندس بلجيكى، كان ذاهباً إلى الكونغو. وأعرف أقل من ذلك عن الفترة التى أعقبت هذا الأسى العظيم فى حياة تامارا، والتى سبقت لقائى بها. فمن اشارات عابرة منها، استنتجت ان تلك الفترة تميزت بالغرف المفروشة، والمطاعم الرخيصة، وبطاقات الدرجة الثالثة بالقطارات. وكان على ان أحدس الجوانب الخفية فى تلك الفترة، من التعاسة اللامبالية، والدائنين اللحوحين، والبوابين عكرى الأمزجة، والملابس التى يتعين رهنها أو بيعها، والغراميات الوجيزة الضرورية.

ما الذى أتى بها إلى هنا؟ كيف التقت بماكس فيلار، الفنان الذى هيأ لها، بدافع الشفقة، هذا المسكن فى شارع رامبار دى بيجوين؟ أسئلة ظلت بلا اجابة. وعندما التقيت بها، كان قد مضى عليها فى هذه الشقة سنتين، أنفق أبى عليها خلالهما، على نطاق ضيق. وبين زياراته، كانت تشغل وقتها بالكتب التى كانت تلتهمها التهاما، والشاى والسجائر التى تفرط فى تدخينها- وهى بلاشك السبب فيما كان يعتريها من كآبة- وفى بعض الأحيان تجرع زجاجة ويسكى كاملة.

فى زيارتى الثانية لها، قامت بأكثر من تقبيلى، وما لقنتنى إياه ظل مبعث قلقى لأمد طويل فيما بعد.

ذات مرة، حدثتنى احدى المدرسات بصورة ضبابية عن العادات السيئة التى تدمر الصحة وتتسبب فى أمراض مرعبة. ولم أعر هذا

الحديث اهتماماً كبيراً وقتها (وأظنها الآن ترجع شرودى الدائم ولا مبالاتى الى تلك العادات). وما ان أدركت المقصود بتلك العادات، حتى أصبحت نهباً لمشاعر قلق ضاعف منها الغموض الذى أحاط بها. حتى المتعة التى أمدتنى بها تلك الملاطفات، بدت لى من علامات المرض، ولم أجرؤ على الحديث عنها مع تامارا (خوفا من سخريتها)، فأشبعت نفسى قلقا دون أن أعرف ماذا أفعل.

أما الوساوس الأخلاقية، فلم يكن لدى منها شئ. فى أول يوم، كنت أرتعد وأنا جالسة مع أبى إلى المائدة، خوفا من أن يرتفع عنه الحجاب فجأة، ويتبينّ من وجهى ما جرى. وفى المدرسة كنت أخشى أن يشير إلىّ أحد بأصبع العار لأن وجهى خاننى. لكنى سرعان ما أدركت أن أحدا لم ير شيئاً. وعلى العكس، بدأ الاخرون يهنئوننى على أنى لم أعد أغرق فى الأحلام، وأنى اصغى بانتباه أكثر لما يقال لى. هكذا انتصر الفسق! وتحسنت درجاتى فى الصف الدراسى، وهو ما أثار حرجى. فبعد ان كنت متخلفة دائما بشكل يثير الرثاء، ارتفعتُ الى درجة تنبئ بأنى، لأول مرة، لن أضطر لتكرار امتحان نهاية العام.

وأخيرا ساهمت خطوة وقحة من جانبى فى تبديد ماتبقى من مخاوف. فقد كان لأبى صديق طفولة، هو فريدريك فان برج، يتمتع بسمعة سيئة. فدون أن يتمكن أحد من اثبات شئ، قيل أنه عشق العديد من سيدات المجتمع الراقى فى البلدة، وغرر ببعض الفتيات الصغيرات، وأنه يشاهد دائما فى ملاهى «فيرسان»، «البلدة الكبيرة» المجاورة.

افترضت أن هذا الرجل الغارق فى الملذات سيتقبل سوء سلوكى، وقدرت انه ليس هناك من يستطيع أكثر منه إحاطتى بنوع الأخطار التى أخشاها. لهذا مضيت اليه فى مكتبه. وكان، مثل أبى، يملك مصنعا. لكنه ورث ثورة كبيرة، فحد من نشاطه، وشغل نفسه

بالمضاربات. لكنه كان يذهب كل يوم في نفس الموعد إلى مكتبه بضاحيتنا، من الثالثة إلى الخامسة. وأشيع أنه يحتفظ فيه، أيضا، بمسكن خاص.

هكذا كان الذهاب إليه مغامرة مجنونة. وكان المفروض أن تحول صداقته لأبي بيني وبين الإقدام على هذه الخطوة. لكن أملي فيه ثم بخب. فقد تلقى كلي شئ كأنه يستمع إلى نكتة، وبدا عليه استمتاع بما رويته له، وفي النهاية طمأنني. لم يكن حتى مضطراً لأن يعدني بكتمان الأمر عن أبي. كان له مسلك المتواطئ، وبدت له علاقة تامارا بأبي مثل التوابل المضافة إلى مغامرتي الغريبة. أما أنا، فأعترف بأني لم أفكر أبداً في هذا الجانب من الأمر. فلم يخطر ببالي أبداً ان أبي يستمتع بلحظات مماثلة من الحميمية مع تامارا، ولم يزعجني هذا الخاطر مطلقا، رغم ما قد يبدو في ذلك من غرابة. فلأن وقت أبي كان محدوداً، وبدافع أيضا من كياسة طبيعية، لم يكن يقدم على زيارتها قبل أن يخطرها بنيته تليفونيا. ونادرا ما كانت زياراته تتعدى المرة أو المرتين في الأسبوع.. «لأسباب صحية»، هكذا أوضحت لي تامارا، التي لم يبد عليها أبدا الشوق لهذه الزيارات. ومع ذلك كانت تستعد لها بازالة أعقاب السجائر، وبأن تجمع كل ما هو مبعثر على الأرض، وتدسه في أدراج الدولاب ثم تغلقها. وبهذا الشكل تحتفظ الشقة بطابعها البوهيمي، وتصبح نظيفة ومرتبة في الوقت نفسه. لكن هذه الاستعدادات لم تثر لدي سوى الشعور بأن تامارا تقوم بعمل مضجر.

تخلص مني فان برج بقرصة في خدي، عارضاً علي في مرح أن آتي لزيارته، اذا سئمت المتع التي أنالها من تامارا. قال انه سيعرف كيف يحملني على تقدير أنواع أخرى من المتع!

شعرت بمزيد من الراحة عندما غادرته، ومنذ تلك اللحظة،

نظمت حياتى كلها حول شارع رامبار دى بيجوين.

***

انصرم الشتاء فى سلام. وقرب نافذتى، خشخشت فروع شجرة الليمون فى مهب الريح. وظلت القطة مكانها قرب المدفأة. ومضى الأطفال يتزحلقون فى الشارع. وكنت أصل المنزل دائما مع حلول الظلام، لكنى لم أعد أخشى اختباء بعض الأشرار بين شجيرات المنتزه. فقد شعرت انى أصبحت شخصا ناضجا.

كنت قد أقلعت عن الانغماس فى الحالة «الشاعرية»، كما أطلقت على ألعاب الخيال، ذلك التشويه للحياة الذى أوشك أن يصبح طبيعة ثانية لى. فرغم انى لم أكن قد قرأت شعر رامبو بعد، فقد كنت استخدم المصطلح الذى التقيت به فى كتاباته بعد ذلك، لدهشتى الساذجة، وهو تعبير «التشويش المنتظم». وكنت أؤمن أنه عن طريق التشويش المنتظم لخيالى، سأتمكن من بلوغ الحالات العليا للوعى الشعرى. والحاصل ان حالات الغياب عن الوعى لم تتمخض عن شئ على الإطلاق، وكان المفروض أن يبصرنى ذلك بالأمر. لكنى ظننت أنه من الطبيعى ألا تعبر «الشاعرية» عن نفسها باية وسيلة، وأنها فى حالة كمون داخلى. إلى ان أتاح لى الأختفاء السريع لكافة هذه الخيالات، تقدير قيمتها.

لكنى لم أضيع وقتا فى هذه الاعتبارات، ولا فكرت طويلاً فى الخطر الذى أفلت منه بالتخلى عن هذه الممارسات الخادعة. فكما سبق ان قلت، كنت أحيانا ما أفقد السيطرة على خيالى المريض، فيتملكنى لدرجة أعجز معها عن التفكير السليم.

بعد أن احتلت تامارا المكانة الأولى فى عقلى بفترة وجيزة- وهو أمر لم يستغرق أكثر من بضعة أسابيع- بدأ أبى يمتدح ما أسماه «صحوة شخصيتى». فقد أصبحت أكثر انتباهاً، وأقل فتوراً فى

المشاعر، كما قال. ونجحت هذه التعليقات أخيراً في ازالة القليل من مشاعر الندم التي كانت تخالجني. كان أبي مبتهجا برؤية ما اعتراني من تغير، ناسباً كل ذلك إلى إجتيازي «للسن الحرجة». هنا أدركت أنه كان دائما في قلق بشأن عقلي البليد ونوبات الشرود المفاجئة التي تنتابني. وأدهشني هذا الاكتشاف، إذ لم يخطر لي من قبل انه يعطي اهتماماً لوجودي. وكان من شأن سروره بما طرأ علي من تغير أن دفعني إلى التفكير، لكنني لم أكن أملك الوقت لذلك، إذ كنت أفكر في شيء آخر.

عندما أقول إني لم أعد أستسلم لأحلام اليقظة، أعني بذلك حالة التبلد التي لاينتزعني منها شيء. لكن رغم أني لم أعد أسعى للهرب من الواقع – وكنت على العكس أنغمس فيه بكل سرور- فما أن ابتعد عن تامارا، حتى أجدني أفكر طول الوقت في اللحظات التي أمضيناها سوياً، والتي شكلت بدورها نوعاً من أحلام اليقظة، ولو أن موضوعها كان أكثر موضوعية مما دارت حوله أحلام يقظتي في السابق.

على أية حال، لم أعد بحاجة الى تشييد حياة متخيلة، لأن كل دقيقة من حياتي الحقيقية كانت تدهشني بغرابتها. فقد ظل منزل «رمباردي بيجوين» يجتذبني بقوة. وكنت أقوم بتحليله كل يوم، فاكتشفت تفاصيل جديدة: زاوية حجر، خطاً من الطحالب البحرية لم ألمحه من قبل، نقطة نظر جديدة تبدو منها ابتسامة حوريات البحر الخليعات مختلفة، ساخرة أو رقيقة، قطعة منسية من الزخارف المطلية بالذهب، أو الفسيفساء المتآكلة.

انتشيت بدراسة كل هذه الأشياء وأكثر منها. كانت للمنزل ست شرفات، وأربعة طوابق، وثماني شقق، وكان ارتفاعه تسعة عشر متراً، وطوله اثني عشرة. أعجبني تناسق قياساته، وضخامة تصميمه

وجرأته، واللون الأخضر للسلم الرخامي، وعاهدت نفسى أن أمتلك منزلا مشابهاً إذا أصبحت ثرية، وألا أنسى أو أتجاهل فسيفساء واحدة أو تمثالا واحدا من تلك التماثيل التى عُهد إليها بدور الأعمدة للبناء.

كيف يمكننى اذن أن أصف شعورى ازاء حياة تامارا؟ كيف أعجبت بفوضاها، ونوبات حزنها المفاجئة، ولحظات مرحها..

كنت أنهض أحيانا فى الخامسة صباحا لأذهب معها إلى مدرسة الفروسية، حيث تمتطى حصانا اقترضته. كنا نخرج دائما قبل الفجر. فتخطر إلى جوارى، بجسدها اللدن، وعزيمتها القوية، وخطواتها الواسعة، فى سراويل الركوب، وحذاء بلون الظباء، فتبدو رائعة الجمال، وأكاد أبكى من الإعجاب. أتذكر كيف كانت تؤرجح سوط الركوب بغير اكتراث، وتصفّر بلا مبالاة. كانت مدرسة الفروسية على حافة السهل، لهذا كنا نضطر إلى المشى نصف ساعة بين صفين من المنازل الساكنة فى شوارع مهجورة، مازالت مصابيحها تومض ثم تخبو. لكن مدرسة الفروسية فى تلك اللحظة تكون فى أوج نشاطها. وعلى الضوء الخافت لمصباح كهربائى، تمر أشكال معتمة، خلف عربات محملة بالأعلاف. أحببت رائحة الحظائر، وصهيل الجياد فى مرابطها، وفوق كل شئ حفيف القش عندما يحركونه بالمذراة فى بطء، ثم يتساقط بتنهيدة رقيقة تشبه تراجع الأمواج. أنا التى أستطيع التفكير دون عاطفة ما فى علاقة تامارا بأبى، كنت أغار من مدرس الفروسية، وأكرهه. كان هذا الجوكى السابق، هوارد، بقامته النحيفة، وحجمه الضئيل، مجرداً من أى جاذبية، لكن ما ان تلج تامارا الجانب المخصص للفرسان- بينما أبقى أنا خلف الحواجز الخشبية - حتى يجرى نحوها ويناديها فى ألفة تثير حنقى: «اسمعى يافتاتى! لايمكننى أن أعطيك بلزاك اليوم! فقد خرج به العجوز فرات ليلة أمس، ومازال متعبا وعصبيا، وفمه ملتهب. خذى بوميون أو قيصر. قيصر يألفك.

هل أدعوه لك؟»

وتوافق تامارا على اقتراحه، دون ان تظهر ضيقاً بطرحه الكلفة معها، وتبتسم للرجل البشع الضئيل بطريقة رفاقية لا تستخدمها معي. كانا يتحدثان عن السباقات، ويناقشان القفزات، ويذكران مباريات وددت لو أهتم بها لكنى لم أفعل لأنى لم أفهم شيئا بشأنها.

ثم يقول : «ها هو حصانك. دعيه يقفز قليلا ليحافظ على لياقته. وداعا يا جميلة!».

وبعد أن يربت على ظهرها، يبتعد.

ترتقى السرج بمهارة، وتتأكد من موضع الركاب، وفى اللحظة التى تستقر فيها بمقعدها، ويقرقع الجلد تحتها، أشعر بألم فى قلبى كأنما ستهجرنى إلى الأبد.

«هيلين! ماذا تفعلين؟ لماذا بقيت؟ أراك غدا». ودون ان تنظر إليّ، تمضى خببا نحو السهل، حيث تبقى أحيانا فوق الحصان عدة ساعات.

كانت تعشق الجياد. وهذا أيضا كان يثير غيرتى، لأنى لم أفهم هذا العشق. كانت تطلب منى أحياناً أن أنتظرها في مدرسة الركوب، وعند عودتها يكون وجهها متوهجا بالسرور، وقبل أن ترتدى سترتها، وهى ماتزال في بلوزة وحسب رغم البرد، تقود الحصان إلى حظيرته، وتمسح الزبد عن فمه، ثم تربت عليه في مودة، وتتحدث إليه بعض الوقت.

كان هوارد يستلطفني. وكان يظن صمتى نابعاً من الخجل فيتحدث إليّ أثناء ذلك: «صديقتك تحب الجياد بالتأكيد! وتعرف كيف تعاملها. مشهد ممتع! أتعرفين أنى أتركها تركب دون مقابل؟ هذا لصالح الجياد إذ يحافظ على لياقتها. قليل من الناس يأتون الآن

للركوب. وإنها لمتعة أن يراها المرء في السرج! لو لم تكن امرأة لكانت قد أصبحت جوكياً، وجوكياً ذا شأن».

كانت هذه الأحاديث الحميمة تشعرني بعدم الارتياح. كأنما كنت أستمع إلى حديث عن حياة تامارا الغرامية. بل أسوأ من ذلك، لأن هوارد كان يتحدث عن عالم ليست لي فيه أية أهمية.

***

خلال الأسابيع الهنيئة التي تلت ذلك، لم يكن يشغلني سوى أمرين: كيف أذهب إلى «رمبار دي بيجويين» وأعود دون أن يراني أحد، وكيف أمنع أبي من تلقي البطاقات المرسلة من مدرسة مدموازيل «بالدي» للإستفسار عن أسباب تغيبي. ولم أعد أشغل نفسي كثيرا بحياة تامارا. كانت معي دائما متمالكة لنفسها، ساخرة قليلا، تستوقف بكلمة واحدة أية بادرة عاطفية من جانبي. ومع ذلك، تكون أحيانا رقيقة، فتمزج شعري البني المائل إلى الحمرة بخصلاتها السوداء، وتدفن وجهي في كتفها، مغمغمة: «اسكتي»، في حنان يكسب كلماتها حباً مقطراً.

ولأنها كانت تحتضنني، ولاتبخل علي بقبلاتها، خلتها - لسذاجتي - تحبني. ربما أقل من حبها لإميلي، لكنه حب فريد، حنون، مثل حبي لها. لم تفه بحبها أبدا، أو على الأقل لم تفعل ذلك إلا في لحظات النشوة، لكني لم أعبأ. ولم تستوقفني غرابة التقاءاتنا الصامتة، والطريقة التي تريني بها الباب في نهايتها: كانت تحبني، وأنا أحبها، وكنا نستمتع سويا، وكان هذا هو كل مايعنيني.

كانت انطباعاتي عنها في بعض الأحيان، كما في مدرسة الركوب، سريعة التبخر، وإذا كنت أتذكرها الآن، فاني نسيتها بمجرد ان خطرت لي وقتها. كما اني نسيت ماعرفته عن حياتها، عندما كانت تبقى أحياناً في الفراش، تدخن وعينيها نصف مغمضتين في

شئ من التبلد، ووجهها خال من التعبيرات، غير مكترث، فأربض عند قدميها بلا حراك، فى احترام هيّاب كذلك الذى نشعر به إزاء شخص فائق الجمال عند موته.

جربّت أن أحذو حذوها، باستخدام لهجة جافة أو فظة، وبانتحال الايماءات الرجولية التى تبدر منها كثيرا، والتظاهر بازدراء التقاليد، فنلت اعجاب زميلاتى فى المدرسة بجرأتى. لكنى أمام تامارا نفسها كنت ألزم الصمت فى حصافة، خوفا من ابتسامتها الساخرة التى أتمنى معها أن تنشق الأرض وتبتلعنى.

وبين الحين والآخر، كنت أثوب إلى رشدى. عندما تزجرنى بتعليق أو هزة كتف، على كلمة رقيقة بدرت منى، أدرك على الفور فجأة بمرارة، أننى لست الشخص الذى تود سماع هذه الكلمات منه. لكنى سرعان ماكنت أطرد هذه الأفكار، فإذا أمعنت فى جفائها، أكدت لنفسى فى سذاجة، أن الأمر بغير ذى أهمية «لأنى لا أحبها إلى هذه الدرجة!»

حل شهر فبراير، دون الأمطار المألوفة، واخضرّت أحواض المنتزه مرة أخرى، فى ربيع سابق لأوانه. وبدا كل شئ طازجاً ووضاءً، عند مغادرتى للمنزل صباحاً، فى طريقى إلى المدرسة أو إلى تامارا. كانت مصاريع النوافذ تصطفق فى مرح، وكل شئ يلتمع ويبرق، من عربات الخضروات فى الشارع إلى برج الكنيسة المستدق الطرف، كأنما اكتسى طلاء جديدا، عاكسا أسنة رماح صغيرة من ضوء الشمس. ولم تعد العجائز الثرثارة فى حاجة إلى مرآة مائلة عند النافذة، من أجل التجسس على الآخرين، فقد صار بوسعهن الآن التظاهر باستنشاق الهواء النقى، ومتابعة المارة من خلال نوافذ مفتوحة على مصاريعها، وهن مختبئات خلف الستائر المطرزة بالدانتللا.

لم يعد أبى المشغول بطموحاته السياسية يكتفي بالحديث إلى

مواطنى الحى فى قاعات الإجتماعات أيام الآحاد. فبدأ يجذب خيوطا أخرى لتحقيق أهدافه، وقلّت بالتدريج فرص لقائنا. فاما أن يكون فى رحلة صيد بالسهل، بصحبة محام ذى نفوذ، أو فى رحلة بحرية مع أحد قباطنة الصناعة، أو حتى فى سيارة بالريف مع أحد أعضاء نقابة المحامين أو رئيس لأحدى الجمعيات، تصحبه فى أغلب الأحيان جمهرة من الأطفال الذين يحملون قضبان صيد السمك والساندوتشات.

لكن مثل هذا ما كان يمكن أن يستمر، وبالتدريج شعرت ان شيئا ما فى سبيله للحدوث. كان ابن عم جوليا، بائع اللبن، قد ذكر لها فى براءة أنه رآنى فى «رمبار دى بيجويين»، فتساءلت عما يدعونى للذهاب إلى هذا الحى ذى السمعة السيئة. كما بدأت فتيات باسافان، اللاتى يصنعن الملابس بالنهار، يتساءلن عن سبب عودتى متأخرة فى الأمسيات. وسألنى مساعد الأسقف، الذى يقطن شارعنا، بحسن نية: ألا أخرج كثيرا فى أيام العطلة؟ وألا أستغرق وقتا طويلا فى طريق العودة من المدرسة؟ لم أعرف ماذا يدور بذهنه على وجه التحديد. ولعله أراد فقط أن يحذرنى من الأهمال والكسل. هذا، على الأقل، هو ما قاله. لكن أسئلته كانت موجهة بطريقة غامضة، ومفعمة بالتلميحات، مما أرسل الرعدة فى أوصالى.

كان ثمة علاج لكل هذا، كما ذكرت تامارا ذات مرة. فيمكننى استباق الاشاعات، بأن أذكر لأبى أنى أراها بين الفينة والأخرى، وأطلب إذنه فى مواصلة زيارتها. وما من شك فى أنه لن يعترض، ومن ناحية أخرى سيستاء بالتأكيد لو علم من الآخرين بأمر هذه الزيارات التى يجهلها. لكن نصيحة تامارا بمصارحة أبى جاءت عرضا، وبدا لى أنها لاتخشى، إلا بقدر ضئيل للغاية، من الأفتضاح، وفى الواقع لاتشعر بالخوف، أو بالأحرى لاتفكر بالأمر - ولهذا تركت الوقت يمر دون أن أعمل بنصيحتها. ولم أكن أملك، على أية حال، الشجاعة الكافية لإثارة الموضوع أثناء اللحظات الوجيزة التى أقضيها

مع أبى.

كانت تامارا نفسها تهمل دائما اتخاذ الحيطة اهمالاً تاماً. وعندما نصحتنى بمصارحة أبى، خلت انها مدفوعة فى ذلك بحس الواجب، لهذا كانت دهشتى مضاعفة عندما سألتنى بجدية عما إذا كنت قد قمت بما أشارت به على.

أجبتها بلا تردد: «كلا، لم أجرؤ».

سألتنى بحدة: «قولى من فضلك، لماذا لاتفعلين أبداً ما أشير به عليك؟ منذ شهور وأنا أتحدث إليك عن هذا الأمر، وأنت دائما تؤجلين! هل ستظلين مهملة دائما هكذا؟»

أفعمتنى لهجتها المستاءة ذُعراً. أردت أن أدافع عن نفسى، ملتمسة عذراً ما، لكنى تلعثمت تحت وقع نظراتها الباردة. بدت لى مخاوفى مضحكة، وانتهى بى الأمر أن أشحت بوجهى ولزمت الصمت. شعرت أنه ليس عدلاً منها أن تلومنى على عدم الطاعة، طالما أنها لم تتحدث عن هذا الأمر إلا عرضاً. وبالرغم من ذلك شعرت بالإثم، لأنها حتى لو كانت أمرتنى، فربما كنت وجدت الشجاعة كى أعترف بسلوكى الخفى لأبى.

تأملتنى ببرود، وانتظرتْ أن أتكلم، وعندما لم أفعل قالت: «أعترف بأنى لم أكن واضحة فى حديثى. لكن لتفهمى الآن: أمامك أسبوع تتحدثين فيه إلى أبيك. فإذا لم يسمع خلاله...»

لم تستكمل تهديدها. لكنى تخيلت أنها تتوعدنى بأن تتحدث إليه بنفسها. وكان هذا الحل، فى الواقع، يناسبنى تماما.

أجبت: «لماذا لاتخبرينه أنت بنفسك؟» كنت مستاءة من اللهجة المتسلطة التى استخدمتها، خاصة وانى لم أكن قادرة على إبداء أى مقاومة.

كررت دون أن تجيبني: «أسبوع واحد!»، وانتقلت إلى موضوعات أخرى.

خلال الأسبوع الذى تلا ذلك، حاولت فعلا، عدة مرات، استجماع شجاعتي لأتحدث إلى أبى. وكأنما تحالفت جميع العناصر ضدى، فلم يحدث أن كان أبى منشغلا بالصورة التى بدأ عليها وقتئذ: كان دائم الذهاب والمجئ، يتلفن، ويرتب موعداً...

لم تذكر تمارا الأمر ثانية، وظلت ودودة كعادتها، بلحظات الصمت والبرود المألوفة. لهذا لم أشعر بالقلق لعجزى عن طاعتها. وقدرت أن جل ما ستفعله إذا استاءت، هو أن تمتنع عن رؤيتى عدة أيام. ورغم بهجتى المتزايدة بصحبتها، فإنى كنت أراها بكثرة تحتمل فراقا وجيزا. بل إن الابتعاد عنها يتيح لى أن أفكر فيها، وفى الأحداث الأخيرة، ويؤدى بها إلى الضجر بكل هذه السرية، فتتحدث بنفسها إلى أبى، وتكفينى عناء هذا الواجب.

انتظرت، مؤجلة المهمة من يوم إلى آخر، وعندما سألتنى أخيرا، كأنما عرضا: «هل عرف أبوك؟»، فوجئت، وتضرج وجهى، فلم تعد مضطرة لإنتظار ايضاحاتى المتعثرة. بدا عليها التفكير لحظة ثم قالت: «إذا أعطيتك أسبوعا آخر، هل ستجدين الشجاعة؟»

لم تظهر عليها أمارات الغضب. ولأنى كنت ما أزال أعتقد انها ستتولى الأمر بنفسها فى النهاية، أجبت مؤكدة: «كلا. لن أجد الشجاعة أبدا!»

وقبل أن تتاح لى فرصة للحركة، أو أدرك ماسيقع، صفعتنى مرتين، وبعنف. وصعقت.

لم يصفعنى أحد من قبل مطلقا، ولا أبى. فاذا أراد عقابى وأنا صغيرة، كان يغلق على باب غرفتى. جمدت فى مكانى، يخنقنى النشيج الغاضب، وأحاول التقاط أنفاسى، وادراك ماحدث. أما هى

فقد تطلعت إلى فى هدوء.

قالت: «لن أعطيك أسبوعا آخر. يومين فقط. وإذا لم تنصاعى لأوامرى هذه المرة، ستنالين المزيد!»

أثار هدوؤها جنونى. لم تكن تملك حتى عذر الاستسلام لنزوة غضب. فقد صفعتنى بتعمّد، بدافع الخسة المطلقة!

صحت فى صوت مختنق: «كلا، لن أطيعك: سأذهب. ولن تريني ثانية!»

انصرفت جريا، وصفقت الباب من خلفى.

عندما بلغت المنتزه، انهرت فوق أريكة، وأنا أهتز من النشيج، وقد غمرنى شعور بالظلم وسوء الحظ لدرجة لم أعهدها من قبل.

أدركت انه لابد من الذهاب إلى المنزل، لكنى بقيت فى مكانى، لا أدرى كم من الوقت. وأخيرا تذكرت أن المساء قد حل، وان جوليا تحتفظ لى بعشاء، فبدأت مسيرتى نحو المنزل فى بطء، وفكرة تعاستى تستولى علىّ كل عشر ياردات، فتخنقنى الدموع، وأستند إلى الجدار لأبكى، قبل أن أنطلق من جديد. ولحسن الحظ، لم أصادف أحداً من معارفى، فما كنت سأتمكن من السيطرة على نفسى، فأفضى بكل شئ التماساً لشئ من الراحة.

عندما ولجت شارعنا، أبصرتنى مدام لوسيت، وانتابها الهلع من مشيتى المتعثرة، فجرت من حانوتها ونادتنى.

سألتنى وهي تقودنى داخل الحانوت، الذى لم يكن به أحد لحسن الحظ: «ماذا حدث ياعزيزتى المسكينة؟». كنت قد بدأت أتمالك نفسى بعض الشئ، لكن كلماتها الشفوقة أثارت فيضا جديدا من الدموع. كنت عاجزة عن التفوه بحرف. فماذا كان بوسعى أن أخبرها؟ أغلقَتْ الباب بسرعة وشدت رتاجه ثم قادتنى إلى الغرفة الخلفية، قائلة فى

رقة وهى تتطلع حولها بحثا عن مكان أستلقى فيه: «بوسع الزبائن العودة فى الغد!». لم يكن هناك غير كرسى مفكك الأوصال، بلا ظهر أو مسندين، ومقعد كبير من القش قرب المدفأة، حيث تستريح عادة. وعندما لم تجد مكانا غيرهما، جلستْ فى المقعد، وأخذتنى فوق ركبتيها، كأنى طفلة.

واصلت البكاء عدة دقائق كما لو كان قلبى يتمزق، وأنا أفكر فى تفسير لتعاستى أقدمه لها. وأخيرا، مدفوعة بشيطان ما، نهنهت فى رثاء. واشفاق قائلة: «أبى له عشيقة!»

بدا كأن هذه العبارة البسيطة قد نفذت إلى قلب مدام لوسيت. والواضح أنها كانت تعتقد أن فتاة شابة مثلى من حقها ان تُصدم وتحزن عندما تعلم بأمر كهذا. ولم أحاول العثور على عذر آخر.

غمغمتْ وهى تضمنى بين ذراعيها: «ياعزيزتى المسكينة! ياطفلتى العزيزة المسكينة!». شعرت أن ما أثر فى مشاعرها أكثر من أى شئ آخر هو براءتى، ففى نظرها، تكشفت كافة مباذل العالم لى عندما عرفت بالحياة المزدوجة التى يعيشها أبى، وتخيلت أن ذكرى أمى ضاعفت من حزنى. حدستُ كل هذا من تعليقاتها.

قالت : «ياحملى الوديع! لاتبكى هكذا ياملاكى الصغير! المسكينة، البائسة، ويتيمة الأم!!».

بدا لى أنها وجهت الكلمات الأخيرة إلى السماء، التى دعتها لأن تشهد تعاستى. هنا شعرت بشئ مازلت أذكره بكل خزى. كان حزنى قد خف مؤقتا، وجفت دموعى، فأدركت أننى يجب أن أعود إلى المنزل دون تأخير، لكنى مضيت أنتحب دون رغبة حقيقية، لمجرد ان أستدر مزيدا من شفقة مدام لوسيت.

قلت: «وأمى المسكينة كانت طيبة للغاية. كيف يستطيع نسيانها؟ إن هذا يشعرنى أنى يتيمة حقاً!».

حصدت ماسعيت إليه: فقد اغرورقت عيون المرأة الفاتنة، وإذا بها تنهض واقفة، وقد تذكرت فجأة أني فى السادسة عشر، ولايجوز احتضانى هكذا بين ذراعيها. لكنها جذبتنى من جديد إلى كتفها، ومزجت دموعها بدموعى، وهى تحاول التسرية عنى.

ساعدنى هذا على أن أنسى تامارا تماماً لبرهة. ففى الغرفة الخلفية الصغيرة المعتمة، إلى جوار النار المتأججة، ووسط الروائح النظيفة المحببة للورق والأقلام والصلصال، بينما التصقت بكل قوتى بهذا الشخص الجميل الحساس الذى كان يحاول إعادتى إلى صوابى، مسترخية تماما بصورة ممتعة بعد الأنفجار العنيف لدموعى، شعرت بالسعادة التامة، ولم تساورنى غير أمنية واحدة: أن أطيل أمد هذه اللحظة. ويعلم الله كم من الأمور البشعة كان بوسعى اختلاقها من أجل ذلك، ضد أبى المسكين. لكنتى لم أكن بحاجة إلى ذلك. فقد ألفت مدام لوسيت، منذ هجرها خطيبها فى الثانية والعشرين من عمرها، أن تتحدث عن كافة الرجال باعتبارهم أوغاد أنذال. هكذا مضت توجه اللوم إلى أبى، قائلة إنه من العار أن يتركنى وحيدة ليجرى خلف النساء، ونصحتنى بأن أتوسل بالشجاعة، وأتقبل كل شئ، وأكدت لى أن أبى، عندما يتقدم به العمر، سيكتشف أنى الشخص الوحيد الذى أحبه وبقى على وفائه.

لم يرق لى هذا المستقبل كثيرا، على أنى لم أكن مصغية لصوتها الرقيق وهو يردد هذا الهراء. كان خدى ملتصقا برقبتها البيضاء، التى بللتها دموعنا، وبين الفينة والأخرى كنت أطبع عليها قبلة، مثلما يفعل الأطفال. كانت رائحتها تشبه رائحة الحبر، ورائحة الكعك المسّكر. وتبدّى ثدياها المستديران الأبيضان من فتحة بلوزتها شعرت كأنما هُدهدتُ، وأُرضيتُ، و ووسيتُ. وفكرت ساخرة ان ما اجتذبها فى للأسَف هو براءتى، فقد كان جمالها حليبيا، ناعما، يغرى بالإلتهام، مختلفا كلية عن جسد تامارا ذى العضلات القوية.

أخيراً أعانتني على السير، وقادتني إلى الباب.

قالت: «اذهبي الآن ياهيلين. فلابد أنهم قلقون عليك. أفضل حل لك أن تكوني باردة مع أبيك. لاتحدثيه عن شئ، فلن يألو جهداً في الدفاع عن نفسه، وربما نجح في إقناعك، خاصة وأنك مشغوفة به هكذا إلى درجة العبادة!»

لم أقل أبداً أني أعبد أبي، لكن مدام لوسيت أولت حزني على هذه الصورة. فقد ظنت ان مايعذبني أساساً هو خوفي على أبي من الخطيئة. وكانت تراني أحياناً في الكنيسة، التي كنت أذهب إليها لأستمتع بموسيقى الأرغن ورائحة البخور. كانت الكنيسة وقتئذ تشغل فضاءً كبيراً في خيالي، وآخر أقل منه بكثير في اهتماماتي الروحية. وعلى أية حال، فقد أقلعت عن الذهاب إليها كلية بعد أن تعرفت إلى تامارا، فلم أعد بحاجة إلى التماس النشوة في مكان آخر.

كانت دموعي قد جفت، وتمالكت نفسي، عندما بلغت المنزل. لم يكن المستقبل يشغل سوى حيزا ضئيلا للغاية من تفكيري. ولم تترك فيّ الوجبة الصامتة، عبر المائدة من أبي، أثر ما. كنت أفكر في مدام لوسيت، فذكراها كانت ماتزال طازجة، وأقبلت استعيد تفاصيلها على مهل.

أويت إلى الفراش في هذا المزاج السعيد. كانت النافذة مفتوحة بسبب اعتدال الطقس. وسمعت خلالها من يتدرب على السلم الموسيقي فوق بيانو. لم تتجاوز الساعة التاسعة عندما ولجت حجرتي، لكنني كنت منهوكة القوى من جراء بكائي، أشعر بوهن في ساقيّ، فاضطررت إلى الرقاد. كان فراشي إلى جوار النافذة. وظللت أمداً طويلاً مفتوحة العينين، لا أفكر في شئ ما محدد، أتطلع إلى السماء المعتمة، وأنوار المنازل المجاورة، تتلألأ وراء شجرة الليمون، وبتسلل ضياؤها خلال خيمة أوراقها الخفيفة، فيحولها إلى شجرة من أشجار

عيد الميلاد. كان بوسعى أيضا أن أرى مزراب الأمطار، مثل لسان جاف مستقيم، وقد انزلق فوقه شبح قطة، وبعيدا، فوق تل منبسط القمة، شجرة وحيدة ملتوية، مثل أشجار الشرق الضامرة. كم حاولت خلال جولاتى أن أعثر على تلك الشجرة، بلا جدوى.

قبل أن أفيق تماماً فى الصباح التالى، وبينما كنت ما أزال بين النوم واليقظة، أخذت أتقلب فى فراشى، كأنما كنت أتشبث بالنعاس، لأتجنب شيئا يقبع فى انتظارى، شيئاً انحنى فوق فراشى، ولمس وجهى. استيقظت مأخوذة. ما الذى أعطانى الإحساس بأن شيئا رطبا لمسنى؟ لعل قطرات مطر تسللت من النافذة، أو ربما.... عندما لمست خدى أدركت انه مبلل بالدموع، وفكرت: «لن أرى تامارا مرة أخرى على الإطلاق». لم أتذكر أني تدبرت هذه الأمكانية بالأمس فى شئ من الإذعان. بل إنى كنت أفكر، أمس، فى ضروب أخرى من الراحة واللذة. فلماذا بُعث حزنى فجأة من جديد؟ بل كيف انطلقت هذه الكلمات من فمى على حين غرة: «لن أر تامارا مرة أخرى على الإطلاق». بالأمس، لم تحرك هذه الفكرة شيئا، ولم توقظ أية مشاعر. لعلها كانت مثل الجراح التى لا يشعر بها المرء فور حدوثها، ولا يتألم منها إلا بعد ساعات. كنت عاجزة عن الفهم، فالدموع التى ذرفتها فى المنتزه، دموع الغضب والحزن والخزى، جفت بسرعة. لقد عرفت هذه الدموع من قبل، عندما كان أبى يزجرنى، أو توجّه جوليا اللوم لى. لكن حزنى ساعتها كان حزن الطفل المعاقب، الذى يمكن تخفيفه بكلمة رقيقة. وعندما استغرقت فى النوم بالأمس، كنت أشعر بالسكينة وبشئ من الخَدَرْ. لم أحلم، ولم استيقظ أثناء الليل. ومع ذلك، ها هى الآن الكلمات المرعبة: «لن تشاهدى تامارا ثانية».

بكيت بدرجة أقل بكثير من الليلة الفائتة، لكنى أخذت أذرع حجرتى جيئة وذهابا، والألم يمزقنى، ورقدت ثم نهضت من جديد عشرات المرات. جربّت أن أقرأ أو أدرس، دون جدوى. وفى ثورة

غضب جنونية، مزقت نقشاً قديماً كنت أعتز به، وأنا أردد: «غير ممكن، غير حقيقى!»، لكننى كنت مضطرة للاعتراف بانه ممكن وحقيقى، فشعرت من جديد بالأسى والحيرة والعذاب. غضبت من نفسى، ومن كلماتى البلهاء: «سأذهب، ولن ترينى ثانية!».. هذه الكلمات البلهاء التى فهت بها. وتلقتها بجدية ولاشك. والمؤكد أنها لن ترغب فى أن أتراجع عنها. استأت أيضا من عجزى عن تذكر ما شعرت به من غضب عندما صفعتنى. استعدت مادار بيننا من حوار قبل أن تفعل، لأتبين ما دفعنى إلى الأنصراف وصفق الباب. ولم أشعر بغير المزيد من الأسف. ثم أضيف الخوف إلى يأسى. فماذا لو أن تامارا، بدافع الإنتقام، لم تكتف بانها لَن ترانى مرة أخرى، وأخبرت أبى بكل ما دار بيننا؟ وماذا لو أنه حبسنى عند ذلك فى المنزل أو أرسلنى إلى الدير، أو حال بينى، بطريقة ما وبين رؤية تامارا مرة أخرى! فلا أراها مطلقا بعد الآن! لكن ماذا يدعونى إلى التفكير بهذا الشكل طالما أنى، بالفعل، لن أراها بعد الآن؟

عند هذه النقطة، أصبحت عاجزة عن التفكير. كان من المستحيل تخيل المستقبل بدونها. كنت عاجزة عن أن أتصور نفسى فى الشوارع التى كانت تقودنى دائما إليها، أو عابرة للمنتزه الذى طالما قطعته جرياً لأنضم إليها بأسرع مايمكن. كنت عاجزة عن احتمال وجودها بالقرب منى، فى ذلك المنزل الذى مازال قائما. وعن تقبل مغادرتها لمنزلها فى الصباح، كعادتها، فى ملابس الفروسية، وسيرها بمفردها فى الشارع. كنت عاجزة عن تصورها فى القطار كل يوم سبت، ذاهبة الى البلدة المجاورة، أو تتناول غذاء خفيفا من البسكويت والشاى، وتمارس كل شئ كالعادة، بينما أقصيت تماما من حياتها. شعرت انى كنت قادرة على احتمال الأمر، لو أن زلزالا ابتلع رامبار دى بيجوين وحوريته المغوية، بئر السلم عميق الغور وتامارا ذاتها، بحليها وزخارفها الهشة المثيرة للسخرية، وأقنعتها الأفريقية، وتمائمها

المصنوعة من ألياف النخيل.

استعرضت في رأسي كل الأشياء الصغيرة التي تملكها والمكدّسة في صناديق الحلوى أو المبعثرة فوق الأرفف، اشياء أُعطيتْ لها، تذكارات، صناديق حياكة من الصدف، وسائد دبابيس، طلاء أظافر، زجاجات عطور، دمى دقيقة في الملابس الاقليمية. كانت تامارا، من وقت لآخر، تحطم بعضاً من هذا كله، تلك التي لم تنجح في حمايتها ذكرى سارة، ثم تستبدلها بغيرها، فتحل آنية الزهور البراقة الصغيرة مكان الجوهرة الصينية، ويظهر الجواد الزجاجي حيث كان منظف المداخن الخزفي. لا أعرف لماذا كان أصدقاؤها يصرون على إهدائها هذه الحلى التافهة التي لاتتسق مع شخصيتها. لكنها كانت مغرمة بها، تستمتع بها في لحظات الضجر، كما يحدث عندما يتعلق أحد السجناء بعنكبوت.

أوه، تامارا! تفجعت على كل قطعة من أشيائك، ندبت المنزل والشارع وضوء المصباح الطازج فوق السهل الذي تنطلقين فوقه، ندبت مدرسة الفروسية وهوارد النحيف، وكل واحد من الجياد التي تحبينها - بلزاك، عيسى، هيروندل.. وصوت القش يتساقط في نعومة، مثل منديل يُطوى، الخبب الخفيف لجوادك متجها إلى السهل، الشمس والمطر فوق وحدتي المفاجئة وأنا واقفة إلى جوار الحاجز الخشبي، شاعرة بالفراغ الذي خلفه غيابك حتى اليوم التالي. بكيت على حزني عند اختفائك، كأنما كان اختفاءً أبدياً، وفي المرات التي تحدثت فيها إليّ عن إميلي، بقسوة متعمدة، وعندما تقولين، لغير ما سبب على الإطلاق: «كلا. لن أراك غداً».

لكن ما أحلى تلك الأحزان التي تلاشت في اليوم التالي بين أحضانك! لأنه كان هناك إيضا ذراعاك، ونوبات غضبك الرقيقة، وجسدك النحيل الفاتر إلى جوار جسدي، واللحظات التي تنتابك فيها

فورة من الحنان، فتتحدثين إلىّ فى رقة، وأنت تغطين عينىّ بيدك، بدافع من احساس غريب بالخجل. وكان هناك فمك العنيف فوق فمى، ونشوتى ونشوتك. كنت عاجزة عن تقبل فكرة حرمانك من لذتك أكثر من فكرة فقدانى أنا للذتى. تذكرت كيف يتلاشى الهدوء المألوف لوجهك فجأة، عندما تومض البسمة فوقه، وتنفرج شفتاك عن أنات رقيقة، لاتكاد تسمع، بينما تنظرين إلىّ بعينين نصف مغمضتين، كأنك تغرقين في حنان سائل، وأسمع من جديد تلك الصيحة الحميمة، منطلقة من أعماق كيانك، أسمع أصوات كالهديل تنتهي بعويل، بينما أنيابك الحادة تعض على شفتك الشاحبة، ولا تعودي قادرة على اخفاء نشوتك الخبيثة بل الحيوانية. أجل، كل هذا كان اللُّب المتأجج، الحريف، الذى يتفطر له القلب.. لبّ حبى لتامارا.. النار التى أدفأت عقلينا، واخترقتنا سخونتها خلال جولاتنا على الأقدام، وأثناء الساعات التى كنا نقضيها سويا فى القرآءة إلى جوار المدفأة، أو عندما كنا نذهب إلى مدرسة الفروسية -السهل، الصباحات، النهر، المنزل، السماء نفسها... الجميع تلقوا دفئها. كان النهر سيبقى مجرد نهر، والسماء مجرد سماء، والصباح مجرد صباح، لو لم يغتسل كل منهم فى ذلك الضوء المتأجج: وجه تامارا فى نشوتها.

***

عشت فى هذا الجحيم ثلاثة أيام. ادعيَتُ أن الأنفلونزا هى التى ألزمتنى الفراش. وجاء أبى لرؤيتى، وقد بدا عليه الإنشغال أكثر من المعتاد، فلمس جبهتى وعندما وجدها ملتهبة نصحنى باستدعاء الطبيب. رفضت هذا. وفى اليوم الثالث، شعرت بقليل من التحسن، واذا بحادث يعيدنى إلى هوة اليأس. فلكى أبرر بقائى فى الفراش، شكوت الأرق، فجاءتنى جوليا بفنجان من شاى الليمون المحلّى قليلا بطعم الفانيليا. وكانت تامارا، فى لحظات رقتها العارضة، تقدم لى شاى الليمون ثم تضيف إليه بعض الفانيليا. وعندما أشربه، كنت

أشعر بلذة انتهاك المقدسات، لأنه كان يذكرني بما تعده لي جوليا. وهو ما كان يجسدلي راحة الحياة الأسرية. كما كان يبدو لي، وأنا أتناول الفنجان من يدى تامارا، إن حبي القلق، الرعديد، والمشبوب لها، ينضح بطريقة ما حبي البنوى لجوليا. وهكذا ما ان أبصرت الفنجان في يد الخادمة وشممت تلك الرائحة، حتى بهت وانفجرت بالبكاء.

تفاقمت حمتى، وأعلن أبي أنه لابد من عرضي على الطبيب في الغد، أحببت ذلك أم لم أحبه. وبالصدفة، نمت جيداً في الليل، وعندما رآني الطبيب في اليوم التالي، منتعشة، فيما عدا قليل من الشحوب، أعلن أنى لا أشكو من شئ ذى بال، وأمرني بحزم أن أعود إلى المدرسة وأكف عن التمارض.

صدعت بالأمر، وظللت، عدة أيام أجر قدميّ من البيت للمدرسة، قائمة بالتفافات سخيفة لأتجنب شارعا أو منزلا قد يذكرنى بتامارا. ولم أعد أتمشى في المتنزه أو أقترب من قوارب الميناء. لم أعد أتسكع أمام واجهات الحوانيت، حيث تتملكنى الرغبة في آلاف الأشياء: أقنعة المهرجانات، رؤوس المغازل، الرخام الملون. لم أعد أقرأ، لم أعد أفعل أى شئ. وإذا جلست إلى المائدة، كنت دائماً أكسر كوباً أو طبقاً. فاذا ما غادرتها لأحضر منشفة نظيفة، كنت أتعرض للحظة من الشرود، فما أن أصل إلى الدولاب حتى أكون قد نسيت تماما ما أبحث عنه. لم يعلق أبي بشئ، لكنه كان يرقبني في قلق.

في نهاية أحد الأسابيع، لم أعد قادرة على تمالك نفسي، وقررت الذهاب إلى مدرسة الفروسية. كنت آمل أن ألتقى بتامارا، فاقتفيت أثر الطريق الذى تسلكه عادة إلى هناك. لكنى لم أبصر سوى بعض العمال فوق دراجاتهم، متجهين في صمت وسرعة إلى أعمالهم، وصوت عجلاتهم يتردد في السكون مثل رفيف أجنحة. هل أقلعت

تامارا عن الركوب في الصباح؟ أم اتبعت طريقا أخرى، لتتجنبني؟ بلغت البوابات الدوارة، دفعتها في رفق كي لا أحدث صوتاً، كي أرى دون أن يراني أحد. فقد خشيت أن تكون هناك وتراني فتغضب وتعنفني أمام هوارد. لكن البوابة أطلقت صريرا مرعبا، جاء بهوارد نفسه من إحدى المرابط بحثاً عن السبب.

قال : «أوه، هالو يامدموازيل!». وبدا لي صوته أقل طبيعية وسماحة من ذي قبل.

قلت متلعثمة: «هل.. هل مدام سولر هنا؟»

تأملني في فضول ثم قال: «كلا .. لا أعرف إذا كانت ستأتي اليوم .. هل تحبين الإنتظار؟»

هالتني فكرة المشهد الذي قد يراه الجوكي فقلت: «كلا، كلا». وهربت في حالة يرثى لها.

ما ان بلغت ناصية الشارع حتى رأيت تامارا. كانت تتقدم ناحيتي، غارقة في التفكير، وهي تضرب حذاءها ذا الرقبة بسوط الركوب. تسمَّرتُ في مكاني عاجزة عن الحركة، واقتربت هي دون أن تلمحني. ورغم عذاب الخوف والحزن، لم أتمالك نفسي من التطلع بفضول إلى وجهها. أردت أن أرى كيف تبدو عندما تظن أنها بمفردها. بدا لي أقل صلابة، مستغرقاً في تفكير حالم، بومضة عذوبة فوق الوجنتين. أكانت تفكر بي؟ كاد يغشى عليَّ عندما تخللَتْ شعرها بأصابعها، كما تفعل عادة. وأخيرا، عندما أصبحت على مبعدة عشر ياردات أو أكثر، استقرت عيناها فوقي. لم تجفل، وواصلت تقدمها بنفس المشية المتمهلة وهي تنظر إليَّ. تمنيت أن أهرب، أو أغوص في باطن الأرض، لكنني لم أستطع حراكا. كنت مسمرَّة لصق الحائط بفعل قوة غامضة. وخطر لي أنها قد تلطمني على وجهي بسوطها، لكن هذا الخاطر لم يمدني بالقوة على الحركة. مرَّت بي دون أن تنبس

بكلمة، وهي تنظر إليّ كأني أحد المارة المجهولين، ثم اتجهت إلى المدرسة. ورنّت مسامير نعلي حذائها فوق الحجارة بصوت واضح مجرد من أي شفقة. سمعت صرير البوابة، ثم اختفت. بقيت في مكاني، في ناصية الشارع، الذى كان مايزال غارقا في الظلمة، أسفل ضوء المصابيح المضطرب. وبعد دقائق ظهرت، ممتطية صهوة بلزاك، وانطلقت نحو السهل دون ان تلتفت لتتبين ما اذا كنت في مكاني مازلت.

همتُ على وجهي طيلة الصباح في الناحية، مثل كلب ضال، تأخذنيَ البغتة عندما يدخل أحد الجياد الحظائر أو يخرج منها، على أمل أن ألمحها، متوارية عن أنظار هوارد، الذى قيل له ولا شك أنها لا ترغب في رؤيتي مرة أخرى. لكنني لم ألمح لها أثرا. فلا بد أنها مضت إلى جانب السهل، ملتفة حول البلدة، بحذاء السور والميناء، كي لاتصادفني. انتهى كل شئ فعلا.

اتجهت إلى منزلي. كنت قد غادرته في السادسة صباحا، وبقيت في الشوارع المتربة حتى الظهر. ولهذا كنت في حال تعسة، متسخة، منهكة، وبلا أمل. تمنيت أن أصاب بمرض خطير يهدد حياتي. وعندئذ تأتيني تامارا تائبة، لتنحني فوق فراشي وتغمغم: «اغفري لي! لم أقدر حبك حق قدره!». وبهذه التخيلات تمكنت من هدهدة حزني حتى بلغت المنزل، حيث يمكنني أن ألجأ إلى فراشي وأبكي كما أشاء.

وجدت جدي في غرفة المائدة، جالسا فوق مقعد من الدمسق، أحمر اللون، وساقيه الطويلتين ممدتين أمامه، وفي فمه غليون.

يعيش الآن جدي، الذى كان صائد سمك في شبابه، متقاعدا برفقة شقراء في الأربعين من عمرها، يدعوها بمدبرة منزله. كان عكر المزاج، غير مبال بنظافته أو هندامه عن عمد، ساخطا على بطالته الإجبارية (بعد ان فقد ذراعاً في حادثة)، يزدرى ابنه الذى ارتقى في المراتب الإجتماعية إلى مكانة «صاحب عمل». لهذا كان يجد لذة

خبيثة فى مضايقة أبى بين الحين والآخر، بإغارة على منزلنا يعقبها دائما شجار عنيف.

«حسنا! جئت أخيرا، أليس كذلك؟ اعتقدت أنكم هجرتم المنزل كما تفعلون دائما عندما ترونني قادما. لكم طريقة خاصة فى الترحيب بالمرضى والمعوقين! أين رينيه؟»

أجبت متلعثمة: «أظنه خرج». فقد حالت دهشتي دون ابتكار عذر ما، إذ كنت على يقين أن أبى هرب عندما علم بمقدم أبيه.

قال: «بالطبع! لو لم يفعل لدهشت! لقد تلفنت هذا الصباح لأقول أنى قادم ولم تكونى بالمنزل. لو كنت «خرجت» أنت الأخرى «لاشك»، لم أعبأ بإنكار ذلك لأنى لا أصغى عادة لما يقوله. كنت ما أزال أرى تامارا تقترب منى دون كلمة، تبدو لا مبالية، كما لو أننا لم نلتق، ولم نتبادل الحب.. وفكرت فجأة: لعلها لم تحبنى مطلقا. لعلها كانت تتسلى وحسب، لتملأ فراغ بعد الظهر الطويل. ربما كانت تهزأ بى منذ وقت بعيد. كلا، لم يكن هذا ممكنا. كانت حنونا معى ورقيقة، أحيانا. ذات يوم أحضرت لها زهورا فقالت فى رقة بالغة: «يجب ألا تفعلى هذا أيتها الطفلة العزيزة الغبية». وفى مرة أخرى طلبت منى أن أسجل قائمة كبيرة من الكتب لأقرأها. وتذكرت شيئا. قالت لى ذات مرة، ونحن مستلقيتين جنبا إلى جنب فوق أريكة غرفة المعيشة: «هذا هى المرة الأولى، يا أعز الناس، التى أشعر فيها بالسكينة منذ جئت إلى هذا المكان». كانت تدعونى بأعز الناس لديها، بواحتها الصغيرة فى الصحراء. أجل، لقد أحبتنى فعلا، لاشك فى هذا. وأرانى إلى جوارها مرة أخرى، نتمشى، ونقرأ سويا، وقد أشرق وجهها بالبهجة، وأرى من جديد يديها الجميلتين تسحقان أعقاب السجائر فوق المائدة، أو تحيك فى حرص بالغ، كأنها ملاح يصلح شراعا. أوه، وجهها، دائما وجهها... لكن كيف يسعها، لو كانت تحمل لى أقل قدر من

الحنان، أن تعاملني بهذه القسوة، وتتظاهر بأنها لم ترني، ولا تلتفت لتتبين ما اذا كنت ما أزال هناك، تائبة هدّها الحزن... أجل، كنت أنا التائبة! فمهما حاولت اقناع نفسي باني لست مذنبة في شئ، كنت نادمة في أعماقي على انصرافي المفاجئ وكلماتي الغاضبة.

ومرة واحدة، بصورة فظة، منطقية، غير متوقعة، مثل شعاع ضوء، خطرت لي فكرة: انها لم تحرّم على العودة! أنا التي فرضت على نفسي الحرمان بنفسي! لماذا لم أدرك منذ ذلك اليوم البغيض، أني أستطيع العودة إلى مسكنها؟ لأني تصورت انها ستأخذ بجدية كلماتي القاطعة، بأني لن أزورها مرة أخرى. عندما فهت بتلك العبارة، شعرت أني نطقت بحكم اعدامي، وكانت تعاستي، التي تمخضت عن عبارة «لن أر تامارا مرة أخرى على الإطلاق» من الحدة بحيث حالت بيني وبين أن أدرك، خلال الأسبوعين الماضيين، أني أنا، وليست هي، من قالتها. إذن.. لعلها انتظرت عودتي؟ وربما كانت تعيسة مثلي، لكن كبرياءها منعتها من اتخاذ الخطوة الأولى؟ ربما مازالت تحبني! هذا الأمل، الذي انتعش في نفس اللحظة التي اعتقدت فيها أن كل شئ قد ضاع، رفع معنوياتي إلى السماء. كل شئ الآن يمكن تفسيره. لقد انتظرتْ عودتي طوال اسبوعين، ولهذا تجاهلتني بدافع من غضبها المشروع. كانت غاضبة مني لأني تركتها، ولعلها ظنت أني لم أعد أحبها، مثلما ظننت أنا أنها لم تعد تحبني. فهمت كل شئ، وصفحت عن كل شئ، واغتفرت كل شئ. حتى العنف الذي مارسته معي، وأثار حفيظتي، بدا لي الآن مشروعا. لعلها ظنت أني عازفة عن إمتاعها، أو أني أشعر بالعار من صحبتها، أو ... أيا كان الأمر، كنت على استعداد لمغادرة المائدة، والأندفاع إلى رمبار دي بيجوين، لأحيط عنقها بساعدي، وأحدثها عن مدى حبي لها، وعن تعاستي، وعجزي الغبي عن الفهم. لكن ما كان بوسعي أن أترك جدي، الذي جلس هناك، يأكل في صمت، صورة مجسمة للأستياء.

أكل بشراهة، ومسح شاربه عدة مرات، لأنه كان طويلا يتخلل الحساء. لكنى كنت أتأمله فى سماحة. كنت مذهولة من غبائى، ومعاناتى المروعة نتيجة شئ لا وجود له. وبدأت أشعر بالسعادة لأنى عانيت إلى هذه الدرجة، طالما أنه لم يكن ثمة مبرر، وطالما أنى، بعد ساعة، إذا لم تكن تامارا بالخارج، سأستمتع مرة أخرى بالسعادة التى خلت أنى فقدتها إلى الابد، وستكون سعادتى أكثر لأنى قادرة الآن على تبين مداها. نظرت إلى منكبى جدى الكبيرين، ويده الوحيدة، وقد بدا ضخماً، تعوزه رشاقة الحركة والتعبير، مثل وحش غريب، ووجهه المغضن، وعينيه الصغيرتين الرماديتين الحذرتين. وأدركت فجأة أنى عاجزة عن كتمان مابقلبى:

قلت: «أتعلم ياجدى؟ أنا جد مغرمة بك».

رفع رأسه فى دهشة، فلم تكن عادتنا ان نتبادل كلمات الحب.

سألنى فى شئ من التبرم: «أأنت مريضة؟». لكنه فيما يبدو ندم على وقاحته فى الحال ومال نحوى قائلا: «أجل ياطفلتى. وأنا مغرم بك. ليس بك الكثير من أبيك، وتبدين أحياناً مثل واحدة من فتياتنا». وكان يعنى بذلك بنات الصيادين، مقابل بنات أصحاب الأعمال، الأعداء، فاعتبرت حديثه من قبيل الثناء. لكنى التمست عذرا، بعد الحلوى مباشرة، للأنصراف.

قلت: «انهم ينتظروننى فى المدرسة الآن».

قال: «آه! أنا أعرف ماذا تعنين بالمدرسة. حسناً، حذار أن تحملى وإلا أنت تعرفين ماسينالك من أبيك!»

تضرج وجهى بشدة، على ما أظن. لكنى لم أعبأ بنصيحته. شعرت أنه مسرور من فكرة قيامي بأفعال ما من وراء ظهر أبى.

قلت: «وداعاً ياجدى».

قال وهو يمسكنى من خاصرتى: «لينا، اذا واجهتك أى متاعب، تعالى إلى جدك العجوز، وسوف يصلح كل شئ. والآن، اذهبى أيتها التافهة التى لا تصلح لشئ».

لم يحدث أبداً من قبل أن تخلى عن تحفظه. وأدركت أنى فزت بعطفه. وشجعنى ذلك، إذ اعتبرته إشارة من السماء.

مضيت دون امهال إلى رامبار دى بيجوين. وارتقيت الدرج جريا، دون أن ألقى نظرتى الودودة المعتادة إلى التماثيل الانثوية،و وضغطت جرس الباب. فعلت ذلك دون تفكير، ودون حتى أن انتظر حتى ألتقط أنفاسى.

فتحت تامارا الباب بعد برهة.

كانت خطتى الوحيدة أن ألقى بنفسى بين ساعديها، وأترك العنان لدموعى، ثم تتولى الصدفة أمر الباقى. لكنها وقفت بعيدا، فعجزت عن تنفيذ مانويته، وبقيت أمامها فى بلادة، أحدق فى خطوط الأرضية. فاضت عيناها، الباردتان عادة، بنظرة ساخرة. لكنها تكلمت، كما اعتقدت، بشئ من الرقة.

«آه... ها أنت قد جئت!».

قلت: «أجل، فكرت.. اعتقدت..» وتلعثمت، عاجزة عن التعبير، وأنا فى مكانى عند المدخل.

تراجعتْ إلى الوراء، مفسحة لى الطريق، وقالت: «ادخلى لحظة».

وجدت نفسى أخيرا وسط الحجرة. وبأمل التوصل إلى مصالحة، خطوت نحو الأريكة لكنها جلست فوق ذراع مقعد واستوقفتنى قائلة: «أنا أمنعك من الجلوس. أجيبينى أولا. هل تغلبت على نوبة غضبك الصغيرة؟ هل ندمت على انصرافك؟»

غمغمت: «أجل». كانت تتأملني من أعلى إلى أسفل، فشعرت باضطراب شديد، وارتعدت خوفا من ألا تتطور الأمور بيننا كما تمنيت.

«تريدين العودة؟ كأن شيئاً لم يحدث؟»

أطرقت برأسي.

«حسنا جدا. اطلبي الصفح».

وكانت تعبث دون اهتمام بنرد.

«إذا أردت البقاء، فيجب أن تنحني فوق ركبتيك، وتطلبي المغفرة».

لم يكن هذا بوسعي. ليس بدافع الخزي أو العناد. فلم يكن بامكاني الركوع وسط هذه الغرفة، وأمام هذه المرأة، التي كانت تتأملني بتهكم، وتسألني التوسل طلبا للمغفرة على شئ ارتكبته هي في حقي. هكذا وقفت مكاني بلا حراك، أناشدها بعيني ألا تطالبني، وأن تدرك أني نلت كفايتي من العقاب لو كنت استحقه، وأني أحبها.

اعتدلتْ واقفة، وتقدمتْ مني في عزم، ودون أن تضيف كلمة، استغلت بغتتي، وأمسكتني من كتفيّ ثم دفعتني نحو الباب. وعندما صرت في الخارج، أغلقته خلفي.

بقيت وحدي في بئر السلم الذي ساده الصمت. وجاءني صوت إرتطام متتابع من الفناء. لها بد أن أحدا كان ينفض سجادة. لم أعد قادرة على احتمال المزيد. فبعد ماعانيت من عذاب، راودني الأمل المجنون، وأخيرا هذا السقوط من جديد في هاوية التعاسة، التي لن يكون لها حد هذه المرة. فلن تتراجع عن موقفها، ومهما توسلت وناشدت، سيبقى بابها مغلقا إلى الأبد في وجهي. إلى الابد.

ضغطت الجرس من جديد. لم تفتح الباب. فالتصقت به: «تامارا!

انها أنا! إفتحي الباب، أتوسل إليك! سأفعل كل ماتطلبين!»

انتظرت مدة طويلة في سكون مطبق. كانت في الغرفة ولاشك. فعندما دخلتُ كان الباب المؤدي إلى المطبخ مغلقاً، وما كان بوسعها أن تفتحه دون أن أسمع صوت احتكاكه بالأرض. بمعنى هذا انها مازالت في الغرفة، خلف هذا الجدار، وأنها سمعت صوتي. كنت أعرف أن أي شيء يحدث عند العتبة، يسمع بسهولة في الداخل. ومع ذلك لم تفتح لي! كانت تتعمد تعذيبي، وتريد ان ترى إلى متى سأبقى متوسلة عند الباب المغلق. لكن ذلك لم يكن ذي أهمية كبيرة، على تصرفات قبل ... رها. فما كان بوسعي أن أواجه مرة أخرى أياماً كتلك التي ... صمت. يستطيع المرء أن يتقبل نازلة ما، عندما لا يدرك كنهها بالضبط، عندما تأتي بشكل مفاجئ، وتهبط فوقك كثقل هائل لا مكان منه. لكن عندما تعرف التفاصيل الكامنة لها، وتكون قد قضيت أسبوعين تحت وطئتها، وعانيت كافة مراحلها: المرض، الآمال الزائفة، الذكريات، الانتظار القلق والمثير للسخرية- وعندما تكون قد تجاوزت هذا الجحيم، وشعرت بأنك قد نجوت، وأصبحت على أهبة أن تتدم شفتيك لفرح جديد، تكفي كلمة واحدة لأن تقضي عليك. ولهذا لايمكن احتمالها. إذ كيف يمكنك الاحتفاظ بصفاء التفكير، كيف يمكنك أن ترفض أية تضحية، أو ترفض التوقيع على حكم اعدامك؟

توسلت إليها: «تامارا!». وفي مواجهة هذا الصمت فقدت كل سيطرة. كان لابد من اجبارها على الاستجابة، ومن رؤيتها مرة أخرى، مرة واحدة أخرى. فإذا كان الفراق محتماً، فلا يجب أن يتم الأمر هكذا، دون وداع، وبلا ايضاح. انتابني هياج بالغ، وتمنيت لو أطلقتْ العنان لغضبها، وانفجرت ثائرتها، واتهمتني بشئ ما على الأقل!.

«تامارا! افتحي الباب. سأطلب الصفح والمغفرة! تامارا! يجب ان أراك!»

ضغطت الجرس مهتاجة، وخَبَّطت على الباب، وأنا أنشج وأتوسل. لم أعبأ بأن يسمعنى السكان الآخرون، ولم تعد تامارا نفسها بذات أهمية. فقد استحوذت علىَّ فكرة واحدة: لابد من فتح الباب.

«سأظل هنا حتى تفتحى! سأبقى طول الليل!»

غصصت بالدمع. وبلغ بى الأمر أن ضربت الباب بحذائى، ظناً منى أنها ستفتحه عندئذ إتقاء للفضيحة. وأخيرا، خانتنى قواى، فتهاويت على أرض البسطة، وأنا أردد فى هسترية كلمات غير مفهومة، وأعض منديلى، وأتمرغ على الأرض، وأضرب رأسى فى الحائط، هذا الباب المغلق..

وفجأة، أُسْكتُ وشُلَّ كيانى : فقد خرجت تامارا إلى البسطة. انحنت فوقى، فأنهضتنى فوق قدمى، وقادتنى وهى تسندنى إلى الداخل، نحو المطبخ. قامت بكل هذا فى برود، أدركت معه أن سلوكها نابع من الضرورة. واصلت البكاء فى صمت، بمثل ما واصل قلبى الدق، وكدت أختنق بدموعى المكظومة وأنا أسعل وألتقط أنفاسى. كان ثمة صنبور يَقْطرُ فى بطء. كنت خائفة، شاعرة بالخزى، وكلما نظرت إليها عاودنى السعال والنشيج بشكل لا إرادى. وبعد دقائق أمسكتنى من رقبتى، ودون أن تعبأ بمقاومتى، وضعت رأسى أسفل صنبور الماء البارد، بعد ان فتحته على سعته. وأخيرا أطلقتنى، وانتظرت فى صمت حتى انتهيت من تجفيف وجهى وعنقى، ثم أشارت لى أن أتبعها إلى غرفة المعيشة. وهناك أومأت إلى وسط الأرضية وقالت بايجاز:

«اركعى».

هذه المرة ركعت دون تردد. ففى تلك اللحظة كان بوسعها أن ترغمنى على أى شئ.

قلت فى ذلة : «اصفحى عنى!».

نظرت إلى لحظة.

قالت: «طيب».

ثم تقدمت منى. ظننت أنها تنوى الأستمرار فى تعذيبى، وانها ستصفعنى، وعاهدت نفسى على الخضوع والقبول بكل شئ. لكنها ركعت إلى جوارى، واحتوتنى بين ذراعيها، وقبلتنى، ببطء، ودربه وحلاوة، إلى أن دفعتنى إلى الخلف، ورقدت بين ذراعيها فوق الأرضية.

***

لم أعهد مطلقا من قبل لذة أكثر حدة من تلك التى عرفتها فى ذلك اليوم الذى ظننت فيه انى فقدتها. ولم أدرك من قبل بمثل هذا الوضوح، مدى سلطانها على، واللذة الشريرة التى تستمدها من استخدامه.

استيقاظ مود
للكاتبة الامريكية
مارج بيرسى
(١٩٦٦)

Maud awake

by

Marge Piercy

1966

بعد الحمام، جلست فى قميصى الداخلى أمام مرآة زينة أمي. بدا أن جوا احتفالياً يخيّم على الغرفة الصغيرة بجدرانها الوردية القديمة. قوسّت عنقي، وشدَدَت قاماتى بقدر ما أستطيع، لأبدو أطول مايمكن أمام المرآة، مُجللة بالرغبة، أميرة وكاهنة في آن واحد. طقس الوحدة الذى سيصهرنا فى كائن واحد. كان بوسعى أن أتبين فى صفحة وجهى، شحوب التركيز، قوة العزم والقرار. لو فقط كنت أبدو أكبر سنا. هل أقترض مساحيق أمي؟ كم من المرات تخيلت هذه الليلة، بابطال عديدين مختلفين، فى مدن محاصرة، فى سجون وقصور وخيم. يفعلْ الحب- يالها من عبارة متوترة. ها أنا الآن فى بؤرة مشهد: أريد استعدادات أكثر دقة، مونولوج، موسيقى تتصاعد حتى الذروة، كورس من المشاهدين.

(تجلس أمام المرآة فى الدقائق الأخيرة الضئيلة من تمالك النفس والانفصال كشجرة بينما فراشة الخوف تخفق فى عنقها...)

«لم تنته بعد من ملابسك؟». تغلق أمي الباب، فتصطفق حمّالات الثياب، وتخف أربطة عنق أبى. «لماذا تتلكأين؟ لست من أنصار ترك الرجل ينتظر».

هل تنصرف إذا ماتجاهلتها؟ اذهبى، أرجوك.

تنظر إلى الرداء الملقى فوق الفراش، بلوزة سوداء اشتريتها فى الصيف الماضى لأذهب فيها إلى العمل: «ماذا سترتدين؟»

أستجمع شجاعتى: «هذه بالطبع».

أرتدى البلوزة، فتنزلق الأزرار الصغيرة الفاحمة السواد، من بين أصابعى الساخنة.

«أسود؟ لماذا ترغبين فى مظهر كئيب؟»، وتزيل بأظافرها فى سخط، نسالة وهمية من الجوبة.

أنكمش، فى محاولة لتجنب لمستها: «لا بأس من ارتدائها فلون بشرتى فاتح». لماذا أدافع عن نفسى؟

«كأنما مات أبواك! أسود أسود أسود! انتظى حتى تشبعى من الجنازات». وترتمى فوق البنش بتنهيدة راحة، معتمدة بذراعها على حافة المزْينَة: «ماذا ينتوى هذا الفتى... مايكل؟»

«التدريس فى الجامعة».

«هؤلاء لايكسبون كثيراً».

«لا شأن لى يا أمى، فلن أتزوجه!»

«بالطبع لا. ألا يمكننى أن أعلق بشئ؟» وتلتقط شعرة من فوق كتفى ثم تشد ردائى: «وأبوه، ماذا يفعل؟»

«كان طبيبا، لكنه مات».

«مسكين». وتنحنى لتقرص ذراعى هامسة: «يهودى؟»

أطرقت برأسى مؤمنة.

تستدير إلى المرآة، ترمق نفسها وتتخلل شعرها بالفرشاة: «أبوك لن يحب ذلك. هل هو من الأصوليين؟»

«كلا».

«أنت تعرفين المشكلة التى كانت مع جدتك. كان بابا يقول دائما: نحن فى حاجة إلى أساليب جديدة فى الأرض الجديدة. كان

رجلا متقدما للغاية. كان يقرأ خمس لغات، وكانت انجليزيته تامه».

«مايك متخصص فى اللغة الأنجليزية».

تترك يديها تسقطان فوق فخذيها وهى تهز رأسها: « لم أر أبدا أى نفع عاد به ذلك على أبيك، وهو يبيع من باب لباب، ويعمل فى دكان أحذية، ثم يموت تاركا لنا كل هؤلاء الأطفال. انها حياة صعبة، يأكل فيها الكلب أخاه، فلا تنصتى لهؤلاء الأساتذة عندما يقولون لك شيئا مختلفا». تجلس محملقة لحظة، ثم تنفجر كأنما عارضتها: «لكنه كان رجلاً ألمعياً، لاتنسى ذلك!»

لماذا لا يأت؟ أعبث بشعرى. تلمسنى مرة أخرى لتصنع به شيئاً ما. يقْشَعِرُ جلد رأسى، وتنتقل منه شرارة إلى يدها: «هكذا كنت أصفف شعرى فى سنك ياحبيبتى. سيبدو شعرك حلوا للغاية بهذا الشكل. دعينى أقُصّه لك».

قوة الإغراء فى صوتها الملاطف: اتركى نفسك لى، وسيكون كل شئ رائعا فى حديقة ما كان. لا أجرؤ على تذكر كم كنت أحبها عندما كنت صغيرة فوق حجرها: «مايك يحبه هكذا». لماذا تحدق فىّ بذلك التوق العارم، ليس لى. وإنما خلالى، لتجعل منى شبحا يجسد أحلام يقظتها؟ عندما تؤطرنا المرآة، نحن الإثنتين، جنبا إلى جنب، لا أستطيع النظر إلى نفسى بموضوعية.

يرن جرس الباب بدقاته الثلاث، الوسطى معطوبة ومكتومة، دينج تونك دونج. أنهض وأجرى إلى الباب.

«الآن تسرعين». وتمرق إلى جوارى، محتكة بى، نحو الدوران المؤدى إلى غرفة المعيشة، وهى تربت على شعرها.

أبى يهز يد مايك، وقد بدا الإثنان متجهمين، بينما تقافزت أمى متوردة بالفضول: «لابد أنك مايكل! تكلمت مود كثيرا عنك!»

«كيف حالكم؟». لو كان مايك قد دُقَّ بمسار إلى الجدار، مابدا أكثر تصلبا. فقد تجمد وجهه فى رسمية عمياء، ناظرا إلى الأمام مباشرة، إلى لا شئ. يجلس فى المقعد الذى عينّته، إلى جوار التلفزيون. يبدو موصدا فى مواجهة منزلنا. أحن إلى الرسوم المدورّة على شكل العجلة فوق الأذرع العظيمة للأريكة، والطواويس المذهبة المختالة فوق العتبات العالية، والفوضى الخزفية المبهرجة فوق الأرفف ذات الحليّات الدقيقة التافهة. لايعرف كيف يقرأ معنى ساحة معركتى المقدسة، قصرى المتخم. هذا المنزل، المزخرف بالحواشى والأجهزة، يطفو مثل فقاعة فوق سطح كبرياء أبوىّ وزهوهما. لم أرهما من قبل أكثر عرضة للأنتقاد من الآن، أمى فى المقدمة، فوق الأريكة، وأبى فى الخلفية، وراء سحابة من الدخان، يتساءل ولاشك لماذا لم أظل فى العاشرة من عمرى، أو لماذا لم أكن صبيا. لكنه يتحامل على نفسه، ويسلّك حنجرته:

«ماذا تدرس فى المدرسة؟»

«الأدب ياسيدى.».

يطرق أبى برأسه: «هل تعمل والدتك؟»

«انها متخصصة فى المكتبات».

تفور رغبتى فى حمايته وأنا أشهد التوتر يتزايد حول فمه وعينيه: «سوف نتأخر على العرض». وأجذب سترتى، فاصطدم به عندما قفز واقفا، متأخرا بعض الشئ، ليساعدنى.

قَرْقَت أمى بلسانيها: «مايكل! أعرف أننا لسنا بحاجة لأن نطلب منك ألا تبق مود بالخارج حتى وقت متأخر. أنا واثقة أنك فتى طيب، وأنت تفهم أننا سنشعر بالقلق عليها. ثم أنك لن تسوق بسرعة؟».

أشعر بنا نتحول، تحت نظرتها التى تشع بهجة وسعادة، إلى

مراهقى الرسوم المتحركة. وأخيرا نصبح فى الخارج ومايك يهرولنى نحو السيارة.

«ياسلام! حلو الخروج. أليس كذلك؟» لايرد على. «ماذا كنت تفعل؟» مرة أخرى لا اجابة. لماذا؟ لابد أنه غاضب لأن أبوىّ وجّها إليه هذه الأسئلة الكثيرة. يقود السيارة كأنما يهرب من أحد، منطلقا فى شوارع جانبية بصورة عشوائية، فى دوائر عفوية، لكنها تزداد اتساعا. التوتر العصبى رفيق ثالث بيننا. ليس هذا صمتنا الجميل، لكنه صمت فَجّ، وضيع. يسلك حنجرته دون أن يتفوه بشئ. لا أجد ما اقوله وأذيب به جمود وجهه. إنه لا يحبنى. أسرته استعادته بأن سرقته منى.

أخيرا: «قولى شيئا!»

«ماذا تريدنى أن أقول؟»

«ألا تعرفين؟ فكرى». ويدفن عقب سيجارته فى المطفأة فينبعث منها دوش من الشرار الاحمر.. «تُهنا».

«سأنتبه إلى لافتات الشوارع».

يقود ببطء أكثر وهو منحن إلى الأمام. يقود متطلعا أمامه مباشرة، وأجلس الى جوار النافذة أرقب الأضواء تومض مبتعدة، خائفة لو نظرت إليه أن يتهمنى بالتحديق فيه. ماذا فعلت؟

«ربما كان الأمر هكذا: كل عملية الترقب والواقع. الخيال يذوى متحولا الى حقيقة».

ألمح لافتة شارع شبرمان، لكننى لا أجرؤ على مقاطعته. كرة من الزئبق البارد الزلق تتشكل فى معدتى.

«ما رأيك لو انتحرنا الآن؟ قبل أن نذوق الواقع؟ من يعرف إلى أى درجة سيخيب أملنا؟» كل ما أفهمه أنه لا يريدنى. أتمنى لو أن

حائطاً سقط وغطى عاري. تزداد ظلمة الشارع أمامنا ونحن نُقَعْقِعُ فوق معبر لخط حديدي: مصانع ومخازن صغيرة براجهات مُصْمَتة مقبضة.

«أجيبيني! أأنت هنا، هل مللت؟»

«أنا تعيسة. ماذا تريد؟ أنا هنا، وراغبة. لماذا تعاقبنا؟» أميل بخدى على الزجاج. موقع انتظار خال.

«لماذا لا تقولينها؟»

«أقول ماذا؟»

«ماذا تتصورين؟ لاشئ غير أنك تحبينني. إذا كنت».

أحدق فيه وهو في انحناءته العدائية فوق المقود: «بالطبع أحبك».

يتوقف إلى جوار منحدر الشحن لمبنى مظلم: «لماذا لا تقولينها؟»

«متى؟ أنت لم تعطنى الفرصة أبدا».

«لأنك دخلت السيارة وجلست أبعد مايمكن..»

«لكنك... دعنا نبدأ من جديد. طاب مساؤك يامايك».

«يا الهى. لقد افتقدتك هذه الأيام الثلاثة. من لحظة نهوضى فى الصباح دون ان يكون تليفونك هو الذى أيقظنى».

ظلمة، فيما عدا ضوء الشارع الأزرق الشاحب، ووهج الساعة التى يخلعها ويلقى بها فوق لوحة القيادة. صمت معدنى يحيط بدقات أصابعه فوق المقود. يلمس كتفى ونتبادل القبلات فى خجل. ملاطفات بطيئة ونحن نتظاهر بعدم حاجتنا إلى العجلة. أشعر بثقل تنفسى. يقبل عنقى، ويمس شعره الحريرى شفتى... زراير قميصه صغيرة وخانعة لأصابعى، كأنها تختفى من تلقاء نفسها. تحته يبدو عاريا، بشعر

أصفر يحدث دغدغة.

«لماذا هذا التجويف وسط صَدْرك؟»

يتعمد مضايقتي: «ولماذا ليس لديك مثله؟»

تحرير كل واحد منا يختلف عن الآخر. تبدو ملابسه الداخلية، للمفاجأة، مألوفة، لأنها تشبه ماتبتاعه لي أمي في الأوكازيون: أقطان، بيضاء، طفولية. أجذب بخرق، فيتحرر. أمر كوميدي: ذات مرة أعطاني عمي علبة صغيرة، تزيح غطاءها فينبثق رجل يحمل مطرقة وينهال بها على أصابعك.

يتحسس بطني في رقة: «بشرتك ملساء وبيضاء، كأنها من القمر. لكنك أكثر دفئاً».

***

***

«ارشديني.»

«لماذا تتوقع مني أن أخبرك؟ المفروض انك أنت الذي يعرف كيف..»

يئن: «ياالهي!». يعتدل جالسا وهو يدعك ظهره: «المقود اللعين يكاد يخترق عمودي الفقري. تعالي ننتقل إلى الخلف».

نتكئ، كل منا على الآخر، شاعرين بالحنق والغيظ. يداعب شعري. وأمد يدي إلى علبة سجائري، فأشعل واحدة نتبادل تدخينها.

«مايك، هل أنا مختلفة عن الأخريات جسديا؟»

«وكيف أعرف؟»

«ألم...»

«خبرتي قدر خبرتك بالضبط». يحوِّل وجهه بعيدا.

«أرجوك. انظر إلىّ. أنا مسرورة. لأننا متساويين».

«تحاولين التهوين من الأمر».

«يجب أن تكون مسرورا أنت الآخر. لو كان لك ماضى، لأصبتك بالجنون من كثرة الأسئلة».

يضمنى إليه: «على كل .. المفروض ان تأتى مزودة بالإرشادات الضرورية. مثل كل الأشياء الجديدة».

على الأقل، فى هذا الوضع يمكننا أن نبتسم لبعض. أدفن ركبتّى فى فَرشْ المقعد.

***

***

«على الأقل نجحنا ياصديقتى العجوز». يمسك بكتفى: «أنت محاربة ممتازة. تودين أن نكتفى الليلة؟ أشعر بالرغبة فى ساندوتش بسطرمة ساخن».

«أظن أنى اكتفيت، إذا لم يكن لديك مانع».

أتبعه حول السيارة حتى المقعد الأمامى، ونجلس متجاورين.

«كم الساعة الآن؟»

«الحادية عشرة فقط»، وبابتسامة ملتوية: «سنعيدك فى الثانية عشرة والنصف. أليس هذا هو الحد؟»

أنا الغريبة الجميلة
للكاتبة الامريكية
روزالين دريكسلر
(١٩٦٥)

I am the beautiful stranger

by

Rosalyn Drexler

1965

من يحبنى الآن وأنا أكره العالم؟ ليس غير علبتى الحجرية. أوه، أعرف أنها لا تفعل فى الحقيقة. لكني أخرجها من حقيبة المخيّم القذرة، وأضعها على قاعدة النافذة. أقول لها: «تبدين فى ميعة الصبا. لم يتقدم بك العمر على الإطلاق. سأريك معنى المعاناة».

رفعت صخرتى من يد إلى يد متلمسة ثقلها، وفجأة أفلتت منى لتسقر فوق اصبع قدمي. حطمته وظهرت آثار الدماء على جوربى. (مازلت أتألم عندما أرتدى حذاء بكعب مرتفع). بكيت وفعلت كما أفعل فى المدرسة. قولى لى يا تعويذتى: هل تريدننى أن أبكى؟ الذين يريدون بكائى هم: هارى فلتر، ديانا فلتر، أمى، أبى، ومسز فوركين.

أختى لوسيل تكره بكائى. فهو يصيبها بالهوس. إنها شديدة الحساسية. سمعَتْ صوت الضجة التى أحدثْتُها، فجاءت وجلست بالقرب منى. أينما ذهبت فى الحجرة تتبعنى محاولة أن تربت على يدى. قلت لها أن تذهب إلى الجحيم وتكف عن السير فى أعقابى كالكلب، وعندما لم تفعل سألتها: «أتريدين حقا أن تخففى عنى؟ أتريدين أن تكونى قديسة؟» وقبل أن تخيّم فوقى من جديد، أسقطت الصخرة فوق أصبع قدمها، فجرت عاوية، وهو أسلوبها هى أيضا. سيلقنها هذا درسا. لا أريد أن أكون أختها الكبرى أو أى شئ كبير بالنسبة إلى أى شخص أو أى شئ.

***

يبعثون بى إلى المخيّم مرة أخرى. لا يعرفون ماذا يفعلون بى.

كانت أمي التي بدأت جمع التبرعات من أقاربنا تحت شعار «إرسلوا سلمى إلى المخيّم». ليس أقاربنا بالكرماء، لكن أمي تمكنت من جمع القدر الكافي. فهي تحب أن تتوفر لي أفضل الفرص. وأعز أحلام يقظتها (وأنا أيضا) هو أن تتبناني أسرة ثرية.

لم أعد أتحدث مع ديانا. يؤلمني هذا أكثر من الصخرة. هاري أيضا أصبح بعيدا عني. إتصل بي البارون. يعرف مايريد. أكره رغباته. تصورا، ظن أن بوسعي أن أجد فتاة أخرى لموعد مزدوج. أرفض هذا. سأتقيأ من قبل ومن بعد. فضلا عن أنه ليست لي صديقات، ولو كان لي ماقبلن بالخروج مع كهول أثرياء وتحقير أنفسهن. أريد أن أقتل نفسي مرة أخرى، ومرة أخرى لن أفعل. أفكر في شارلي روجن: لم تتح له فرصة، لكنه يضع الخطط للمستقبل. أتيحت لي كل الفرص، لكن الأمر يبدو لي كأنه سقوطي.

***

المخيّم الذي سأذهب إليه أشبه بمخيمات النقايات. رخيص. إقترحه العم جريشا. كعقاب على طردي من المدرسة. لن أسمح لنفسي بالكتابة. على الأقل حتى عودتي. أمس بكت أمي على مائدة المطبخ. أعدّت لي ساندوتشا من السلامي عندما دخلت. قالت إن أبي لايطلعها على المكان الذي يعمل به الآن. تعتقد إنها تعرف رقم الهاتف، وأنه يغير صوته ولهجته، عندما تتصل به، ليبدو ايطاليا. تقول إنه يحتفظ بمجموعة كاملة من الملابس في منزل آخر.

***

عدت من المخيّم. كان الوقت قصيرا. ماذا حدث؟ انتبهوا الآن. كلا، ما لم تكونوا على إستعداد. لأي شئ؟ الحب العظيم. ماذا كان شكله؟ كان؟ كان ممثلا.

كان رثاً باليا : رائحة فم كريهة، رأس صلعاء، وأحذية من

القماش لها نعل من المطاط بلون اللبن. ورغم ذلك كانت له جاذبية جنسية. كانت حوله هالة منها. أول ليلة أقيم حفل راقص فى الكازينو. رقصت الفالس نصف ساعة مع أحد المنظمين النقابيين. وبينما كنا نرقص، كان يتحدث عن الفوائد الصحية لعصير الجزر وعسل النحل. رقصت بأسرع مايمكن حتى أصبحت أقوده، آملة أن أتغلب عليه. لكنه صمد. قدم جون (الممثل) نفسه إلى بعد الرقصة بينما كنت عاكفة على تهوية إبطىّ ونفخ الهواء البارد فيهما.

قال: «لايجب أن تفعلى ذلك».

سألته: «لم؟».

أجاب: «الأظرف أن يقوم رجل بذلك.. هكذا».

قلت محرجة: «لم أعرق هكذا من قبل».

قال: «أنت حيوان صغير فى صحة جيدة». ووضع ذراعه حولى: «ما رأيك بنزهة فى القارب؟»

غمغمت موافقة، فذهبنا.

ووقعت من القارب.

قال: «كل هذه الملابس ستتسبب فى غرقك». ونزع عنى ملابسى بينما كنت أعبث بالماء، وألقى بها فى القارب. ثم عانقنى وهو يعبث بالماء أيضا، وسألنى: «تنامين معى الليلة؟».

قلت وأنا أهز رأسى: «مارأيك فى الرابعة غدا؟»

وافق: «غدا فى الرابعة إذن».

***

فى الرابعة تماماً وصلت وأيقظته من قيلوته. كان الفراش جميلا ودافئا ومتهدلا فى الوسط.

قال: «انتظرى. سأضع وسادة تحت ساقيك».

قلت: «لست رومانسيا على الإطلاق. ثم يجب ألا تتحدث إلىّ بهذه الطريقة».

قال: «كما تشائين ياسيدتى. لن تنبس شفتاى مرة أخرى بالألفاظ التى تؤذى مسامعك».

ضحكت ساخرة لأن كل ما أمكننى رؤيته منه كان رأسه الأصلع... وربما يتعين على المرء أن يربى ذوقه على أشياء مثل هذه (كما تفعل مع أصناف الطعام).

كانت هناك نافذة صغيرة تغطيها ستارة فوق الفراش، تسللت منها أشعة الشمس. وقال إنى أذكرّه بصباحات أبريل. وقال أيضا إنى ناعمة مثل القطيفة. تشبيهاته ليست أصيلة.

صرنا نقضى فترات القيلولة سوية. وذات مرة رقد زميله فى الغرفة مع فتاة على الفراش المقابل. لم أنظر إليهما، لكن يا له من مسلك.

***

كانوا يبثون التسجيلات الموسيقية بعد ظهر كل يوم. كنا نجلس على العشب وننصت. وذات مرة مارسنا الحب ونحن نستمع إلى موسيقى «إيرويكا» تتردد فى كل الأنحاء أسفل التل. أتذكر وقع الموسيقى على مسمعى. كم هو محزن إن الحياة تواصل مسيرتها. لم أكن بالضبط إنسانا آليا، كنت متفرجة تشارك. كنت أرقب كل حركة دون أن يحركنى شئ. (يسمون ذلك الصيف التجريبى. ما الذى يجعل القيام بشئ ما تجربة؟) يا له من حبيب قلب، جون هذا! كاد يمزق لى شريانا عندما إكتشف إنى إستخدمت فرشاة شعره. كان شديد التدقيق فى هذه الأمور، أبله.

ظنه الجميع شريرا لأنه يتلف طفلة رقيقة مثلى. لم يكن. تلك كانت حياته وطريقته. هكذا قلت لهم. وعلى حال، حدث لى شئ غير عادى معه. فى الأسبوع الثانى كنا فى الكازينو نشترك فى غناء جماعى. وقال لى جون إن فتاة سحاقية من معارفه ستزوره وسيحاول مساعدتها على التخلص من هذه العادة. لم أفهم حديثه. كان يقصد أن أبتعد عن كابينته لأنه سيكون مع واحدة غيرى. جئت أطرق الباب، فلم يفتح لى. رقدت على التراب وأخذت أصرخ وأبكى. كنت ثملة من بضع زجاجات بيرة (أنا سكيرة رخيصة). أخذت أصرخ وأقول أنه وعدنى بالزواج (فعل ولم يفعل). أردت أن أجعله شريرا أكثر مما هو فى الواقع. فتحت الباب تلك الأنثى الضخمة فى رداء الحمام وقالت: «كفى عواء ياحبيبتى. إذا أردت الدخول، تعالى». قلت إنى لن أفعل إلا إذا طلب منى جون ذلك. كان جالسا فوق الفراش ولم يفه بكلمة. شعرت إنى لو دخلت فإنهما سيمزقانى. قمت واستدرت وعدت فى هدوء إلى كابينتى.

أمى، لاتبكى من أجلى.

يوم رحيلى من المخيّم تناولت إفطارى مع جون على مائدة الإدارة. كان يخفى هدية لى أسفل غطاء المائدة. كانت جزرة بساقين وذراعين من عيدان الكبريت. وفوق الهدية قصاصة من الورق تقول: «فى خدمتك». وضعتها فى الجيب الداخلى لحقيبتى وبالأمس فقط عثرت عليها ثانية وقد تعفنت واكتست لونا داكنا واخترقت عيدان الكبريت غلاف الورق الشمعى. نوع التذكار الذى يناسبنى.

***

مات تشارلى روجان. كتبت لى «ليلا» أنه كان فى سيارة وأفلت قيادها. طول ذلك الوقت كنت أهدهد أملا فى أن نرتبط يوما ما، أما الآن فالفكرة تجعلنى أقشعر. أهذا إذن ما كبر من أجله، ليكون جثة

مراهقة؟ لن يضطر بعد الآن أن يضرب أحدا فى مؤخرته بساقه ليثبت أنه قوى الشكيمة. الموتى لا يرفعون أبدا إصبعا أو قدما، فلو فعلوا لانتصبت الأرض مثل كعكة هائلة متعفنة.

***

لا يمكن أن يكون ميتا، فقد تحدث إلى!

للكاتبة الامريكية
رونا جافى
(١٩٦٣)

He can't be dead, he spoke to me

by

Rona Jaffe

1963

(نحن نشعر بالحزن عندما نعلم أن صوت الإنسان ودفء جسده يمكن استبدالهما الآن بالآلة. يسمونها الآلة -الأم، وتُستخدم في عدد من دور حضانة الأطفال، لكن البالغين يجب ألا يشعروا بالتجاهل لأن العلم سرعان ماسيجد لهم رفيقا آليا. وإلى أن يتحقق ذلك، يوجد البديل المعروف باسم «أحد المعارف»، أو «مرافق السهرة»، أو «الصديق» في بعض الأحيان. ولا يحتاج هذا النوع من المنتجات إلا إلى عناية بسيطة لاتتجاوز قليلاً من الطعام بين الحين والآخر. وهو ذاتي الشحن، فعندما يصيبه الإجهاد، يمكن توصيله بأي قابس في غرفة خالية لمدة أسبوع أو عشرة أيام، وعندئذ يصير كالجديد تماما. المعلومات اللازمة عن أماكن توافر «مرافق السهرة» أو «الصديق»، يمكن الحصول عليها بالكتابة إلى....)

***

كانت الساعة قد أشرفت على العاشرة والنصف عندما بلغ ثلاثتهم المطعم، في «القرية» (حي في نيويورك يشبه الحي اللاتيني في باريس)، قبل ان يغلق المطبخ أبوابه. كانت هي فتاة ثرية تبدو كالراقصات. وكان هو نائبا لرئيس وكالة إعلان صغيرة ويبدو نائبا لرئيس وكالة إعلان كبيرة. وكانت صديقتها ممثلة تبدو أشبه بنجوم السينما الصامتة. كانوا راضين عن مظهرهم. هو ثمل بعض الشئ، أما الفتاتان ففي وعيهما الكامل. ولهذا السبب كانتا لاتزالان تضحكان وتصخبان، وكان هو يميل إلى الدقة والحزر. وعقب الكأس الرابعة شرع يحرك يديه كما لو كان يربت على جوبة خالية. فكرت

صديقتها أنه ربما كان لواطيا، أما هى فكانت تعرف أنه ليس كذلك، وأنه لايحب أحدا على الإطلاق، لا الرجال ولا النساء ولا الأطفال ولا الحيوانات. كان يحب البوربون والمارتينى.

طلبت هى وصديقتها عشاءً كاملاً لكل منهما. وأمر هو بشراب وزجاجة نبيذ. كان يسير على نظام خاص فى الأكل لينقص من وزنه. وقد فقد بالفعل عشرة أرطال، وبقى أمامه مايماثلها. كانت تعرفه منذ سنتين، وتعرف الممثلة منذ ستة شهور فقط، لكنها كانت تعرف الممثلة.

كانت ليلة سبت، وهو أمر لم يكن بذى أهمية لدى أى منهم. لكنه كان بالغ الأهمية بالنسبة للآخرين فى المطعم. وكان هذا يتألف من قاعة طويلة ضيقة إحتل البار مقدمتها، بينما وضعت الموائد فى الخلف، وفصل بين الجانبين حاجز علق فوقه هاتف. ولم يكن هناك من يأكل غير ثلاثتهم، لكن البار كان غاصاً بالزبائن.

قال: «سيأتى صديقى فى الحادية عشرة. أرجوكما ألا تصدما عندما تشاهدان رفيقته».

قالت: «ولماذا نصدم؟»

«سوف تريان. إنها موهوبة فى الإيقاع بأصحاب الملايين. وكانت تأخذ من أحدهم ٧٠٠ دولار فى الأسبوع، مقابل أن تصحبه فى جولة حول الخزان بعد ظهر كل أربعاء. لاتفعل شيئا آخر معه. لاجنس».

قالت: «مهووس خزانات».

قالت الممثلة: «أوه يا إلهى، كم أنا جائعة، جائعة!». وقالت هى: «سأموت من الجوع. فلم أتناول شيئا طيلة اليوم. أيها الساقى، احضر لنا من فضلك خبزا وماء، الآن».

ابتسم الساقى الذى كان شابا، ويبدو مثل مغن شعبى عاطل. ابتسم لهم جميعا وأحضر سلة من الخبز الإيطالى الطازج وثلاثة

أقراص من الزبدة فوق ثلاثة مربعات من الورق.

قالت: «ليس هذا مطعما راقيا. تعرفونه من زبدته الرخيصة».

قال: «بوسعك أن تأخذى قطعتي. فلست بحاجة إلى زبدة أو خبز أو أى طعام. لاشئ سوى الشراب. الخمر لاتسبب السمنة».

قالت الممثلة: «بالعكس، إنها أكثر مجلبة للسمنة من أى شئ آخر. اسأل أى إنسان».

قالت هى: المارتينى يقتل».

«من يقول هذا؟»

«آن لاندروز. دوروثى كليجان. دكتور روز هاوسفراو. بول ف. بول»

سأل: «من هو بول ف. بول».

قالت: «طبيب الأمراض الجلدية الذى أتردد عليه».

أحضر الساقى الباسم (كان يبتسم لأنه سيعود سريعا إلى منزله وعروسه الشابة الجميلة التى لم ينقض على زواجه منها أكثر من ثمانية شهور. سيفاجئها مع ساقى يونانى وسيطلق عليه النار من مسدس المبارزة الذى كان يستخدمه جده وسيخطئه). أحضر. صحنين من اللحم وزجاجة من نبيذ كاليفورنيا الأحمر ومارتينى.

ترك أحد الرجال البار واستخدم الهاتف. كان بوسعهم أن يسمعوه بسهولة، فأصغوا إليه متظاهرين بأنهم لا يفعلون.

كان يهتف: «هالو، هالو، ياللمسيح!»

ضحكت الممثلة. وتدحرجت العملات بصوت موسيقى عندما وضع الرجل السماعة. تحسس شعره بيده وهو يهتف: «ما أن نقول هالو حتى يختفوا».

ضحكت الممثلة مرة أخرى، فى شئ من الهيستريا وقالت: «هذه هى قصة حياتى. تقول هالو فيختفون على الفور». وضحكت هى ثم ضحك هو لأنهما كانتا تضحكان، لكن الرجل الواقف بجوار الجدار، الذى كان يبدو وحيدا للغاية، وضع مزيدا من العمله فى الهاتف: «سنترال.. كنت أتكلم مع ميلبانك، نيوجرسى، وانقطع الخط. كلا، ليسوا هم الذين قطعوه. أنت الذى فعلت. حسنا، حاول مرة أخيرة».

قالت : «يااللمسكين. لاتضحكوا. أريد ان أسمعه».

«هالو، سالى موجودة؟ أوه... جيم، آسف لأنى أيقظتك، كلا، لاشئ، أعتقد أنها ستكلمنى غدا..» وتثاقل صوته فى كآبة ثم وضع السماعة وعاد إلى البار.

احتل مكانه عجوز كان يقف فى الإنتظار، يرتدى معطفا، وله لكنة ألمانية: «عزيزتى، ماذا تعنين بأنك لاتستطيعين الخروج؟ لكن سأعطيك درس الإنجليزية. سآتى. أوه حسنا. إذن سأراك خلال الأسبوع المقبل. كل ما فى الأمر أن أمس كان الجمعة وقد كنت أراك دائما ليلة الجمعة، ولهذا فكرت.. حسنا، ربما فى الجمعة المقبلة. أتمنى لك حظا سعيدا فى درس اللغة الإنجليزية».

غنت الممثلة بالألمانية: «إيش بين فون كويف بيس فوس».

قالت هى: «أنا من... مكان ما».

«لا. أنا من الرأس إلى القدم، هكذا أنا. غنتها مارلين ديتريش فى الملاك الأزرق».

«ظننت «كويف بيس فوس» مدينة».

«لا. برلين هى المدينة».

«هذه صورة جميلة: إنها كما هى، ثم تدمر العجوز المسكين، صح؟»

«صح».

مضى الرجل ذو اللكنة الألمانية والمعطف عائدا إلى البار.

وقالت الممثلة: «ألا يكون الأمر مضحكا لو كان الإثنان يحدثان الفتاة نفسها؟»

شرحت لها: «لديها صديق شاب، ألماني. وهذا أكبر سنا»

قال رجل الإعلان: «عندما كنت صبياً صغيراً في المدرسة كتبت رسالة غرامية إلى فتاة. وما زلت أذكر نصها. قلت: أحبك ياجيرالدين. هل تحبينني؟ إذا كنت لاتحبينني، أعطى هذه الورقة إلى هاربيت»، وضحك.

«لماذا كتبت ذلك؟»

«لا أعرف. ربما أردت أن أثير غيرة جيرالدين».

«تصور هاربيت عندما تتلقى الورقة».

«لم أفكر في ذلك أبدا».

قالت: «تعجبنى، تعجبنى هذه الورقة: أحبك ياجيرالدين. إذا لم تكونى تحبيننى، فأعطى هذه الورقة إلى هاربيت».

«ليس هذا هو ماقلته. لقد قلت...».

«لايهم ماقلته. العبارة تعجبنى. فهى قصة حياتى».

«أوه، أي واحدة منهما أنت؟»

«لم أقرر بعد. أنا لا أحب غير العواطف».

«مُضحك».

«فعلا. بل رائع. سأسجل هذه العبارة». وأخذت قلماً من كيسها وبدأت تكتب على حافة قائمة الطعام.

قال: «تأكدى من أنك تكتبين العبارة صحيحة. أحبك

ياجيرالدين، فهل تحبينني؟ أوه. هاهم قد وصلوا». ولوح لزوجين ولجوا القاعة.

***

كان هناك هز للأيدي وتعريف بالأسماء وتحريك للمقاعد. وكانت الفتاتان حوريتين بشعر طويل يصل إلى الخصر، وجسدين رشيقين ووجهين مليحين بلا زينة. والأثنان ترتديان بلوزتين من القطن وجوبتين من التويد. أما الرجلان فكان أحدهما أميركيا والثانى إنجليزيا. وكانا ثملين.

قالت الحورية الشقراء: «أرى أنكم أكلتم».

وقالت الحورية ذات الشعر الأسود: «نحن لم نأكل. قطعة بيتزا فحسب وشئ آخر نسيته».

قال الأمريكى : «سوف تأكلين يازهرتى الصغيرة. سوف آخذك إلى أفخم الأماكن... فيما بعد».

فقالت حورية الشعر الأسود بحبور: «أوه، طيب»، وابتسمت له.

طوت القائمة التى سطرت فوقها رسالة جيرالدين، ودستها فى كيسها. ونظرت طويلا وفى دقة إلى حورية الشعر الأسود وهى تتسائل عن ذلك الذى تفعله مع أصحاب الملايين عند الخزان ويساوى سبعمائة دولار فى الأسبوع. ولاحظت أن الحورية كانت تنظر طويلا وبدقة إلى الممثلة. ولم يكن فى نظرتها أثر للمنافسة الأنثوية. أسقطت الممثلة بعضا من كأسها، فظهرت بقعة فوق غطاء المائدة، وأبدى الجميع اهتمامهم.

وضع الساقى منشفة نظيفة فوق بقعة النبيذ، وأتوا على ما تبقى من الزجاجة.

قالت: «أوه يا إلهى. انظروا ماذا تفعل هذه الفتاة».

كانت الحورية الشقراء قد عرت صدرها من فوق الخصر.

قال الأميركي: «قالت ان السوتيان يؤلمها. وكان لابد ان تخلعه في الحال».

عادت الحورية ترتدي بلوزتها القطنية وتثبت أزرارها في بطء، ثم رفعت السوتيان ليتداوله الجميع ويرون شكله. كان من النوع الجديد الذي يبدو كأنه جعل لطفل، ولا يمكن أن يسبب ألما على الإطلاق مالم يكن معقودا حول عنقها.

قال الأميركي : «انظروا إلى هذا السوتيان. أليس طريفا؟». ولم تكن الحورية قد رفعت عينيها عن وجه الممثلة طول الوقت، وكانت ماتزال تبتسم.

غمغمت الممثلة في غضب: «الجميع يظنونني سحاقية. لماذا يعتقد الجميع هذا دائما؟»

قالت الحورية الشقراء: «أنا أحب سوتياني». كان صوتها حلوا ناعما. ورفعت طرف بلوزتها كاشفة عن صدر فخم ومشد أسود من الدانتللا. ابتسم الإنجليزي في مزيج من شعور التملك والزهو.

لكزت هي صديقتها، التي كانت ماتزال تغمغم ساخطة على الذين يظنونها سحاقية، وأومأت إلى الشقراء، وبدأتا لعبة الأسماء: ميرنا حليب، نورا المرضعة، تيريزا نهد، وندي الراغبة، ايثيل المتلهفة.

سأل رجل الإعلان: «عم تتهامسان؟». كان قد اكتشف ان كأس المارتيني الأخير ممزوجة بالماء، فأشار إلى الساقي أن يحضر كشف الحساب.

قال الإنجليزي: «أرأيتم أن أحدا لم يلحظ ما حدث؟ لم يلتفت حتى أحد من الجالسين إلى البار».

قالت هي: «إنهم لايفعلون هذا أبدا». وانطلقوا من باب جانبي

إلى الطريق، وقد تقدمت السيدات الرجال. وشعرت هي فجأة بكل ما ترتديه تحت ثوبها الصوفي .. كيلوت بكيني (اليزابث أردن، حرير)، لاجوارب (ساق مجمّلة مزينّة)، لا قميص داخلي، استدارات جسدها أسفل الثوب الضيق كما تبدو للرجال، كما لو كانت بطاقة هوية جديدة. لكنها لم تكن مهتمة بالرجال الثلاثة. كانت مهتمه بنفسها، كما لو كانت على شاشة فيلم وبين المتفرجين في نفس الوقت، تجلس بين الجمهور تتأمل وتتفرج عليهم ينظرون اليها.

مشوا في هواء الليل البارد إلى منزل كان مقررا أن تقام فيه حفلة. وعندما دقوا جرس المدخل السفلي، خرج إليهم زوجان أشاروا إليهم بالإبتعاد: «الحفلة انتهت وليس هناك أحد فوق».

«جاء رجال الشرطة وفضوها».

«لماذا؟».

«بسبب الضجة. من يعرف؟».

قالت: «لنصعد. أنا أحب رجال الشرطة. إنهم كاملون، لا يخافون، مقدامون، مخلصون، يمكن الثقة بهم. وهم يتميزون بالوسامة».

«لقد ذهبوا».

فقال شخص ما: «إذن تعالوا نصعد».

«لن تجدوا أحدا. تأخرتم كثيرا».

كانوا قد كسبوا واحدا من الزوجين: شاب أحول العينين، في قامة ستيف ريفز، وشقراء نحيفة في سترة طلابية. وكانت معهما سيارة.

قالت الممثلة وهي تضحك: «هل يمكنه أن يرى الطريق حتى يقود سيارة؟»

انطلقوا إلى منزل الحورية ذات الشعر الاسود: شقة عالية السقف، أشبه بالكهوف، تضيئها الشموع، وتبرز من أركانها نتوءات سوداء من أثاث قديم، وينتصب فيها تمثال متألق من الرخام الأبيض لإمرأة يونانية، وأشجار نخيل حية في أصص، وثلاث شرفات ومدفأة في كل غرفة، وأرضيات خشبية لامعة وسجاد من فراء القندس. وكان المرحاض عاطلا عن العمل.

كان ثمة جهاز ستريو مخبأ في دولاب. وأدارت المضيفة اسطوانة تويست. وسأل رجل الاعلان: «أيوجد هنا ما يشرب؟»، لكن أحدا لم يجبه. أصبحت حركات يديه الآن أكثر وضوحا، فقد بدا كأنه يسير حاملا فنجانين من الشاي. أضاف: «أبحث عن شئ».

«في منزل غريب؟»

«المطبخ .. المطبخ ..»

قالت له الممثلة: «ماذا تتوقع من حورية؟ اعطها كوب ماء وستعيش عليه أسبوعا كاملا».

نزع الرجال ستراتهم. كانت الحورية ذات الشعر الأسود ترقص التويست بمفردها برشاقة ولم تكن ترتدي سوى جسدها الأبيض الطويل وجوب التويد والحذاء الجلدي الأسود. وكانت قامتها ترتفع ستة أقدام. وبسبب شعرها الطويل، المنساب في استقامة حتى رباط خصرها، بدت الجوب غير ملائمة، أليق بمشرفة مدرسة أو رئيسة لمنظمة نسائية في ولاية كونيكتيكت.

قال الأمريكي: «خذوا راحتكم».

سألته حورية الشعر الأسود: «تريد أن أعلمك التويست؟»

«ولم لا؟»

«ها هي. ليس هناك شئ آخر».

«هذا مسكن جميل. من أين جئت بهذه الأنتيكات الرائعة؟».

«أوه من هنا وهناك».

تجولت الحورية الشقراء في أنحاء المكان في سوتيان من الدانتللا السوداء، وجوب، وعقد من اللؤلؤ، وقرطين من اللؤلؤ، ثم انطلقت إلى المخدع.

وتبعها كل من الإنجليزى والأميركى، وكان هرقل الأحول يبحث عن شراب، بينما عثر رجل الإعلان على نصف زجاجة صغيرة من الفودكا، لكنه لم يجد كأسا يشرب منها. وأحكمت الشقراء النحيفة إغلاق سترتها حتى العنق. وكانت الممثلة، التى لاتدخن أبدا، تنفث فى عصبية دخان عقب سيجارة عثرت عليه فى مطفأة، وهى تتفقد الأنتيكات.

ذهبت هى إلى الحمام الذى كان مدهونا باللون الأسود، وتطلعت فى صندوق الإسعافات، فوجدت به كحلا، وكريما للبشرة، وصابونة، وقلادة من الزجاج (مهشمة): وكولونيا، وشفرة صدئة، وسبع فرش أسنان مستعملة، وفى حالة جيدة.

مضت إلى المخدع. كان الضوء خافتا ومصدره الشموع التى وضعت فوق قواعد النوافذ، وخلفها كانت السماء سوداء. لم تكن هناك ظُلَات أو ستائر. وكان الأثاث غريبا ورائعا: سرير نحاسى فى حجم طراز الملكة مارى، ودولاب يسع ثلاثة عشاق، أو أزواج، ضخام الأجسام، و «بيديه» مخلوع زرع بالزهور الحمراء. وكان هناك شخصان على الفراش، وآخران على الأرض. وفى البداية ظنتهم موتى، ثم تبينت ان الحوريتين فقط هما الميتتان. ولأنه كان من الصعب التمييز بينهما فى بياضهما، فقد بدا للوهلة الأولى ان كلا منهما مع رفيقها الأصلى، ثم أدركت أنها لحظة التعبير عن كرم الضيافة. فقد كانت الحورية ذات الشعر الأسود مستسلمة للانجليزى الذى كان أقصر منها

بقدم، وكان عاشقها الأميركي يكاد يصيب بالإختناق الحورية الشقراء التي كانت ماتزال ترتدي قلادتها وقرطها.

قالت هي: «انظروا ماذا يفعلون. يجب أن أحضر نظارتي».

وعندما عادت مرتدية نظارتها، كانت الحوريتان قد شرعتا تؤكدان أنهما ليستا من الموتى، ببعض الأصوات اللبقة. وولج الآخرون الغرفة. واحدا بعد الآخر، وبقوا دقائق ثم عادوا إلى الموسيقى. وفتحت الفتاة النحيفة ذات السترة الطلابية، الباب الخارجي في هدوء واختفت.

عاد رجل الإعلان إلي المخدع وأخذها من يدها: «تعالى معى، أريد أن أقول لك شيئا».

مضيا إلى غرفة المعيشة. قال: «لست أحب هذا .. لا أجد فيه أية تسلية.. هناك شئ.. لا أعرف..»

قالت: «لست أحبه أنا أيضا».

كانت الممثلة تتبادل القبلات مع الفتى الأحول (الذى كانت قوة ابصاره موضع شكها) فوق الأريكة.

سألها: أتريدين شرابا؟»

«كلا، شكرا. ترى ألديها اسطوانة ديزافينادو؟»

«رأيتها تضعها على الجهاز».

«أوه. طيب».

«تريدين شرابا؟»

«أوه ... طيب.. أخ». أعادت إليه الزجاجة: «الفودكا غير المثلجة تحرق قلبى».

«أعائدة أنت إلى هناك؟»

«لألقى نظرة فقط.. سأعود فورا».

عندما ولجت المخدع ألفت الأربعة جميعا فوق الفراش النحاسى، ولوحوا لها هاتفين بمرح: «انضمى إلينا».

«كلا. شكرا».

«تعالى، تعالى. الجو بارد عندك».

هزت رأسها فعادوا إلى لعبتهم. كان الرجلان والحورية ذات الشعر الأسود، يعتنون بالحورية الأخرى التى لم تبدر عنها حركة واحدة منذ وصولهم.

***

تأملتهم من جلستها غير المريحة فوق المسند الخلفى للفراش الضخم، وهى تتفحص شعور اللامعقول الذى انتابها.. الإثم، الفضول، وفوق كل شئ، الملل. «أنا بصاصة قذرة». هكذا رددت لنفسها. وانتظرت عبثا أن تشعر بتأثير الكلمات. «لم يعد لدى ما أقوله للمحلل النفسى». ألفت نفسها تتثاءب. كانت الساعة الثانية صباحا. بوسعها ان تشترى «الصنداى تايمس» فى طريق عودتها...

رفعت إليها الحورية ذات الشعر الأسود وجهها الأبيض المجرد من كل تعبير قائلة: «أنت تشعريننى بالحرج. إذا خلعت ملابسك يكون هذا أفضل. ويمكنك أن تحتفظى بالنظارة».

«آسفة. لن أنظر إليكم بعد الآن».

«أوه، بوسعك أن تفعلى. لكنك تبدين مختلفة جدا فى هذا الرداء. لو كنت فقط مثل كل إنسان آخر، لما انتبهنا إليك».

هبطت من فوق مسند الفراش، وتقدمت من المرآة لتتأمل زينتها. وجاء رجل الإعلان فى جلده المجول تسبقه أكبر كأس فى العالم، حملها كما لو كانت ورقة تين. قال معتذرا: «لم أرغب فى التخلف عن

الركب»، وارتمى بسرعة فى مقعد من طراز لويس السادس عشر: «تعالى تحدثى معى».

«كيف يمكنك أن تفعل شيئا كهذا؟»

قال: «آسف. انه خطأ فى التقدير. لقد قلت لك. أمازلت غاضبة؟ كان الأمر فى نيتى ثم نسيت أن أذكره لسكرتيرتى».

«أمازلت تفكر في موضوع تذاكر المسرح؟ قلت لك أن الأمر ليس بذى أهمية. كنت أقصد خلعك للملابس».

«آه. الملابس. هذا ما كنت تقصدينه؟»

«طبعا».

خفض صوته: «بينى وبينك.. أمثال هذه الحفلات تجعلنى عنينا».

كانت الجماعة قد انتهت من الفقرة الراهنة. وظلت الحورية الشقراء ممددة على ظهرها، وقد التمعت اللآلئ فوق عنقها الأبيض. ثم رفت بعينيها المظللتين للانجليزى الذى قام، بصفته مرافق سهرتها، بالجانب الأكبر من العمل، وقالت في دماثة: «كان ذلك لطيفا».

تساءلت الحورية ذات الشعر الأسود: «لا أعرف لماذا لاتنضمين إلينا؟ اننا جميعا أصدقاء».

قالت: «أفضل الإختيار. ولا أحب ان أهين أحدا».

«أوه. ليست هناك اهانة ما. فأنا مضيفة ممتازة، وصدقينى أن أحدا لا يُرغم على شئ فى منزلى. أعنى أنى ما كنت لأدعو أحدا يحاول فرض نفسه على واحد من ضيوفى. فإذا كنت لا ترغبينى، لن أفكر أبدا فى أن أفرض نفسى عليك».

قالت هى: «الأمر يصعب شرحه».

ودق جرس الباب.

صاح رجل الإعلان: «الشرطة! لاتجيبى!».

وقالت حورية الشعر الاسود: «سخف». ومضت إلى الباب.

لم يتحرك أحد عدا رجل الإعلان بكأسه الكبيرة، وكان عاجزا عن الإختيار بين الدولاب والحمام، فجثم مشلولا بينهما.

رجعت الحورية ذات الشعر الأسود وقالت: «إنها تلك الفتاة التى انصرفت إلى منزلها. لم تتبين الطريق، فأعددت لها فراشا فوق الأريكة».

«لم تتبين طريقها إلى منزلها؟»

أجابت فى رقة: «أجل. كانت ثملة». وقفزت إلى الفراش.

مضت هى إلى غرفة المعيشة تبحث عن صديقتها. لكن الممثلة والصبى الأحول كانا قد اختفيا. ثم لحظت أن حاجزا من قطع الأثاث قد أقيم فى ركن الغرفة، ودلّى فوقه ستار. وشعرت لأول مرة بعاطفة ما، بالوحدة.

نهضت فتاة الصبى الأحول، التى كانت تغط فى النوم فوق الأريكة، وتطلعت حولها وأبصرت الحاجز، فانطلقت نحو الباب، وغادرت المسكن من جديد دون أن تنبس بشئ.

قال رجل الإعلان وقد جاء يبحث عن زجاجة: «ماذا حدث؟»

«تلك هى الفتاة الوحيدة التى أتيح لها أن تتخلى عن فتاها مرتين فى ليلة واحدة».

قال لها: «تحدثى إلىّ». وجلس فوق الأريكة خلف الكأس والزجاجة، مثل طفل عملاق ولد من جديد. وجلست بجواره فى ردائها الصوفى. وبرزت الممثلة من خلف الستار، فى نصف ثيابها، وان كان شعرها مرتبا غير مضطرب.

قالت الممثلة وهى تتنفس الصعداء: «لقد ناقشنا الأمر وقررنا

ألا نفعل شيئا ».

وهمس هو : « ياللصبى المسكين ». وأشار إلى الحاجز الذى برز منه الآن كنج كونج بعينين زائغتين. « الفتيات يطاردنه لأنه يبدو فحلاً. وكل مايبغيه هو فتاة تريده لنفسه ولاتستغله ».

قالت الممثلة: « هذه هى أنا ... أم الجميع ».

تبين الفتى أنه وقع فى غرامها، فأخذ يردد فى سعادة:

« انظروا إلىّ. لقد نلت أجمل فتاة فى الحفلة. أفضل وأجمل وأروع فتاة فى الغرفة كلها ».

قالت الممثلة: « هالو ماما ». وجرعت قليلا من زجاجة الفودكا.

« أجمل فتاة فى المكان كله. تعالى نخرج لتناول الإفطار ».

وكان رجل الإعلان يقول: « هذه السنة سنتى. سأحقق فيها أحلامى. أترك عملى وأكتب كتابا. إن نجمى فى صعود. وعندما يكون فى صعود أعرف ذلك. هذه السنة نجمى فى صعود ». كان ثملا للغاية. « أعنى .. انتم تفهمون بالطبع.. يكون لديك المال وتعرف كيف تغير حياتك. ولسوف يكون لدى الكثير منه هذه السنة. إنها سنتى. وسأصبح ثريا... لأن نجمى فى صعود ».

نظرت إليه الممثلة ثم هربت إلى المخدع ويدها على فمها.

قالت هى: « ما رأيك فى أن ترتدى ثيابك؟ سيخرج الجميع لتناول الإفطار ».

« لا أفطر أبداً. لنذهب إلى منزلى ونحتسى شراباً ».

« لابد أن أنام. نحن الآن فى الرابعة والنصف ».

ارتدى ملابسه وأقبلت الحورية السمراء وشرعت تبسط الملاءات فوق الأريكة.

سألتها: « ستنامين هنا؟ »

«كلا. لكن ربما فعل أحدهم».

عادت الممثلة وقد ارتدت قفازها.

»طابت ليلتكم. شكرا جزيلا».

«أتغادرين الآن؟»

تصافحوا جميعا. أربعة منهم في ملابس الطريق والمعاطف، والحورية ذات الشعر الأسود رطبة، أخاذة، رشيقة، وساحرة. كانت على راحتها تماما حتى بدت وكأنها مغطاة بالثياب. قالت: «كان لطيفا لقياكم. آمل أن أراكم مرة أخرى».

«هذه ما نرجوه. شكرا. طابت ليلتكم».

ظلت الحورية الشقراء (التى لم تتحرك منذ خمس ساعات) فى المخدع. وفتحت الحورية ذات الشعر الأسود الباب الأمامى.

لم يقل أحدهم شيئا. لكنهم عندما بلغوا الطريق شاهدوا الستارة المخملية للنافذة الأمامية تنحسر عن أجساد بيضاء، ولمحوا مضيفتهم والأميركى يلوحان مودعين وهما يبتسمان فى مرح. لوحوا لهما بدورهم. وضحكوا فى ارتياح لأنهم أصبحوا أحرارا.

تفرق الجمع عند الكافيتريا الليلية القريبة. واستقلت هى سيارة أجرة مع مرافق سهرتها.. رجل الإعلان الشاب الذى كان نجمه فى صعود. لم ينبس أحدهما بكلمة بعض الوقت. وانسابت السيارة فى شوارع صباح الأحد الهادئة. وأخيرا مال ناحيتها قائلا: «لا أحب المراوغة. نعم أم لا؟»

قالت: «لا».

تراجع إلى الخلف وقد بدت الحيرة والألم على وجهه: «ترفضيننى!»

وقطعا بقية الطريق إلى مسكنها فى صمت.

أهلا بك!
للكاتبة الامريكية
هاريت سومرز
(١٩٦٦)

Hello, baby

by

Harriet Sommers

1966

١. فورت ميلو، هافانا، يوليو ١٩٦٠

هذه المرة، لم تكن هناك نواد ليلية، ولارقص، أو تسابق مجنون إلى الشواطئ، أو رجال زنوج، طوال القامة، أثرياء، يدعوننى فى تهذيب إلى قضاء بعض الوقت فى سياراتهم. وصلت المطار وحيدة وقلقة، أخشى الحديث مع أحد، خريطتى فى جيبى، وعلى عينى نظارة سوداء، غامضة بشكل ملفت.

شئ ما بدأ فى داخلى ذات ليلة سكرى، منذ شهرين، شئ ما لايلحظ. أقل أثرا ولايقاس بحجم أزمة الحب التى بدأت حينذاك، وانتهت الآن، وكانت تستحوذ على كل إهتمامى.

وأنا أنتظر الأتوبيس، سألنى رجل ناحل، مقنّع هو الآخر، (كنا فى آخر الليل)، عما إذا كنت فى حاجة إلى طبيب. وأجابه زجاج قناعى الصامت. فقد حذرونى من سماسرة الإجهاض الذين ينتظرون فى المطار. كنت أعرف وجهتى جيدا. وكان موعدى فى الصباح التالى.

استقبلتنى الإبتسامات فى بهو فندق «ماريبوسا». فقد كان الجميع، من موظفة الاستقبال، إلى صبى المصعد الزنجى الظريف الذى حمل حقيبتى إلى حجرتى، يعرفون بالضبط سبب مجيئى وما أحمله معى، وكيف ستكون حالتى عندما أغادرهم.

وفيما بعد خرجت أتناول العشاء فى كافيتريا صينية. شربت كأسين من كوكتيل باكاردى، واحدة طلباً للحظ، والثانية وداعاً

للغريب الفاتح. وفى الصباح، حملت خريطتى، وارتديت ثوبا صيفيا عاديا، يصعب تمييزه، كما أمرونى أن أفعل. بل إنى حملت آلة تصوير ومشيت إلى كاتدرائية لا أهمية لها على الإطلاق، وتظاهرت بتفحصها، والتقطت لها صورة (دون فيلم). ثم تسللت إلى مكتب الدكتور «انكاتو»، غير مرئية مثل عنكبوت أسفل أوراق الاشجار.

يالبراءة غرفة الأنتظار تلك! الصور العائلية المصفرة داخل اطاراتها القذرة، والمناشف المطرزة فوق الموائد وظهور المقاعد، والمجلات، وأناس كل يوم، المرضى الحقيقيون، ورجل عجوز وطفل ينتظران الطبيب. كانت السيدة البدينة التى ترتدى ثوباً كوبياً ملوناً بفتحة واطئة عند الصدر، والتى تقدمت لتحيتى، حقيقية أيضا. قادتنى إلى الغرفة الداخلية دون أن تصدر عن أحد من الجالسين شكوى. وهناك كان كل شئ أبيض كالمألوف، وإن كانت الغرفة معتمة قليلا. وكانت للطبيب نظارة سميكة وابتسامة رقيقة. كنت بلا سراويل (وفقا للتعليمات) ومستعدة بقدمىّ فى الركاب (جميل انك تتحدثين الأسبانية! وابتسم)، وقلبى يدق بسرعة، وعيناى تنطبقان بتأثير الحقنة، بسرعة لم تسمح لى بان أرسم شارة الصليب، إستعدادا للرحلة.

فى البدء ألم شديد فى مركز جسدى، ثم أصوات غامضة بلغات مجهولة، ثم وجهوهم، وكأس من عصير البرتقال البارد، ومزحة رقيقة، والطبيب يؤنبنى فى رفق: «كان أكبر مما قلت يا سنيوريتا» (لغز غامض للتفكير فيما بعد) ثم حان وقت الذهاب، وأنا ملفوفة بال «كوتكس»، وثوبى النايلون دون تجعيدة واحدة. تصافحنا. كانت لزوجته ثلاث أسنان ذهبية فى مقدمة فمها. قالت «أديو» ولم تقل «هاستا لافيزتا». أصبحت فى الشارع الملتهب أتلمس مترنحة الطريق إلى الفندق. أمامه كان بائع متجول خلف أهرامات دقيقة التكوين من البرتقال. إشتريت منه دستة. ولم يبد ان أحدا لحظ ما جرى لى. (كيف

كنت أبدو؟). وأخذنى صبى مصعد لامبال إلى حجرتى. كنا فى الظهر، كما قال، بعد ساعتين وطفل واحد، عندما عدت إلى الفراش واستغرقت فى النوم.

الخادمة الحلوة التى جاءت تسألنى فى رقة، ما إذا كنت أحتاج شيئا، أخبرتنى ان الساعة دقت الثالثة. وعندما تركتنى تذكرت أنه يجب أن آخذ حبة دواء، ونظرت إلى نفسى فى مرآة الحمام الزرقاء. بدا وجهى شاحبا قليلا، لكن رقيقا، حسن القسمات. لم يشعر جسدى بشئ (ياللمسكين، ألم يدرك ما حدث؟). وانتصب نهداى فى جرأة، جميلين، متضخمين، مازالا مستعدين، يترقبان. شعرت بالأسف لأجله، ذلك الجسد أسفل الوجه. لكن يا إلهى، كم شعرت بالراحة. أنا حرة مرة أخرى.

عدت إلى الفراش. قشرت برتقالة وأكلتها، وأنا أتذكر من أنا، والرجل الذى ينتظرنى، الحب الجديد الذى يبدأ الآن، الذى يمكنه أن يبدأ الآن بعد أن أصبحت حرة.

٢. واشنطون د.س.فبراير١٩٦١.

على الهاتف: «كيف سأعرفكم؟»

«لا تقلقى، سنعرفك نحن». لم تكن لهم أسماء أو أرقام. كانوا غير مرئيين.أنا فقط كنت معروفة، أنا «المجرم». وهم أعوان الشيطان الخفيين.

كان صباحا غائما بالضباب والجليد، وجيمى غارق فى النوم، بينما كنت أرتدي ملابسى. أعددت القهوة، وأحدثت صوتا بالصحون والفناجين، آملة أن يستيقظ. لكنه لم يفعل، لأنه قال كل ما كان سيقوله، تاركا الأمر لى كلية. عندما ارتديت معطفى، وجذبت حقيبتى بال٣٠٠ دولار التى تم تدبيرها بشق الأنفس، توهج الألم داخلى

كاللهب. أن أذهب هكذا، وحدى دون وداع... إنه طفله هو أيضا.

«جيمى!»

«هم، بيه؟»

«جيمى!»

«هم، بيه؟»

«جيمى، «أنا ذاهبة الآن، ذاهبة إلى واشنطون، أتذكر؟»

«أجل، بيه». واعتدل جالسا: «بيه.. حسن، اعتنى بنفسك، واتصلى بى حالما ينتهى الأمر. سأقابلك فى المحطة. كل شئ سيكون على مايرام».

الحب الجبان. حبى الجبان. كم تمنيت لو لم أكن أنا الأخرى جبانة.

من هم كل هؤلاء الذاهبين إلى واشنطون فى هذا الصباح؟ لا يمكن أن يرغب أحد فى الذهاب إلى هناك. يا للمساكين، لابد إنهم، مثلى، مرغمون. اشتريت صحيفة «نيو يوركر» لأجلس خلفها. وجلست قرب نافذة، وانكمشت فى معطفى الأسود، بوجهى الأبيض الجامد الذى يقشعر بردا. كانت هناك حقول ساطعة من الجليد تعكس منازل صغيرة أنيقة، وأطفال يلعبون على المنحدرات، وكلاباً مجنونة تنبح، وبرك متجمدة يتزلق فوقها أناس فى قمصان صوفية حمراء.

كانت المحطة رمادية وباردة، الردهة الكابية المؤدية الى المقبرة الضخمة بشواهد قبورها الهائلة. وقفت قرب مكتب الإستعلامات، وحقيبة يدى الجلدية السوداء الكبيرة مدلاة أمامى، كما طُلب منى، وياقة معطفى الأسود مرفوعة. دخنت ثلاث سجائر. يا إلهى، ألم يتعرفوا علىّ بعد؟ كل من كان يتقدم من مكتب الإستعلامات ليسأل عن شئ يبدو لى الرسول المنتظر. وعندما يتجاوزنى ألقى به جانباً، وأتحول إلى الشخص التالى. وأخذت يدى الحاملة للسيجارة ترتعش.

ثم تقدمت امرأة منى مباشرة وابتسمت قائلة: «هاللو»، وهى تأخذ ساعدى فى مودة كأنها عمتى. أجبت «هاللو» وأنا أتنفس الصعداء. لم تكن تبدو كإحدى عماتى. كانت تضع طبقة كثيفة من المساحيق، وطلاء متشققا على الأظافر والشفتين، ولم تكن رائحتها تشبه فى شئ رائحة أحد من أسرتى: فما هبَّ من ناحيتها لم يكن غير رائحة الخمر. قادتنى فى ثقة إلى الخارج عبر قاعة الإنتظار، نحو عربة ستيشن واجون فاغرة الباب، وحشرتنى فى المقعد الخلفى إلى جوار ثلاث فتيات أخريات لهن وجوه شابة مذعورة. ولم تنظر أى منا إلى الأخرى.

استقرت عمتنا فى المقدمة قرب شخص من النوع الجامعى، أمسك بالمقود. «هذا هو إبنى يا أطفال وهو يعرف كل شئ عن الأمر». وأرانا الصبى لمحة من جانب وجهه المنمش وعليه تعبير غريب بارد (استنكار؟).

«أطفال»، هكذا أسمتنا. وقبلنا فى خجل التصنيف المشترك. كانت إحدانا شقراء، جميلة وجريئة. أما الأخريان فكانتا متشابهتين بصورة غريبة، نحيفتين، شاحبتين، بنفس الإبتسامة المذعورة. عبرت بنا السيارة وسط واشنطون، مرورا بتمثالى واشنطون ولينكولن، اللذين اكتسى بياضهما بالرماد فى غبشة الغروب. ثم غادرنا المدينة إلى مابدا أشبه بضاحية، و«العمة» تواصل ثرثرتها المرحة عن العميلات السابقات، والحالات الغريبة، وكيف إننا محظوظات حقا لأننا وقعنا فى أيد ماهرة، الخ. وعندما مررنا بمقبرة، قالت فى مرح، ان واحدة من عميلاتها لم ينته بها الأمر إلى هذا المكان. عبرنا حدود الولاية -ماريلاند. وفكرت بحس سياحى غريب أنى لم آت إلى هنا من قبل. أشرفنا أخيرا على ما يشبه ضاحية جديدة. منازل من ثلاث طبقات، وجارجات. كانت جديدة ولم تستخدم بعد. أشباح منازل لمستأجرين لايأتون.

صاحت العمة: «وصلنا. اقفزوا يا أطفال». ولجنا طابقا أرضيا مؤثثا، وإن بدا غير مسكون. وأخذتنا إلى غرفة نوم، لم ينم فيها أحد من قبل. «اخلعن كل الثياب والسراويل والسوتيانات، واذهبن إلى الحمام. احتفظن فقط بالقمصان الداخلية». وألقت علينا إبتسامتها الصفراء، كأنما تدعونا إلى حفل.

تبادلنا حديثاً مغتصباً. كانت الشقراء سويدية، بطنها أكثر بروزا من بطوننا. وكانت الفتاتان الأخريان زميلتين فى غرفة واحدة بالجامعة، حملت إحداهما من شقيق الأخرى.

ظهرت العمة عند الباب، مرحة ومتوهجة، وقالت: «والآن، من منكن تريد أن تكون الأولى؟». لابد أنها تناولت قليلا من الخمر عندما تركتنا. أضافت : «لاداعى للخجل».

قلت: «سأذهب أنا». كنت أريد أن أنتهى. فأنا الوحيدة بينهن المجربة.

قالت العمة وهى تربت على ذراعى: «أنت فتاة طيبة». وانتقلنا إلى الحجرة الأمامية. كان هناك جهاز تليفزيون يتعثر فى الإرسال، ومائدة مطبخ كبيرة تغطيها ملاءة. تمت الإجراءات المالية بسرعة، وأصبحت فوق المائدة، وقد ثُبّت قدميّ فى الركبتين. صاحت: «كل شئ على مايرام يادكتور». فظهر هو ، رجل بلا رأس، يطل مصباح كهربائى عار من حيث يجب أن يكون وجهه. غمغم: «أستريحى». وأدار شخص ما خلفى جهاز التلفزيون عاليا. كان يتحدث دون لغة. حاولت ان أنصت لكنى لم أفهم شيئا. وقفت العمة قربى تربت على ذراعى وتتنفس خمرها فى وجهى، بينما الرأس الكهربائية تعبث بين فخذى. لم أشعر بألم. لكن ما شعرت به كان غريبا، كأن هناك من ينفخنى من الداخل (منفاخ دراجة؟) وفجأة أدركت أنهم لم يخدرونى، لكن فات أوان الشكوى. وفكرت بعقلى العملى الذى مازال يقظا:

٣٠٠دولار ولاتخدير؟. وسرعان ما نسيت ال٣٠٠دولار، لأنه كان ينفخني وينفخني حتى أصبحت مثل البالون، على وشك الإنفجار، بينما ألصقت العمة قناع أوكسجين بوجهي وقالت: «تنفسي»، فتأوهت ودفعته بعيداً لأني أوشكت أن أختنق، وفكرت أنهم سيفجرون جسدي فتأوهت، وعلا صوت التليفزيون الذي لا يفهم، والعمة قابضة على يدي تقول: «تماسكي، تماسكي. أوشكنا أن ننتهي»، ثم رأيت بين ركبتي المصباح الكهربائي يرتفع، تتبعه اليدان المقفزتان، مغطاتين بدماء سوداء تنز منهما في بطء، وبدا كأنه يغسل عنه دمائي، يغسل قفازيه. وساعدتني العمة على الترجل والذهاب الى الحمام، برفقة «كوتكس» القديمة المعهودة، بينما الأجراس تدق داخلي. ثم قادتني إلى غرفة نظيفة مجردة من أي أثر للحياة، مثل غرفة نوم في موتيل، حيث وضعتني في فراش، وضغطت الأغطية من حولي، وأعطتني قرصا. فسقطت في السكينة، حيث نز مني الألم في بطء، ولم أنزف تقريبا. بعد ذلك انضمت الفتاة السويدية إليّ في الفراش، وتبادلنا ابتسامة باردة. ثم أيقظتنا العمة، وقد ارتدت معطفها وقبعتها، قائلة: «هيا يافتيات. سنعيدكن إلى حيث التقطناكن. عندئذ تصبحن حرات، ولابد أنكن ترغبن في العودة إلى بيوتكن».

في المحطة، وقد سرني أني أصبحت وحدي أخيرا، تلفنت لجيمي. قال إنه سيقابلني في محطة جراند سنترال. تكومت على جانبي، فوق مقعد القطار الليلي الساطع، وروحي المعنوية عالية، بفضل جرعة من الكودايين، بينما كانت حافظة نقودي الفارغة ملقاة في اهمال على الأرض، ورحمي الفارغ مجرد من كل احساس، ونمت حتى نيويورك.

كان الوقت متأخرا بالليل، وكنت عائدة من مكان بعيد جدا، ودون أن يدري فعلا رحب بي في خجل. شربنا كأسين احتفالا

بخسارتنا، وكنا نشعر بالحرج كأننا غريبان التقيا فى جنازة شخص ثالث. وفى الصباح بدأت آلامى، وارتفعت درجة حرارتى. وقضيت اسبوعا أصرخ وأنا أقرأ «أليس فى بلاد العجائب» بصوت عال بين صرخاتى، وأنزف قطعا كبيرة مخيفة من الخطام...

٣. هذه المرة : الآن.

«أوه، سأنطلق فى هذا الطريق الكبيرة وحدى، سأنطلق فيها وحدى. واذا لم تأت معى ياطفلتى، سآخذ شخصا أخر».

قال الزنجى الثمل فى حديقة ميدان واشنطون: «يبدو أنك فى مأزق يافتاتى. وقعت هذه المرة بالتأكيد».

وصاح الصبية من سيارة فى الشارع الثامن: «نحن نعرف ماذا كنت تفعلين»؟. وابتسمت فى كل جزء منى، لأن ذلك النتوء الغريب كان يسير امامى. فى الليل، فى فراشى، أشعر بك تلكزنى وتستدير لترقب الإرتعاشة المجنونة فى كوخ جسمى المستقل، حيث ترقص وتصطاد وتستحم فى دمائى، وتتدحرج فى الكهف المظلم الذى بنيته لك، لا تفكر فى غير وجودك، وترقب نفسك وأنت تصير حمامتى الأنانية.

فى مكان آخر، ينام جيمى إلى جوار فتيات غريبات، وصيحات ثملى: «سوف يصبح لى طفل»، وأحلام عن رجال عواجيز ومحيطات تجرى بعيدا. أيامه مجردة من أى فكر، وأحلامه تتزاحم، أو هكذا أتخيل.

كيف يمكن لإمرأة أن تُصور لكم، أيها الرجال الأغبياء، متبلدى الحس، متابعة العنكبوت الدقيق وهو يبنى من جديد نسيجه الذى حطمته الأمطار، وشجيرات البلوط الصغيرة ترتفع متطاولة نحو الشمس؟. فى البدء، كنت أنا، أيضا، خائفة.

جيمى يزفر، والمحلل النفسى يطمئننى، أصدقاء بدون قلقهم، ورجال غريبو الأطوار يعربون عن دهشتهم، وغرباء يحنون رؤوسهم فوق بطنى ليسمعوا ما يجرى فى الداخل. . فى البارات. قال أحدهم: «كنت أظنك بنية عاقلة. مالذى أوقع بك هذه المرة؟»

صديق: «ياللشجاعة». آخر: «أنت مجنونة». كيف يمكن لإمرأة أن تشرح لكم (العالم البارد المؤلف من الظروف وربما ولماذا) هذا الإستسلام الذى يحيرنى أنا أيضا؟

فى الليلة التى أخبرت فيها جيمى وكنت ثملة. كنا فى بار. وكان ثملا هو الآخر. قال: «ليس منى»، وغادرنى ثم عاد بعد دقائق لأنه كان يعرف أو أراد أن يعرف. تصايحنا، وبكيت، واهتز فى الساقى قلب رجل الأسرة الإيطالى فحمل على جيمى ووقف إلى صفى.

تصارعنا طويلا، وكنت أنت طوال ذلك الرعب تبنى نفسك داخلى، هادئا، وادعا، كسمكة، مشغولا بنفسك.

هكذا قلت لك: «نعم». وأنا تحت تأثير الماريجوانا أو الخمر بعثت اليك برسائل مجنونة. وأنا وحيدة أو فى حفل، كنت تتحرك داخلى، تذكرنى... بعد الأورجازم قفزت أنت من الفرح.

تمطنى فأفقد شكلى. أنظر إلى هذه الصورة. مأواك المحدب يرتفع أمامى، وابتسامة بلهاء كبيرة على وجهى. سرّة بطنى، التى كانت عميقة، مضمومة وغامضة، أصبحت فجوة ضحلة. وثدياى يوشكان على الانفجار وقد خططتهما عروق زرقاء لامعة. لا بكينى هذا الصيف. أجلس فى رصانة فوق الصخور الباردة، العجوزة، المباركة. زكيبة فضفاضة من الفخذين حتى عظمة الكتف. أنا، عاشقة العرى، والعنف والزحام، دجاجة أخرى الآن.

وأنت تبحر فى قنوات دمائى، ملاحاً صغيراً، ونحن الآن أنت وأنا، أنت وأنا. وأنا أتعلم، فقط أتعلم، كيف أحب.

الحب بالشخص الثالث والثمانين
للكاتبة الامريكية
جويس البرت
(١٩٦٦)

Love in the 83rd person

by

Joyce Elbert

1966

قالت : «أحب جاك يادكتور أبلسون».

قال: «أوه: فى ذلك الصيف كان الجميع يقودون سيارات بويك من النوع ذى السقف المتحرك... لديك هذا الصباح الكثير من السطور الأولى لروايات جديدة. أنت مضحكة للغاية، ومهووسة. أرأيت كيف كنت تقفزين فى أرجاء المكان؟»

رَقَدت بلا حركة: «أنا هكذا دائما».

قال: «كلا ياعزيزتى. كنت أقصد عندما جريت إلى البقال منذ دقائق. ماكنت أملك مثل هذه القوة والنشاط أبدا. الظاهر أن رد فعل الإنهاك يختلف من شخص إلى آخر».

رددّت: «الظاهر أن رد فعل الإنهاك يختلف من شخص إلى آخر». كانت الغرفة مظلمة ورطبة، والجدران لونها غير محدد بين الأزرق والأخضر. وعلى المائدة المجاورة للفراش راديو FM تنبعث منه موسيقى أسبانية، من بقايا إحدى حفلات مصارعة الثيران القديمة. وعلى الأرض زوج من السراويل ورداء صيفى بلا أكمام، وكوبان من مكعبات الثلج الذائبة. وعلى الفراش جسدان شديدا البياض فى الأماكن المعهودة لثوب الاستحمام، ركنا فجأة إلى الهدوء التام، ثم امتدت يده الآن تجذب الستائر وتضئ وجهها.

قال: «أنت جميلة رائعة. منذ سنة وأنا أريدك».

قالت : «أمس قلت سنتين». كانت عيناها مغلقتين وعلى شفتيها شبح ابتسامة. «يبدو إننا فقدنا سنة أثناء الليل».

قال : «أنت رائعة، بديعة، مثيرة، رقيقة. لم أتصورك أبدا على هذه الدرجة من الرقة».

قالت: «الذين لا يعرفوننى يظنوننى فظيعة. لكنى لست هكذا فى الحقيقة».

قال: «لست فظيعة على الإطلاق. فى الحقيقة أنت لا تشبهين في شئ كل ماتخيلته عنك. كنت أظنك أكثر نحافة. تبدين كذلك وأنت بملابسك. بالطبع تعرفين ذلك. قيل لك من قبل. لم يعد بوسع أحد أن يذكر شيئاً مبتكرا فى الفراش».

قالت: «أليس هذا فظيعا؟ لم يعد هناك ما يُذكر دون أن يبدو اسطوانة مكررة».

قال : لاتقولى شيئا ياعزيزتى. ضُمينى فقط!»

ضحكا سوية وهما يتطلعان إلى السقف. ومدت يدها إلى المائدة، فعلّت صوت المحطة الأسبانية.

صرخ المذيع : «راديو و- ا - د - و. أليجريا! أليجريا!»

قالت : «الأغانى الأسبانية دائما هكذا.. مى كورازون، مى فيدا، مى ألما، أوناكو، ماس، أليجريا، أليجريا.. هل لاحظت ذلك؟»

مال عليها وقبل فمها. حاولت أن تنظر إليه فقبلها من جديد: «حبيبة القلب. أنت مثيرة للغاية».

قالت: «أنا مجنونة بك». ومدت يدها: «انت كبير جداً».

***

قالت : «أدر جهاز التكييف من فضلك. سأغلق الباب. وسأعد لنا كأسين».

إنسلت من الفراش، وعبرت الصالة، التى تضيئها أشعة الشمس، إلى المطبخ. كانت هناك قنينتان فوق المائدة، وتحمل إحداهما بطلاء الأظافر أحمر اللون حرف V، وتحمل الأخرى باللون الأحمر حرف G. ملأت كأسين طويلتين بالثلج، وصبت من القنينة الثانية، ثم من إناء به عصير برتقال، وجذبت الدرج الأيسر من الخوان، وأخذت منه ملعقة كبيرة حركت بها الكأسين، ثم غسلت المعلقة ونادت: «أحمِ مسكنك. فأنا أعرف مكان كل شئ تماما».

عادت تعبر الصالة إلى الغرفة. أغلقت بابها باحكام وقالت: «الأمر أشبه بالتقمص. فأنا أعرف تماماً أين أجد ما أريده. يجب أن تراني جينا الآن».

تناول إحدى الكأسين وحرك الثلج بأصبعه: «ماهى أخبارها؟».

«لم نعد نلتقى. المرة الأخيرة التى تناولنا فيها طعام الغذاء سوية قالت إننا يجب ألا نلتقى بعد الآن. وهذا ماحدث».

«أمر سيئ. كنتما صديقتين حميمتين».

«كلا. كنا متصادقتين، لكننا لم نكن أصدقاء بالفعل. ولا فى الصيف الماضى عندما أقمت هنا».

«كانت تشعر بالرغبة فى حمايتك. هذا شأنها عندما تميل إلى أحد».

«إنها مزعجة. كانت تتصرف كأنها مديرتك».

أزيز جهاز التكييف، والموسيقى الأسبانية ولا شئ، حتى قال: «إشتهيتك للمرة الأولى فى الصيف الماضى، عندما كنت تنامين هناك على هذه الأريكة، وذات ليلة كدت أقول لجينا أن تذهب وتأتى بك. ثم بدا لى أن ذلك لا يليق، عدا أن جزءا مما أردته كان أن تريدك هى أيضا، وكنت أعرف إنها لن تفعل أبدا، لهذا استغرقت فى النوم،

ونسيت الأمر كله. لكنى لم أنسه فى الحقيقة».
«إما هذا أو إنك مارست الحب مع جينا ونسيت الأمر كله».
«كلا ياعزيزتى. لم نكن نمارس الحب كثيرا. كانت جينا ودودة وعاطفية للغاية، بطريقتها الخاصة، لكنها لم تكن تثيرنى. كانت هادئة تماما فى الفراش، مستسلمة تماما، وهذا هو كل شئ».
«إنها تُشاهد الآن مع بارنى».
«بارنى كيجان؟»
«هذا ما ذكرته لى عندما كنا نتناول الطعام. كان بارنى يراها جذابة منذ أحضرته معى إلى هنا فى الصيف الماضى. هو من النوع الأميركى تماما والذى تفضله جينا. كما أنه كان أيضا فتاى ذات مرة».
«جينا وبارنى».
« هل تشعر بالغيرة؟»
«من (جاك دكتور أبلسون) فقط. وسيارات البويك أيضا».
قالت: «الغيرة انقرضت».
همس بطريقة ذات مغزى: «لاحظت هذا بنفسى».
لم تبتسم.
قال: «هاى. ماذا حدث؟»
قالت : «أعصابى ثارت فجأة».
وضع كأسه على الأرض وقال: «تعالى هنا ياحبيبتى. ليس هناك مايثير الأعصاب. إنه زمن الألبجريا».
قالت: «أظن إنى عصبية جدا الآن. سيمنعنى هذا من المجئ». واختفت بين ذراعيه.

***

قال: «لا أفهم أبدا ماذا يعجبك فى بارنى. إنه شخص لطيف لكن متخلف للغاية. فهو رغم أعوامه الستة والثلاثين مازال يعيش فى فقاعة.جئت أنت وفجرت الفقاعة. عندئذ لم يعرف المسكين ماذا يفعل بنفسه».

«كنت فى حاجة إلى بارنى لأتمكن من الإنفصال عن جان بول. أحيانا تضطر النساء إلى الذهاب إلى الفراش مع رجل ليتمكنَ من نسيان رجل آخر. كان لابد من نسيان جان بول. الواجهة الشاحبة لحياتنا، التظاهر. هل تعرف إنه ظل يتظاهر بحبى حتى آخر لحظة؟»

«ربما».

«لاتكن مضحكا. كان يكرهنى. فقد ظل يعانى من العنة شهورا طويلة. كان الأمر فظيعاً. ولم أتقبل فظاعته إلا بعد مدة، فأنشأت تلك العلاقة مع بارنى».

«ألم تكونى ساخطة عليه؟»

«بارنى؟»

«لا. جان بول. لأنه كان يرفضك».

«كنت أشعر بالأسف من أجله. كان فى حالة فظيعة. ولهذا أنت لم تحبه أبداً. كان مصاباً بانهيار عصبى عندما إلتقيتما».

«لا أحد يصاب بالإنهيار العصبى الآن. فهى حالة دائمة. ثم إنى لم أنفر منه. كل ما فى الامر أنى لم أحبِ رؤيته معك. لم يكن يبدو عليكما أى انسجام. وطالما تساءلت كيف قبلت الزواج منه».

«لم أعرف فى حياتى رجلاً قال كلمة طيبة عمن سبقوه من الرجال».

«هذا ليس صحيحا ياحبيبة قلبى. بوسعى أن أفهم زواجك من ذلك المجنون أوكنور. فهو على الأقل شخص مسل، رغم أنه يسلبنى

دولارين في كل مرة نلتقي فيها. دولاران حقيران. وكان هذا يصيب جينا بالجنون لكنى كنت أقول إنه يتيح لنا أمسية مسلية بهذين الدولارين. لايمكن للمرء أن ينفر من شخص هذا شأنه. ماذا صار إليه أمر هذا المجنون؟»

«كان يقيم فى المكسيك طوال السنين القليلة الماضية مع فتاة بشعة من نيويورك. مصممة ملابس. أعتقد أنها تتكفل بنفقاتهما الآن من صناعة ملابس الفلاحات فى شابالا».

«أعجب لماذا ذهبا إلى هناك. فالبحيرة جافة تماما».

«كذلك أوكنور وهذه الفتاة».

«لقد قابلتها. كانت مهووسة به. وكثيرا ما كانت تتصل بالهاتف فى منتصف الليل لتعرف إن كان معنا. ذلك النوع من الهيستريا. أراد أوكنور أن أنام معها، وقد فعلت ذات ليلة، لكنى كنت ثملا إلى درجة لم أتذكر معها شيئا فى الصباح التالى سوى إحساس غامض بأنه كان موجودا طول الوقت».

« لم يكن هذا مجرد احساس».

«لابد أن زواجكما كان يفيض حيوية».

إنقلبت على بطنها وكظمت صوتها بين الملاءات: «كيف يمكنك أن تغار من ألف امرأة يسبحن فى زجاجة جن؟»

أعادها فوق ظهرها، وانتقلت شفتاه من جبهتها إلى جفونها إلى فمها: «يا أعز الناس، لشد مايشبه صوتك صوت زوجتى السابقة».

ثم قال: «أنت محظوظة اليوم إذ أمكنك الحصول على عطلة. فأنا أكره أيام الجمع».

«أنت المحظوظ، فبوسعك أن تتصل بمكتبك وتقول إنك ستأتى ظهرا ولن يعبأ أحد».

«ماذا تنوين عمله اليوم؟»

«سوف أذهب إلى المحلل النفسى للمرة الأخيرة قبل أن يبدأ عطلته». وتطلعت على غير هدى فى أرجاء الغرفة. «وبعد ذلك لا أعرف. ماذا ستفعل أنت؟»

«سأذهب إلى عملى. يحسن بنا أن نتناول إفطارنا الآن».

«حسنا».

«قبلينى أولا».

«أوه ياحبيبى».

«كانت ليلة رائعة. من سنة وأنا أحلم بها. سنة كاملة. هل تدركين؟»

«من سنتين. أم أنك كنت ثملا عندما قلت لى ذلك ليلة أمس؟»

«بالطبع كنت ثملاً. كنت عصبيا. ألم تكونى أنت أيضا كذلك؟»

«إلى درجة الهيستريا.»

«تماما ياعزيزتى. كان بوسعى أن أحس التفاعل».

قبل ثدياً عارياً، وجذب الملاءة عن الآخر، وقبله، وجرى بيده فوق إستدارات ردفيها، وهمس فى أذنها، ثم أقامها فى وضع الجلوس. قال: «اذهبى واتلفى البيض».

عبرت الصالة مرة أخرى إلى مطبخ جينا القديم. وبدأت تعد القهوة.

ناداها: «أجلى التوست. سأحلق ذقنى أولاً».

كسرت خمس بيضات فى إناء وأضافت قليلا من البقدونس المجفف ومسحوق الثوم والفلفل الأحمر الحار، وخضت المزيج. وبدأت القهوة تغلى. توست وزبد ومربى. وذهبت تعد المائدة فى غرفة

المعيشة. وفى الدقيقة الأخيرة أضافت قطعا من اللحم المقدد إلى البيض، وذاقت القهوة، ثم خففتها بالماء المغلى.

قالت: «كل شئ ناضج إما أكثر مما يجب أو أقل مما يجب».

«هذا هو الواجب».

كان يرتدى قميصا مخططا بالأزرق والأبيض، ورباط عنق بلون البحر، وسروالا رماديا، وحذاء أسود بلا رباط، وسترة بحرية بأزرار نحاسية. وكان قد جرح نفسه أسفل ذقنه: «هذا مايحدث لى دائما».

قالت: «كنت أظن دائما أنك ستتزوج جينا. لقد راهنت على ذلك مرة وخسرت خمسة دولارات».

«ما الفائدة عندما تخبو الإثارة الجنسية؟»

«هل خبت لديها أيضا؟»

«لا أعرف ياعزيزتى. فلم تكن جينا تتحدث كثيرا عن نفسها».

«ألا يمكنك أن تخمّن؟»

«لا. كانت جينا ريفية فى أعماقها. مغلقة على نفسها تماما وهادئة».

«كانت تتكلم معى كثيرا».

«كانت تتكلم دون أن تقول شيئا». إنحنى وأزال برفق بقايا قطعة من البيض إلتصقت بذقنها. «لماذا لاترتدين ملابسك ونركب سوية إلى المدينة؟ سأتولى أنا تنظيف المائدة».

نادته من الحمام بعد دقائق: «هل لك أن تعطينى قلما؟»

وفى سيارة الأجرة التى أقلتهما إلى المدينة سألها: «ماذا كنت تريدين من القلم؟»

«حاجباى».

«ظننتك ستكتبين لى كلمة وداع».

طافت عيناها بحقيبة العطلات الصوفية التى كانت بجوارها على المقعد ثم سألته:

«إذا كنت رغبت بى منذ عام، فما الذى أخرك طول هذا الوقت؟»

«التعقيدات ياعزيزتى. الحقيقة أن ماحدث أمس، وقع قبل أن أتوقعه. فأنا مشغول الآن بعقد أواصر علاقة أخرى».

«كذلك أنا».

«ويلدر؟»

أطرقت برأسها.

«ألم تكن لك به علاقة منذ سنين عدة بعد انفصالك عن أوكنور؟»

أطرقت مرة أخرى.

قال: «كنت أعرف زوجته السابقة».

قالت: «أعرف».

توقفت السيارة فى طريق ماديسون. وعاونها على مغادرتها. كانت الطرقات الجانبية حاشدة بزحام فترة تناول طعام الغذاء. نظرت مرتابة إلى رداء الليلة الماضية، وإلى أظافر قدميها التى برزت من خف المساء الصغير، وإلى الكيس الدقيق الذى يحوى المفاتيح وأدوات التجميل. ثم رفعت بصرها إليه، فوقها ببضع بوصات، أزرق وأبيض بذقن حليق فى ضوء الشمس.

تناول يدها ورفعها إلى فمه: «أنت رائعة، جميلة، حبوبة».

«أوه، إصمت».

قال: «ألا أستطيع الإفصاح عن شعورى؟»

«آسفة».

كانت شفتاه مزمومتين. لمستهما بأصابعها.

«أنا اليوم عصبية قليلا. لم أقصد ما قلت».

«لايجب كبت الآخرين ياملاكى».

«أنا آسفة حقا. أنت تعرف شعورى نحوك».

«كيف؟»

«أنا مجنونة بك».

«أحقا ياحبيبتى؟» وقبلها بسرعة على وجنتيها: «سأتصل بك يوم الأثنين».

«كلمنى فى المكتب».

توقف الأتوبيس على بعد أقدام قليلة أمامهما.

قالت: «لابد أن أذهب الآن. إتصل بى».

قال وهى تستدير وتجرى بحذاء الليلة الماضية نحو أتوبيس طريق ماديسون المزدحم الذى كان بالإنتظار: «تحياتى إلى محللك النفسى».

يوميات زوجة غير مخلصة
للكاتبة الأيرلندية
ادنا أوبريان
(١٩٦٦)

Diary of an unfaithful wife
by
Edna O'berien
1966

كان قرطي ضائعاً. بحثت عنه فوق الأريكة وخلف الوسادة. وقلت كأنما أخاطبِ نفسي: «سأفتقده». كان عبارة عن قطعة فيروز مثبتة في سلسلة صغيرة من الذهب. نزع «ب» القرط الآخر وسألني في رقة: ما إذا كان ثقب أذني يؤلمني. قلت له: «كلا، إلا إذا عبث أحد بقرطي». وسرعان ما كنا نتبادل القبلات من جديد. وفيما بعد وضع يده في جيبه فوجد القرط، وقال: «هل أنت الذي وضعته؟». إستاءت من تفكيره بأن في وسعي أن أفعل شيئا كهذا. كان واعيا لأول مرة بخطر افتضاح أمرنا. فقد كان أمنه «مهددا» (تلك الكلمة مرة أخرى)..

لم يحدث أن رقصنا أو لعبنا التنس أو أخذنا الباص سويا...

رعشة طويلة: من خلف عنقي حتى عقبيَّ. أفكر في سياج من الأسلاك شحنت بالكهرباء لتبعد الخراف. وتنمو الفكرة معي. أغلب من أعرفهم من الخراف. قد لا يكونون كذلك في أعماقهم، لكني أقصد نفوسهم التي يعرضونها على الملاء في حفلات العشاء وغيرها من المناسبات. بوسعي أن أتصور وجه «ب» الآن، وفي البداية كان غالبا ما يتلاشى من ذهني حال ظهوره. عندما تلتقي عيوننا ونحدق النظر، نفعل ذلك بطريقة تجعلنا أكثر حياة وأكثر موتا. الموت بالنسبة إلى العالم الخارجي، والحياة بالنسبة إلى أنفسنا. هل هذا هو ما فعله نارسيس في البحيرة؟ هل هذا هو الحب؟...

قال : «عندما لاتتحدث النساء في الفراش، تزيد قدرة الرجل

على تذكر الجسد». لعل «هي» تطبق فمها...

كنت أول من وصل هناك. لا أستطيع أن أضبط وقت هذه الأمور. كما هو الحال في السمنة أو النحافة - فلم يحدث أبدا أن كنت سمينة أو نحيفة، لأني دائما في الطريق لأن أكون كذلك. كانت الردهة مزدحمة. وكانت هناك لوحات ملونة عن رحلات إلى أماكن أخرى. الريفيرا زرقاء وكذلك أثينا. عندما دخل «ب» قلت له: «دعنا نذهب إلى أثينا الزرقاء». كان بودي أن أذهب معه بعيدا لمدة أسبوع. مجرد أسبوع واحد نعرف أنه سرعان ماينتهي. كانت قاعة الطعام ضخمة. وطلبت مائدة في الركن لأني شعرت أني سأقع لو جلسنا في الوسط. لا أستطيع مضغ الطعام أمامه. عندما نفترق يبدو دائما سعيدا، بينما أكون مكتئبة. يعجبني هذا فيه. ويعجبني الرجال. أنا معجبة بزوجي أيضا. ليس بسبب رقته، وإنما بسبب عمله، فهو يقضي اليوم كله بين السجلات والملفات والناس...

أتأرجح بين السعادة وأقصى درجات اليأس. إلتقيت صغيري جيريمي بعد المدرسة. تأخرت خمس دقائق. إنصرف جميع الأطفال الآخرين. كان موشكا على البكاء. قال: «إنحلّ رباط حذائي». لم يكن هذا صحيحا. الأطفال خبثاء.

أمسية تسكنها أمسيات جميلة أخرى. وأنا أستعد للقاء «ب» فكرت في الإستعدادلزوجي، وبدا كل شئ سليما وكاملا ومتناسقا. كان مخدعي باردا لأن الأنابيب أصيبت بشئ من التلف، وفكرت في ورقة نعناع تجمدّ الصقيع فوقها. واختلطت هذه الفكرة بزخارف الكعك وحشيشة الملائكة. كان شعورا جميلا في تلك الأمسية الباردة اللاهثة، أن أكون قادرة على التفكير في غصن نعناع غطاه الصقيع، وفم «ب» عندما نلتقي ويمتد ليلمس فمي بدلا من أن يقول هالو. ما كان يجب أن أطلب ذلك منه. قال: «أكتب إليك؟ لماذا يجب أن أفعل ذلك؟».

لعله ظن أني أطالب ببرهان على حبه. ويبدو أنه كان على حق...

أظنني أخون «ب» بتدوين كل هذا. إنما الأمران غريبان حقا: يقظته وإهمالي. فهو يتلفت حوله عندما نكون في مكان عام. وعادة ماتكون ياقته ضيقة للغاية مما يؤلم عنقه عندما يتطلع حوله. كأنه متزوج وأنا لست كذلك...

عندما نكون أنا و«ب» في أحسن حالاتنا معا، يتحتم علينا دائما أن ننصرف. ويتملكني الخوف. أندفع إلى منزلي. أروى الأكاذيب لسائق التاكسي. وأفكر فيما يمكن أن أرويه له ليضاعف سرعته. ويكاد زحام المرور يصيبني بالجنون. انها أسوأ اللحظات، لايخفق فيها قلبي وحده، بل كلي...

المقاهي، الحدائق، المقاهي. يقول إننا لو ذهبنا إلى الكوخ، فإن المرأة، إمرأة ما، ستذهب قبلنا بيوم وتوقد نارا. توقد نارا! أريد الأمر باردا، لنجلس تحت الأغطية، كالمرضى، ونرتشف الويسكي. لا أريده دافئا ومريحا كالبيت.

أعطى «ب» هبة للساقي. قلت: «ما أغرب أن تفعل هذا». قال أنه لابد من ذلك. قلت: «أنت محدث نعمة». وساد الصمت. أظن أني جرحته. (صبي مسكين قام بعمل طيب. أحقا لايتخلصون من هذا الشعور؟). وعندما غادرنا المكان كانت السماء تمطر. ووقفنا ننتظر سيارة. قال: «خذي أنت أول سيارة». لم يقل هذا أبدا من قبل. كان يرافقني عادة بعض الطريق ثم يغادر السيارة. ربما كان المطر هو السبب. أتيت البيت غارقة في العطر. أحمل زجاجة معي لأغطي رائحته بعد أن أتركه. أدخل منزل زوجي تفوح مني رائحة الجرم...

يقطن «ب» منزلا عاليا: مطرقة باب من الطراز الجيورجي، أربع زجاجات من الحليب في اليوم (حسب الزجاجات الفارغة خارجه)، وستائر من الحرير الشفاف. أعرف كل هذا. أعرف رقم هاتف منزله.

ولا يعرف أني أعرف. بحثت عنه في دليل الهاتف. وذات ليلة مضيت لأرى المنزل. كما لو كانت رؤيته ستشفيني. قال زوجي عندما عدت: «كانت نزهة طويلة». قلت: «ذهبت إلى هامبستيد لأرى كيف تبدو». «وكيف كانت تبدو؟». قلت في شئ من المزاح: «تبعث على الإهتمام»، لكن البرد في الغرفة كان شديدا. قلت: «يجب أن نفعل شيئا بشأن هذه الدفايات». قال «أ» : «حسنا، لديك اليوم كله، أليس كذلك؟». اندفعت خارجة من الغرفة لأعد الشاى. الآخرون قد يفقدون أعصابهم أو ينهارون أو ينتحرون، أما أنا فقد صنعت الشاى بإعتداد شديد. وحملته إلى «أ» مع بعض التوست، وأدرت أسطوانة صلوات يهودية. تحدثنا في ود، لكن لم يكن في الإمكان التخلص من برد الحجرة. كان وجه جيرمي دافئا في الفراش. من عادته أن يقلّص أنفه عندما أعطيه قبلة النوم. أضأت النور لأرى بقع النمش المنتشرة على أنفه. وجدتها قاربت الاختفاء. سألني «أ» لماذا أضأت النور. قلت لأرى بقع النمش. قال إن النمش كان هناك في الساعة الثامنة عندما مضيت إلى الخارج، أو إني لم أفكر في ذلك؟...

تعش منعزل من الوحدة.

«الدخول في حياة شخص آخر أمر مرعب»، هارولد بينتر. «عدم الدخول في حياة شخص آخر أمر قاسي للغاية»، أنا. عندما أقع في الحب فإنه الربيع أيا كان الوقت. لا أهمية للأوراق المتساقطة، فهي تنتمي إلى فصل آخر...

حاولت أن أمزح من أجل «أ». حدثته عن عجوز في التسعين تضع على مكتبها لوحة تحمل هذه الكلمة: «الشبق». قلت لعلها تشد من أزر نفسها. قال: «الإحتمال الأغلب أنها نصيحة شفرية لمراهنات الجياد». هذا الإتجاه للتقليل من المبالغة في الأشياء والذي كنت أحبه في «أ» هو الذي أكرهه فيه الآن كثيرا. خرجنا لنزهة قصيرة سيرا

على الأقدام. لم يحدث أبدا أن مشى ثلاثتنا سوية. فإما أن يكون جيريمى معه فى المقدمة وأنا فى أثرهما، أو نكون أنا وجيريمى معا بينما يستغرق «أ» فى خواطره. كانت أمامه قضية طلاق، وأفكر كم هو غريب أن يعرف أسرار الجميع ماعداى. وأنظر إلى زوجى وأود أن أركع أمامه وأسأله المغفرة...

أيام الآحاد التى أقضيها مع أسرتى هى أسوأ الأيام...

رأيت إعلاناً عن فيلم فيه صور أربع نساء وتحتها سطر يقول: «مراهقة، زوجة قلقة، شيطانة، عاهرة». أنا كل أولئك.

نبأ مُذهل فى الصحيفة. ارتاب رجل فى أن زوجته تخونه. وحدس أنها أرسلت برقية إلى عشيقها. فكر أنها لابد كتبت مسودة البرقية أولا وألقت بها فى سلة المهملات بمكتب البريد. ذهب إلى المكتب وعثر على المسودة. كانت تقول: «أحبك، أفتقدك، أراك يوم الثلاثاء». قطعت النبأ وتركته على مكتب «أ» ليكون مزحة وتغطية فى الوقت نفسه. لم يعد العطر يخفى رائحة الجرم...

ضغطت يد «ب» فأجفل. كنت قد ضغطت على قطعة من اللاصق- فقد جرح أصبعه أثناء الحلاقة. قلت أنى قرأت مرة إننا إذا إعتصرنا الليمون فوق المحار، فإنه يجفل وينكمش، رغم أن ذلك لايظهر للعين المجردة. طلبنا دستين من المحار وكمية من الليمون، وكانت تلك من المرات التى كنا فيها قساة مع كل شئ. ما عدانا نحن. ولهذا كان الأمر على مايرام...

«إنها فى حرب مع قدرها. ماذا كانت تملك غير أن تموت شابة، مقيدة، محبطة؟» هذا ما قالته فيرجينيا وولف عن شارلوت برونتى. حسناً، لن يقول أحد إنى مت مقيدة ومحبطة. كل شاب يصفر لى الآن أبتسم له. إذا كانت علاقتى مع «ب» ستعيدنى إلى مراهقتى، فلأكن مراهقة فى كل شئ...

أنا وجيرمى نأكل الكعك ونلعب...

بوسعى الآن أن أرى كيف تلغى الحرب إلتزام الشرف اليومى وكم فى هذا من راحة وخلاص. قرأت الصحف، حروب كثيرة، لكن فى الجانب الآخر من العالم. «أ» و«ب» فى خندق واحد يحملان صوراً لى، كما نرى فى الأفلام. ذهبت أربع مرات لأرى فيلم جان لوك جودار «إمرأة متزوجة». إنه فى صفى. فكلا الرجلين يتكشفان عن مغفلين والمرأة - حتى- لا تَحْمَل...

يتملكنى شعور فظيع بأن الأمر سينتهى بطريقة غبية. مثلا، لايظهر «ب» فى أحد مواعيدنا، أو لا أظهر أنا، ثم لا نتمكن أبدا من الإتصال ببعضنا البعض لنتفق على موعد آخر. ممكن. كتبت إليه رسالة واحدة. سألته زوجته: «ممن؟». قال: «الناشر». قالت: «فى يوم أحد؟». وانتهى الحديث- كما ذكره لى- عند هذا الحد. انتظرت إباحة أخرى، خيانة ثانية لها- مثلما ينتظر المرء عملية شنق- لكنه لم يفعل. أشعر الآن بالسرور لذلك، رغم أنى وقتها كنت ساخطة. قال: «ستكون جميلة هذه الرسائل، لكن الأفضل ألا تفعلى». قلت: «ستكون جميعها رقيقة للغاية وعميقة مثل نتف صغيرة من نثار الورق (كذب)، لكن الأفضل ألا تفعل»...

قبلتنا الأولى- من بين جميع الأماكن فى مدخل جاراج- كانت مضحكة. كان الجاراج مغلقا وفوق بابه لافتة تقول: «حد الإرتفاع ٨ أقدام و٦بوصات». تظاهر بأنه يقيس طولى ثم قبلنى وتراجع إلى الخلف قائلا: «والآن قبلينى». قلت: «لا أستطيع. لا أعرف كيف». ومع ذلك فعلت. وتناولنا العشاء. رويت له كل الأشياء المضحكة التى خطرت ببالى، وكانت تتدفق طول الوقت. ضحكنا كثيرا وشربنا نبيذ القران. إضطجع فى المقعد الذى كان يشبه الأريكة وابتسم. كانت بيننا وسادة فرفعها وقال: «تلقيت عرضا بشلن واحد مقابل هذه الوسادة».

ثم انحنى وأزال إحدى فردتي حذائي ووضع الوسادة تحت قدمي. كان الأمر لذيذا. قال إنه كان يجب أن تكون هناك غرف في الطابق الأعلى. قلت: «كلا. إذا كان سيحدث شئ بيننا، فيجب أن يكون مرحاً، أخلاقياً، جذلا». «مرحا؟»، قال مدهوشا. قلت: «أكان هذا سوقية مني؟». قال: «كلا على الإطلاق، لكن يبدو إنك فتاة حزينة. حزينة». كنت مهرجانا من الضحك في تلك الليلة بالذات. كان يجدر أن يراني في حالتي العادية. بالطبع لم أقل له ذلك (هذا هو الفخ: نحن نخفي الجانب الأصدق من نفوسنا عندما نحب). ابتسمت بحزن. فمتى ظنوك شيئا تبدئي في تمثيله بجنون. ظل يداعب قدمي فوق الوسادة ولا أذكر أني شعرت بقلق ما على تأخر عودتي إلى البيت...

ولج «ب» الحفل واضعا نظارته، وخلعها، ثم وقف وظهره إلى الجدار، ثم وضعها من جديد. فكرت: هذا الرجل عصبي ووسيم. كان هناك ستون شخصاً يتناولون العشاء. أظنها كانت مقاعد مستأجرة. المقاعد الصغيرة المذهبة التي تراها في المطاعم الأنيقة. كنت أجلس إلى مائدته، ليس بجواره مباشرة وإنما أمامه. لم يكن يأكل شيئا. وقلت عبر المائدة: «لماذا لا تأكل؟ «قال: «لا آكل لحم الكندوز». بعد ذلك تبادلنا النظرات. رفض البودنج وكذلك أنا (بودنج جميل بالكستناء تعلوه الكريمة وتحيط به قطع البسكويت من الجوانب). نظرة متورطة تذهب بالشهية. وفيما بعد، في المخدع، كانت هناك نسوة يتحدثن. لا أذكر سوى الرداء دون الوجه. كان رداءاً طويلاً من المخمل الأسود. وبعد ذلك رأيتها تتحدث إلى «ب» وتنصرف. سألت: «من هذه؟» وقال لي شخص ما إنها زوجته بينما كانت تمضي بعيدا. كان ظهرها نحوي ولهذا لم أر وجهها أبدا. يبدو أنها تغني في ناد ليلي. عندما اختفت اقترب مني. قدم إلي مسواك أسنان، مازحا. قلت: «إنها من الخشب ولست آكله». قال: «الفكرة أن شذراتها تعلق بأسنانك ويتعين عليك أن تتخلصي منها بالإضافة إلى بقايا الطعام».

يكتب روايات. إنها هكذا. تفيض بأشياء غريبة مضحكة، لكنها حزينة من وراء هذا كله. إقترب منا آخرون ليلتفوا من حوله، وفقدته. ثم لم أفقده. شعرت أنه يدبر أمرا. وجاءنى بعد قليل: «نحن ذاهبون إلى مباراة بوكر وقد دعى زوجك إليها». قلت دون أن يبدو شئ على وجهى: «حسن». وراعيت أن أذهب إلى السيارة فى رفقة «أ»، وكان من السهل أن أكون سعيدة. تدخين متواصل وشراب متواصل ولا أثر لرغبة فى النعاس...

لست أنكر هذه الرغبة الوحشية. أريد أن يكون الجميع فى حب. إنه جبن وضعف وقذارة. لكنه عظيم. يبدو أنى أتناول بالتفصيل تلك المرحلة من حياتى لأن حياتى قبلها كانت مجدبة...

أبكى قليلا، أضحك قليلا، أجرى، أجل أجرى فى الطريق مع جيريى كما لو كنت فى التاسعة. أتمدد وأظن أنى قادرة على لمس النجوم. أتنفس بعمق، أتحدث كثيرا جدا. أترك نفسى أنطلق فى فورات انفعالية، ثم أظن أنى أتصرف فى سخف أو يظن أحد ذلك بالنيابة عنى، وأكف...

كان الحب دائما يوجه حياتى. أعرف أن هناك مغامرات ليس أبطالها من الرجال، وليست حسية، لكن لا شأن لى بهذه المغامرات. انها ليست لى. أريد دائما أن أحب، فالقبر هو البديل. العقل بالتأكيد يتدخل ويحدثنى عن الهدف من الحياة، وعن الأمومة والمسئولية. لابد وأن أعترف أن الكثير من الآباء والأمهات جادون، أغلبهم كذلك، وبالرغم من ذلك، فإن الكثير من الأطفال تعساء. لماذا؟...

لا أتمكن من الخروج للنزهة، لكن الأمر يخطر لى: الزنا. زناهم، زناى، زنا الجميع. ذهبت إلى الحديقة فى الصباح. فى أحد الأكواخ الصيفية رأيت عربة صغيرة تحمل طفلا. وبالقرب رجل وامرأة.

ظننتهما زوجين سعيدين خرجا سوية لينزها طفلهما. وعندما إقتربت منهما رأيتهما يتبادلان القبلات. وظللت أعتقد أنهما زوجان سعيدان، وعندما سمعا وقع خطواتي فوق أوراق الأشجار -وكنا في الخريف- إنفصلا في سرعة وعنف. خطواتي جعلت منهما عدوين. الإحساس بالإثم شئ فظيع. ولايجعلني هذا أكف عن رؤية «ب». لعله يشجعني على ذلك وإن كان يحول بيني وبين الإستمتاع بالأمر. أردت أن أقول لعاشقي الحديقة: «استمرا. تبادلا القبلات. كونا سعيدين». لكني بالطبع لم أقل شيئا...

سيكون الأمر رائعا لوعدت شابة من جديد ونظمت حياتي بصورة مختلفة. وهنا يثور بالطبع السؤال: من منهما كنت أتزوج؟ الإجابة ليس لها معنى مثل الإجابة التي سأحصل عليها من إنتزاع أوراق الأقحوان. واحدة نعم. وواحدة لا. ينتابني شعور فظيع بأني ما كنت سأتزوج أحدا منهما. أنا مشوشة في أعماقي. أليس الجميع كذلك؟...

يطاردني شعور بأن الأمر سينتهي بطريقة غبية...

أعرف الآن أن الغيرة هي النتيجة المباشرة للخيانة. يقول «أ»: «قد أتأخر هذا المساء»، ويبدأ قلبي في الخفقان، وأقول: «لماذا؟ متى؟ أين؟» في اندفاع. وأظنه سيتركني في الغد، أو سيلتقي بإحدى المطلقات اللاتي يترددن عليه...

دائما أفكر إلى أمام. أعد طعام العشاء بحيث يكفي ليومين في حالة ما إذا إتصل بي «ب» واحتجت إلى الخروج فجأة. أذهب لرؤية أناس لا أريد أن أراهم كي أعطي الأكاذيب مظهرا من الصدق. رأيت إمرأة مضجرة أمس، حدثتني عن مغامرة لها فوق باخرة، وكيف أنها لم تستطع لأنها لو فعلت لشعرت بأنها مومس، بينما يختلف الأمر لو جرى في منزلها. مراعاة المكانة والوقار! مضيت إلى الهاتف لأتصل به. على الجدار هذه العبارة: «أحب لسلي وجوان». حدثت

«ب» عن العبارة. قلت: «ألا تظن أنها معقولة؟». قال: «جدا». إنه أكثر عمقا منى فهو لا يتحدث كثيرا...

الغذاء مع «ب» في مشرب. كنت أتسوق. أخجلنى أن ألجه حاملة مشترياتى. ظننت أن الأمر سيبدو بيتياً تماماً أو لعلنى خشيت ألا أصبح مثيرة للاهتمام؟. جلسنا متلاصقين بسبب الزحام. الحركة وسط النهار شديدة. لم أشهدها قط من قبل. تحدثنا عن البساتين. كان له واحدا ذات مرة وزرعه تفاحا. قال: «أتعرفين أن هناك ورودا لها رائحة التفاح؟» قلت: «كلا». قال: «هل تعرفين أن للورود الحمراء قلوباً بيضاء؟» «قلت: «كلا». قال: «إعتدت أن أفتش فيها بحثا عن الآفات». كان ذلك جميلا...

يضع نظارته ثم يخلعها من جديد. أظن أن عينيه ضعيفتان. تبدوان أحيانا متعبتين ولهذا يبتسم فى شحوب. فى تناقض واضح مع ذقنه البارزة مثل النتوء الجبلى...

مسكينة «إما بوفارى»...

هناك صخرتان فى اليابان (على ما أعتقد)، تقعان على جانبى البحر، ويمتد بينهما حبل. فهم يعتقدون إنهما صخرتا عاشقين، أو أن العاشقين تجسدا فيهما بعد موتهما، أو غير ذلك من الأساطير التى تناسب حالتى وأنا تحت سلطان الحب...

شممت رائحة النرجس، لكنى لم أر شيئا منه إلا فى الرأس. مرج كامل، أبيض، برائحته المرة الجميلة. كان معطف «ب» فى لون الغبار، ولمسته أول مرة عند القبلة الأولى حيث كانت اللافتة تقول: «٨ أقدام و٦ بوصات». كأنى كنت ألمس زهرة من الورق. الآن اختلط كل شئ فى رأسي: مرج النرجس، الغبار فوق الطرقات الجبلية، سترته، الرمش الذى سقط فوق الحافة السفلى لعين نظارته اليسرى، معطفه الذى يشعرنى بالورق، وقبلته التى تشعرنى بالزهرة. المرة

الأولى دائما مجنونة. أعرف ما يمكن أن يكون عليه شعور مدمني الخمر في الثانية التي تسبق إقترابهم من الشراب، وما يشعر به لصوص المتاجر عندما تطبق أيديهم على سلعة، لأني أعتبر نفسي من هؤلاء، هؤلاء المغامرين الخائفين الشرهين...

حجراتنا. غاباتنا. مطاعمنا. حرارتنا وأشواقنا التي لايشهد عليها سوى الأثاث. في أحدى الغرف كان هناك سقف مزخرف أعجبت به. لم أقل ذلك. فيما بعد قال «ب» : «سقف جميل». قلت: «كنت أفكر في ذلك طول الوقت». قال: «ولماذا لم تريه لي؟». قلت: «لا أستطيع أن أشير إلى الأشياء التي أراها أو أقول الأشياء التي أفكر فيها عندما أحب شخصا ما». قال: «هذه وحدة، وحدة يائسة». وفكرت: هو وزوجته يتشاركان الأشياء ولهذا يبقى معها وسوف يبقى معها. أأنا مهووسة وبلهاء؟ كان المسكن لأحد أصدقائه، ومرتب بصورة لاتصدق...

كان قد تناول العشاء في الخارج. قال أن الحديث دار حول الحمامات وطرزها، الخ. قلت أن الأزواج الأثرياء يسبغون خيالا ومالا فائقين على الحمامات. سألته ما إذا كانت هناك علاقة بين ذلك وبين الجنس، ألا يظن أن كل هذه المرايا، وكل هذه الزجاجات الزرقاء، وكل هذه الأحواض، كل هذه الأوراق البديعة التي تغطي الجدران، هي محاولة لصنع هالة جنسية جميلة؟. تطلع إلى باهتمام وقال أن الأمر محتمل، ثم نزع نظارته، ودلك عينيه، الأمر الذي يفعله عادة عندما يكون ضيقا بشئ أو متعبا. أظن أني وضعت قدمي على الأمر. أعتقد أن «لديهما» حماما جنسيا. حاولت مصالحته فقلت: «عندما أحب أفضل الأماكن الموحشة المهجورة، المطاعم الرخيصة، والبيرة المرة بدلا من الويسكي». قال: «يجب أن أتذكر ذلك». قالها ببذاءة. كان الزعل الأول بيننا. لم يكن زعلا بل خلافا في الرأي حول الحمامات. يا إلهي!...

لا أملك فكاكا من ديانتي وأساطيرها. فقد نشأت عليها...

عندما ذهبت مع زوجي لنلعب البوكر، لم ألعب لأني لا أعرف. أجلسوني بجوار «ب» كي أكون قريبة من الباب، فأفيد في إحضار الشراب إليهم. كنت الشخص الوحيد الذي لا يلعب. ومع ذلك دوّن لي ما تجمع لديه من أوراق رابحة. أول ماكتب: «زوج»، ثم «زوجان»، وقلت: «أليس الأمر حميميا للغاية؟»، فضحك بخبث وكف عن الكتابة، وترك الورقة أمامي، وكانت هذه الإيماءة البريئة في الظاهر، مثل حلف عقد بيننا. وإزداد اللاعبون إستغراقا وصمتا. وفكرت: انهم يكشفون عن نفوسهم الحقيقية في هذه اللعبة. وقلت له: «إنك لا تبدو شديد العدوانية». نظر إلي وإلى يدى المبسوطة على المائدة، ثم وضع يده إلى جوارها، ورغم أنه لم يلمسها، فإنه كان بهذه الإيماءة يراودني عن نفسي لأول مرة. لم تفه بكلمة. نظرت إلى «أ». كان قد استدار إلى شخص ما يسأله: «ماذا لديك؟». وفكرت: لن أنسى هذه اللحظة مطلقا. يد «ب» ويدى متلامستان رغم أنهما غير متلامستين. ذهني، أطرافي، وعي، كلها تطير مثل أذهان وأطراف ووعى في حالة انفلات مرح. لعبوا طويلا، وقبل أن نفترق كتب إلى «ب» على ظهر ورقة: «هل تقابلينني غدا صباحا في الكنكو على طريق كنج؟ لابأس إذا لم تتمكني، لأني أذهب هناك على أية حال لأشحذ قريحتي». قرأتها، وراقبني وأنا أقرأها، ولم يكن أحدنا مدهوشا...

لا أسر بشئ لأحد، ليس غير هذه المفكرة التعسة. اليوم سأغسل الستائر، سبعة عشر زوجا منها، وأنشّي ماتحتاج منها إلى تنشية، وأكويها كلها ثم أعلقها من جديد وأكون متعبة للغاية بحيث لا أحتمل التفكير في الأمر...

سألني «ب»: «ماذا فعلت بالأمس؟»

قلت: «شممت رائحة السنط، ورأيت الأوراق تتطاير في رأسي،

بكافة الألوان، وعندما رقدت فى المساء، لم يكن بوسعى أن أطرد الأوراق والألوان من رأسى».

قال : «حلوة، فتاة حلوة». لابد أنه يظن الحياة معى ستكون شاعرية، بالأوراق التى تتطاير، والروائح والمشاعر، وألا يكون المرء مضطرا إلى تقطيع الجزر. هذا هو الإنطباع الذى أعطيه. لا شفاء لى...

أتأرجح بين السعادة وأقصى درجات اليأس. جشع، أكاذيب، إمساك، أكاذيب، ويمثل الحب جانبا ضئيلا وسط هذا كله. ترى كم هناك من أنواع الحب؟ كم شخصا من الذين أعرفهم قادر حقا على الحب؟

حدث ما كنت أعتقد طول الوقت أنه سيحدث. كنا سنلتقى فى البهو ولم يأت. وبعد ساعة وأكثر تقدمت من مكتب الاستقبال. سألت عما إذا كانت هناك رسالة لى. لاشئ. بعد ساعة أخرى عدت إلى البيت...

فى اليوم التالى، عندما لم يتصل بى، طلبته أنا. ردت على امرأة. وضعت السماعة. لابد أنه فهم. فقد طلبنى بعد قليل. أنكرت أنى حاولت الاتصال به. قال إن زوجته شعرت بالأمر وقالت إنه لو رآنى مرة أخرى فسينتهى كل شئ بينهما. قلت: «هذا لا يعقل». قال: «الناس هكذا.. يجب أن نكف عن اللقاء بضعة أسابيع». كان يبدو خائفا. قلت: «هل يمكن أن نلتقى مرة واحدة فقط». قال: «بعد أسابيع». هكذا إنتهى الأمر، بصورة عبثية...

يقول كامى: «لا آسف على شئ، وبهذا أعرف أنه كان حسناً.»

لست بآسفة. مازلت أحتفظ بذكرى شيئ حسن لكنه لم يكتمل. آمل أن يتصل بى. لن يفعل. بل إن الأمل فى هاتف منه غاض. وأصبحت أعزّى نفسى بأن هناك أياما يحتاجنى فيها، لكنه لا يملك

شيئا حيال ذلك...

أصنع كعكا. كعك مادبرا وحساء بارد. أظن أنى حامل. أميل إلى هذا الظن رغم مايتوفر من أدلة على العكس. عاد جيريمى من المدرسة. قلت: «لدينا كعكا بيتيا». وقال: «مذاقه بشع». خاب أملى فيه لأنه لم يحب الكعك ثم خاب أملى فى نفسى لأنى عولت على هذه السخافة: أن يحسّن الكعك من صورتى فى عينى إبنى. لديه حسن الأدراك أكثر مما لدى. يريدنى سعيدة، ولا يعبأ أبدا بالكعك البيتى أو الملاءات النظيفة، فهو يريد أن يبقى فى عالمه الخيالى الخاص. يريد أخا. يا إلهى، اذا كنت حاملا فلابد من إختبار دم...

قرأت مرة ان سقوط كافة الرجال العظماء، والزعماء، والرجال الصغار، الذين سقطوا، كان جزءا من شخصياتهم. أنا أؤمن بذلك، كما يؤمن المرء عندما يثبت لنفسه شيئا. ليلة أمس بعد أن أطفأنا النور شرعت بالبكاء وقال «أ»: «هذا البكاء أصبح عادة لديك». قلت: «لقد انتهى الأمر تقريبا». قال: «ماذا؟» وأخبرته. رويت له الأمر مباشرة. قال: «لقد حدست». قلت: «لماذا لم تسألنى؟». قال: «لم أكن أود أن أعرفه». أدركت عندئذ أنى ما كان يجب أن أخبره، وإنى بذلك ضاعفت من سوء الموقف. فقد حقّرته. قال: «آمل ألا ألتقى به أبدا». قلت: «لماذا؟» (أسئلتى بلهاء). قال: «لأسباب واضحة». شهقت وعندئذ غادر الفراش وأضاء النور وتناول الكتب من فوق المنضدة المجاورة للفراش، وأخذ أيضا زجاجة الأسبيرين، وغادر الحجرة. وتبعته بملاءة. قدمتها إليه فى غرفة الضيوف. حاولت أن أعتذر فقال: «لاتفعلى!». كنت أعرف إن أفضل شئ هو أن أغادر الغرفة وأتركه بمفرده وأترك الأمر يصلح نفسه بنفسه، لكنى لم أستطع. ظللت واقفة أردد: آسفة، آسفة، آسفة، رغم إنى أعرف حماقة ذلك. لم أتمكن من الحركة. هذا الشلل، هذا الفشل لإرادتى فى أن تحرك جسدى، أرعبنى. ألقى بالملاءة خلفى.. فاستقرت على الأرض

فى كومة. لم أستطع جذبها معى. بالكاد قدرت أن أحمل نفسى. تساءلت ما إذا كان سيقتلنى...

لم يفعل. مازال فى حجرة الضيوف. أعتقد أن كل شئ سيكون على مايرام فى هذا الوقت من السنة المقبلة. إتصلت بواحدة تعرف «ب» وزوجته وسألتها: «هل تريهما؟». قالت: «إنهما لايقابلان أحداً، خوفاً من أن يفقد أحدهما الآخر». خطر لى أنه من المستحيل أن أكون قد عرفته ذات يوم، وأن أحدا لايعرف إنى عرفته، وأحببته، وتلقيت حبه. إنه سر سيأتى وقت- وسوف يأتى هذا الوقت- يتلاشى فى عالم الأحلام. مثل أبطال فيلم «العام الماضى فى مارينباد» لم أعد واثقة إذا كان شئ قد حدث فعلا، أو هو شئ قلت لنفسى إنه حدث كوسيلة لقضاء الوقت. ليس لدى شئ يخصه، لا ذكرى، ولا حتى إحدى رواياته تحمل توقيعه. أملك بالطبع إلتواء جسده فوق جسدى. لو كانت الأجساد كالأحجار، أو الخشب، أو أوانى السكر الفضية، لاحتفظ جسدى بكل علامات جسده، لكان جسدى مثل سطح مائدة، يحمل ويحتفظ بالدليل على كل ماجرى له...

عدم المعرفة هو أسوأ ما فى الأمر. لو أرسل ورقة أو برقية، أو أى شئ بكلمة واحدة: «إنتهينا»، لتحملت الأمر، لكنى مازلت أتعلق، مثل قطعة من صحيفة مبتلة متشبثة بسياج. التعلق بالأمل هو الذى يحطمنى. لو أمكننى أن أكف...

كونه كاتباً هو بالتأكيد ما دفعه لصحبتى. إنهم يمتصون الآخرين، ثم يضعونهم على الورق ويقضون عليهم بذلك قضاء مبرما...

مرة واحدة فقط سألنى عن «أ». وقلت: «إنه وحيد لا أصدقاء له». ما كان يجدر بى أن أقول ذلك...

كم أنا كئيبة...

جرحت نفسى على حافة علبة كمثرى من الصفيح، وتركت الجرح

يتعفن، وبذلك رفعت من شأن نفسى فى عيون أسرتى، وحقرّت من نفسى فى عينى...

كم أنا كئيبة...

طول اليوم كنت حزينة، رغم أنى ثملة...

ذهبت إلى المدرسة، المدرسة التى يتردد عليها طفله. كنا مرة نتناول الغذاء وقال انه يجب أن يذهب ليكون أمام باب المدرسة فى الثالثة والنصف. رافقته جانبا من الطريق ثم تواريت. كانت المدرسة فى منزل عادى بميدان، وعندما عدت أبحث عنها، لم أكن واثقة انى سأستدل عليها. لكن الأمر لم يكن صعبا. كان العنوان فى الخارج، منقوشا فوق لوحة نحاسية. وصلت فى الثالثة والنصف تماما، ومع ذلك لم يكن ثمة أثر لطفل واحد. ظللت واقفة وقلبى يخفق بسرعة. مرت خمس دقائق دون أن يظهر أى طفل. ثم فكرت: إنهم لا يخرجون قبل الثالثة والأربعين دقيقة مثل بقية المدارس. لكنه قال الثالثة والنصف بدافع الحرص. وكرهته بسبب كذبه. أول طفل ظهر عند الباب قد يكون طفله: أسمر، يفتقد إلى الشمس لأن بشرته تحمر بسهولة، وتصفر فى الطقس المعتم. استقل سيارة قادتها إمرأة. أطفال آخرون، أمهات، سيارات: انصرفتُ قبل أن يخرج الجميع. وبدا لى الأمر كله- ذهابى هناك- دليلا على فساد الذوق. لايمكننى أن أفعل هذا ثانية. الآمنون يثيرون حفيظتى، لكن الأغبياء مثلى يثيرونها أكثر...

بوسعى أن أجد عذرا ما- أن أرسل له هذا الهذر، وأؤكد ذلك بأمانة كاملة: يمكننى أن أفعل لو تأكدت أنه سيصله هو، وهو وحده. لكن إذا وقع فى يد شخص آخر يكون هذا غدراً. والغدر هو الشئ الوحيد فى نهاية الحب الذى يلغيه تماماً.. بشكل ما، الحب الذى يتغير أو يخبو، أو يتلاشى، طبيعى، أما الحب الذى ينتهى بالغدر فلا تعود له فى الذهن أية علاقة بالحب على الإطلاق...

روعة. عاد جيريمي من المدرسة وقلت: «أحدث اليوم شيء لطيف؟» قال: «أجل، أفلت أحد حيوانات الهامستر من صندوقه وأكل كل زخارف عيد الميلاد». انطلقنا نضحك. وفكرت فيما بعد أنها أول مرة منذ شهور تخطر ببالي فكرة لا علاقة لها ب «أ» أو «ب». قلت لنفسي: لتكن هذه أولى خطات كثيرة حرة، وتناولنا أنا وجيريمي الحلوى والشاي، وضحكنا. لا أطلب أن يكون اليوم مثل الأمس أو مثل الغد. أريد أن أعيش من أجل اللحظة، من أجل التجربة الخاصة التي لاتتكرر. قد تكون ضحكا، أو حبا أو ألما، أو لذة، أو أي شيء. أريد أن أكون حرة. لن أحقق هذا أبدا، لكن أحدا لايسعه أن يقول إني لم أحاول...

الكراسة الذهبية
للكاتبة الانجليزية
دوريس ليسنج
(١٩٦٢)

The Golden notebook
by
Doris Lessing
1962

والآن، اتخذت قرارها. كرّت عائدة إلى الفندق، في الناحية الأخرى من باريس، وحزمت حقائبها، وأبرقت إلى جوليا وإلى باتريشيا، ثم استقلت السيارة إلى المطار. كان هناك مقعد خال في طائرة التاسعة، أي بعد ثلاث ساعات. أطلّت متمهلة على مطعم المطار. وقرأت حزمة من المجلات النسائية الفرنسية بعناية، وهي تسجل الموضوعات والقصص التي قد تفيد باتريشيا. كانت تقوم بذلك بنصف عقلها بينما تفكر: «حسنا، علاج هذه الحالة هو العمل. سوف أكتب رواية جديدة. لكن المشكلة أني عندما كتبت روايتي السابقة لم أقل: سأكتب رواية. لقد وجدت نفسي أكتبها. حسنا، لابد أن أضع نفسي في الحالة الذهنية ذاتها، حالة الإستعداد الطليق أو الإنتظار السلبي. فربما وجدت نفسي، ذات يوم، أكتب. لكني، في الحقيقة، لم أعد أعبأ بذلك. لو أن بول قال: سأتزوجك بشرط ألا تكتبي حرفا واحدا بعد الان. يالهي، كنت فعلت! كنت مستعدة لشراء بول. لكن ذلك سيصبح خداعا مزدوجا. أنا لست سعيدة لأني فقدت شيئا من استقلالي، بعض حريتي. لكن حريتي لا علاقة لها بكتابة رواية، إنها تتعلق بموقفي من رجل، وهذا ماتبين كذبه، لأني صرت حطاما. كانت سعادتي مع بول أكثر أهمية من أي شئ آخر، فالى أين أدى هذا بي؟ ها أنا ذا وحيدة، خائفة من الوحدة، بلا حيلة، أهرب من مدينة مثيرة لأني لا أملك الطاقة المعنوية لأتلفن لأي واحد من إثني عشر انسانا يسرهم (أو على الأقل ربما) أن أفعل.

المرعب أنه عقب إنتهاء كل مرحلة من مراحل حياتى، لايتبقى منها أكثر مما يعرفه الجميع. وهو، فى هذه الحالة، أن عواطف النساء مازالت كما هى، لا تصلح إلا لنوع من المجتمعات لم يعد له وجود. عواطفى العميقة، الحقيقية، تتصل بعلاقتى برجل. رجل واحد. لكننى لا أعيش هذا النوع من الحياة، وأعرف قليلات يفعلن ذلك. ما أشعر به سخيف لا جدوى منه. دائما أنتهى إلى أن عواطفى الحقيقية غبية. يجدر بى أن أكون مثل الرجل، أهتم بعملى أكثر من إهتمامى بالناس. يجدر بى أن أضع عملى فى المحل الأول، وآخذ الرجال كما هم، أو أجد لنفسى واحدا عاديا مريحا، لأسباب تتعلق بالخبز والزبدة. لكنى لن أفعل، ليس بوسعى أن أكون هكذا.»

نادى الميكروفون على رقم الرحلة. وسارت «ايللا» مع الآخرين إلى الطائرة، واستقرت فى مقعدها بعد أن لاحظت أن المقعد المجاور لها قد شغلته امرأة، وتنفست لذلك الصعداء. لو حدث ذلك منذ خمس سنوات لشعرت بالأسف. واستعدت الطائرة للإقلاع. لكن خللا ما طرأ عليها. وسُئل الركاب أن يغادروا الطائرة حتى يتمكن العمال من إصلاح «عطب صغير فى المحرك». وعاد الركاب إلى المطعم حيث أعلن عاملوه عن تقديم وجبة من الطعام.

جلست «ايللا» بمفردها فى ركن، ضجرة متضايقة. كان الجميع صامتين يفكرون فى الحظ الحسن الذى كشف عن العطب فى الوقت المناسب. أكلوا جميعا، قضاء للوقت، وطلبوا شرابا، وجلسوا يتأملون، من النوافذ، الطائرة وقد أحاط بها العمال تحت الأضواء الساطعة.

ألفت نفسها فى قبضة شعور عرفت كنهه عندما تفحصته: وحدة. كما لو أن مساحة من الهواء البارد امتدت بينها وبين جموع الناس. كان للشعور برودة جسدية، عزلة جسدية. ووجدت نفسها تفكر فى بول من جديد. حتى بدا لها أمرا مستحيلاً ألا يظهر فجأة عند الباب

ويتقدم منها. كانت تشعر بالبرد المحيط بها يذوب من اقتناع قوى بانه سرعان ما يكون إلى جانبها. بذلت جهدا لتنتزع نفسها من هذا الوهم. فكرت فى رعب: «إذا لم أتمكن من إيقاف هذا الجنون، لن أصير نفسى مرة أخرى، لن أشفى أبداً». نجحت فى إبعاد صورة بول وشعرت بالفراغ البارد يتفتح من حولها ثانية، وداخل البرد/ العزلة جلست تقلب أكوام المجلات الفرنسية دون أن تفكر بشئ.

كان يجلس بالقرب منها رجل انهمك فى تصفح مجلات طبية. كان يبدو، للوهلة الأولى، أمريكياً. كان قصيرا، عريضا، يتوفر حيوية ونشاطا، ذا شعر مقصوص لامع مثل حذاء بنى اللون. وكان يجرع كؤوس عصير الفاكهة، الواحدة تلو الأخرى، دون أن يبدو عليه الاهتمام بالتأخير الذى أصاب الرحلة. إلتقت عيونهما، بعد أن تفقدا الطائرة القابعة فى الخارج، فقال بضحكة عالية: «يبدو أننا سنقضى الليلة كلها هنا»، وعاد إلى نشراته الطبية.

وفجأة تشب شجار بين العمال. كان أحدهم، وهو الرئيس على ما يبدو، يعنف الآخرين أو يشكو من شئ وهو يحرك ذراعيه ويهز كتفيه بشدة. فى البداية، ردوا على صياحه بصياح، ثم لجأوا إلى الصمت، وسرعان ما انسحبوا إلى المبنى الرئيسى، تاركين رئيسهم وحده أسفل الطائرة. ومالبث هذا أن هز كتفيه وتبعهم.

تبادل الامريكى وايللا النظرات من جديد. قال فى استمتاع واضح: «لست أعبأ بشئ.» ودعا الميكروفون الركاب إلى صعود الطائرة، فقاما اليها سوية. قالت ايللا: «لعله يجدر بنا أن نرفض الذهاب؟». فقال الأمريكى كاشفا عن أسنان سليمة شديدة البياض، بينما تدفق الحماس من عينيه الزرقاوين الطفوليتين: «لدى موعد صباح الغد». ولا بد أنه كان موعدا بالغ الأهمية حتى يستحق هذه المخاطرة بالموت. أما الآخرون، وأغلبهم شعر بما جرى بين العمال، فقد

عادوا في إستسلام إلى مقاعدهم، وهم يبذلون جهودهم للتظاهر بعدم المبالاة. بل إن مضيفة الطائرة، التي كانت تبدو في الظاهر هادئة، أوحت حركاتها بشئ من العصبية. وداخل الطائرة الساطع الضوء، جلس أربعون شخصا في قبضة الرعب، وهم يحاولون إخفاء مشاعرهم. كلهم، هكذا فكرت ايللا، عدا الأمريكي الذي إستقر إلي جوارها الآن، واستغرق في كتبه الطبية. أما هي فقد صعدت إلى الطائرة وكأنها تصعد إلى غرفة الإعدام. لكنها إذ فكرت في هزة الكتف التي صدرت عن رئيس العمال، ألفتها تجسد شعورها الخاص. وعندما شرعت الطائرة تئز، فكرت: «سوف أموت، محتمل جدا، وإني لمسرورة بذلك».

لم يكن هذا إكتشافا جديدا: «أنا منهكة للغاية، متعبة كلية، من الأساس، فإذا عرفت أني لم أعد بحاجة للإستمرار في الحياة، شعرت بالإرتياح. ياللغرابة! وكل هؤلاء، عدا هذا الشاب الفائر المتوثب قوة وحيوية، يخافون أن تتحطم الطائرة، ومع ذلك ولجوها جميعا طائعين. فلعلنا جميعا نطوى جوانحنا على الشعور نفسه».

تطلعت في فضول إلى بقية الركاب. واستوت الطائرة أخيرا في الجو فعلق الأمريكي مبتسما: «حسنا، لقد نجحنا». وعاد إلى القراءة. أغلقت عينيها وفكرت: «أنا مقتنعة تماما بأننا سنتحطم. أو على الأقل هناك فرصة كبيرة لذلك. ماذا يكون اذن من أمر ميشيل؟ لم أفكر حتى فيه. حسنا، سوف تعني به جوليا». كان خاطر ميشيل حافزا للحياة لم يستمر سوى لحظة، ثم فكرت: «أن تموت أم في حادث طائرة أمر محزن، لكنه غير مدمر. ليس مثل الإنتحار. غريب قولنا أننا نعطى الحياة للطفل، بينما هو الذي يعطى الحياة لأبويه عندما يقرر أحدهما أن يعيش لمجرد أن الإنتحار سيلحق الأذى بالطفل. ترى كم من الآباء والأمهات قرروا الإستمرار في الحياة، فقط، لأنهم أرادوا عدم الإساءة إلى أطفالهم؟ (كان النعاس يداعب جفونها الآن).. أشعر

كأنما ولدت بحمل من التعب حملته طول حياتي. الوقت الوحيد الذى لم أكن أجر فيه حملى الثقيل إلى أعلى التل، كان عندما كنت مع بول. كفانى من بول ومن الحب ومن نفسى. معجزة هى تلك العواطف التى نقع فى إسارها ولا نملك منها فكاكا، مهما رغبنا بذلك».

نامت ثم استيقظت لتجد الطائرة قد استقرت على الأرض، والأمريكى يهزها. كانت الساعة الواحدة صباحا. وكانت مخدرة، مثقلة بالتعب والبرد. وظل الأمريكى إلى جوارها، مرحا، قادرا، يومض وجهه المورد العريض بالصحة. ولم يكن من السهل العثور على سيارات أجرة فى ذلك الوقت من الليل، فدعاها إلى أن تشاركه سيارته.

قالت وهى تحاول أن تجعل صوتها يبدو مرحا كصوته: «ظننت أننا ستلقى حتفنا». ضحك مبرزا كل أسنانه: «أجل. كان الأمر يبدو كذلك. عندما رأيت ذلك الرجل يهز كتفيه بجوار الطائرة قلت لنفسى: ياللهول! لقد حلت النهاية. أين تقيمين؟»

ذكرت له أين تسكن ثم أضافت: «لديك مكان تذهب إليه؟» قال: «سأجد لنفسى فندقا». قالت: «فى هذا الوقت من الليل لن يكون الأمر سهلا. بودى أن أعرض عليك المجئ معى لكنى لا أملك سوى حجرتين ينام ابنى فى إحداهما». قال: «هذا جميل منك، كلا، لست قلقا». كان الفجر على أهبة البزوغ، ولم يكن لديه مكان للنوم، ومع ذلك كان يتوثب حيوية ويبدو منتعشا كأنه فى بداية الليل.

أنزلها أمام منزلها قائلا أنه يسعده أن تتناول معه طعام العشاء. ترددت ثم وافقت. سيتقابلان إذن فى المساء التالى أو على الأصح مساء اليوم نفسه. صعدت إلى مسكنها وهى تفكر فى أنهما لن يجدا حديثا يتبادلانه وبدأت فكرة الأمسية القادمة تثير ضجرها. ألفت إبنها نائما فى حجرة أشبه بكهف حيوان صغير، فقد كانت تنبعث

منها رائحة النوم الصحى. سوّت الأغطية من فوقه، وجلست ترقب الوجه المتورد الصغير فى ضوء الفجر. فكرت: إنه من طراز أمريكى. لكن الأمريكى يثير نفورى جسديا. ومع ذلك لا أكرهه.

مضت إلى فراشها، ولأول مرة منذ ليال كثيرة لم تستجلب ذكرى بول. كانت تفكر فى أربعين شخصا، اعتبروا أنفسهم فى عداد الموتى، يرقدون الآن أحياء فى أنحاء مختلفة من المدينة.

أيقظها إبنها بعد ساعتين متوهجا بمفاجأة عودتها. كانت ماتزال فى عطلتها لهذا لم تغادر المنزل إلى المكتب، وقضت اليوم بمفردها تنظف وتطبخ وتعيد ترتيب المسكن وتلعب مع الصبى عندما عاد من المدرسة. وفى المساء إتصل بها الأمريكى، الذى تبين أنه يدعى «ساى ميتلاند»، ليسألها عن المكان الذى تحب أن تتناول العشاء فيه.
ذكرت له إسم مطعم.. ثم وضعت جانبا الرداء الذى اختارته من قبل للمساء. وكان ثوبا من طراز جرئ لم تكن تجرؤ على ارتدائه مع بول، وصارت ترتديه منذ ذلك الحين فى تحد. ارتدت الآن جوبة وبلوزة. وراعت أن تبدو فى صحة جيدة وليس كامرأة ذات شخصية.

كان ميشيل جالسا فى فراشه وسط المجلات المصورة: «لماذا تخرجين وقد عدت للتو من الخارج؟». أجابته مبتسمة: «لأنى أود ذلك». كان يجلس منتصبا متورد الوجنتين، شديد الثقه بفسه وعالمه فى هذا المنزل. «لماذا عدلت عن الثوب الذى اخترته أول الأمر؟». أجابته: «قررت أن أرتدى هذا بدلا منه». قال إبن التاسعة فى عظمة: «يا للنساء وملابسهن!»

وجدت ساى ميتلاند فى انتظارها بالمطعم، منتعشا، متوثبا حيوية، لايشوب عينيه الزرقاوين الصافيتين أثر من عدم النوم. شعرت وهى تجلس إلى جواره بالتعب: «ألا يغلبك النعاس أبدا؟». قال على الفور بلهجة المنتصر: «لا أنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات فى

الليلة». «لماذا؟». «لأنى لن أبلغ ما أريد إذا أضعت الوقت فى النوم». قالت: «حدثنى عن نفسك ثم أحدثك عن نفسى». قال: «هذا حسن». وطلب أكبر قطعة ستيك فى المحل مع كوكاكولا وعصير طماطم، وعزف عن البطاطس لأنه يريد أن يفقد جانبا من وزنه. سألته: «ألا تشرب الخمر أبدا؟». «أبدا، عصير الفاكهة فقط». قالت: «أخشى أنك ستأمر لى بنبيذ». «بسرور». وطلب زجاجة من أفضل الأنواع. «الآن إلىّ بقصة حياتك».

ولد فقيرا لكنه كان يتميز بالذكاء فحملته المنح الدراسية والجوائز إلى حيث أراد. جراح للمخ وزواج ممتاز وخمس أطفال. مركز ومستقبل عظيمان، قالها بنفسه. وكان زهوه بنفسه بسيطا طبيعيا بالنسبة إليه حتى بدا أبعد مايكون عن الزهو. وسرعان ما انتقلت حيويته إلى ايللا فنسيت أنها متعبة. وعندما قال أن الوقت قد حان لتحدثه عن نفسها، أجلت ما أدركت الآن أنه سيكون محنة. لسبب واحد. فقد خطر لها إن حياتها لايمكن وصفها بسلسلة متتابعة من البيانات: كان أبواى كذا وكذا، عشت فى هذا المكان وذاك، أعمل كذا وكذا. سبب آخر: أدركت أنها مالت إليه، وأزعجها هذا الاكتشاف. فعندما وضع يده البيضاء الكبيرة على ساعدها، شعرت بنهديها يرتفعان وابتل فخذاها. لم يكن بينهما شئ مشترك، ولم يكن بوسعها أن تتذكر مرة واحدة فى حياتها، شعرت فيها باستجابة جسدية لرجل لم يكن قريبا إليها بصورة ما. كانت تستجيب دائما لنظرة، لابتسامة، لنغمة صوت، لضحكة. أما هذا الرجل فلم يكن غير متوحش ذى صحة جيدة وها هى ترغب فى مشاركته الفراش. شعرت بالضيق، مثلما كان شعورها عندما كان زوجها يحاول إثارتها على الرغم منها، بالمداعبات الجسدية، مما انتهى بها إلى البرود.

قال الأمريكى: «لدى اقتراح. أمامى نحو عشرين مكالمة هاتفية، وأريد أن أقوم بها من فندقى. تعالى معى. سأقدم لك شرابا،

وعندما أنتهى من مكالمتى، تحدثينى عن نفسك.» وافقت ثم تساءلت عما إذا كان سيفسر هذا القبول، بأنه استعداد للذهاب معه إلى الفراش. لم يبد عليه شئ من ملامح هذا الشعور. وخطر لها فجأة أنها، على غير عادتها مع الرجال الذين تلتقى بهم فى عالمها، لم يكن بوسعها أن تحدس مايدور فى ذهن هذا الرجل. وإذا كان هذا شأنها، فلابد أنه بالمثل لا يعرف شيئا عنها، لايعرف مثلا أن حلمتى ثدييها، فى هذه اللحظة، ملتهبتان.

فى غرفته بالفندق، قدم لها كأسا من الويسكى ثم جذب الهاتف إليه وأجرى، كما ذكر من قبل، نحو عشرين مكالمة، وهى عملية استغرقت نصف ساعة. وسمعته يرتبط بعشرة مواعيد على الأقل فى الغد، تضم أربع زيارات لمستشفيات لندن المعروفة. وعندما انتهى أخذ يذرع الغرفة فى توثب ويهتف: «ياللمجد! أشعر بأنى فى أحسن حال!».

سألته: «لو لم أكن هنا، ماذا كنت تفعل؟» أجاب: «أعمل». كان ثمة كوم كبير من المجلات الطبية إلى جوار الفراش. «هل تقرأ شيئا خارج مجال عملك؟» ضحك وقال: «كلا. زوجتى هى التى تهتم بالثقافة. أما أنا فلا وقت لدى». «حدثنى عنها». فأخرج على الفور صورة لشقراء جميلة ذات وجه طفولى محاطة بخمس أطفال: «يالهى! أليست جميلة؟ إنها أجمل فتاة فى المدينة كلها!». «أهذا هو سبب زواجك منها؟». «بالطبع» ثم تبين لهجة سؤالها فضحك معها من نفسه وقال وهو يهز رأسه كأنما يعجب لنفسه: «بالطبع! قلت لنفسى سأتزوج أجمل وأرقى فتاة فى البلدة وقد فعلت». سألته: «هل أنت سعيد؟» أجاب على الفور بحماس: «إنها فتاة عظيمة. ولدينا خمس أطفال. كنت أود لو كانت لدى طفلة، لكن الأولاد ممتازون. أتمنى لو أتيح لى مزيد من الوقت أقضيه معهم، فعندما أفعل أشعر بالسعادة».

كانت تفكر: لو وقفت الآن وقلت أنى ذاهبة، لوافقنى دون أن يحمل أية ضغينة. ربما أراه مرة أخرى. وربما لا. فلن يعبأ أحدنا. لكن يجب أن أتولى القيادة الآن لأنه لايعرف ماذا يفعل بى. يجدر بى الذهاب.. لكن لماذا؟ بالأمس فقط قررت أنه مما يدعو للسخرية أن تنطوى جوانح نساء مثلى على عواطف لاتتلائم مع نوع الحياة التى يعشنها. لو رجل فى الموقف الراهن، ذلك النوع من الرجال الذى أود أن أكونه لو كنت ولدت رجلا، فانه سيأوى إلى الفراش ولا يفكر فى الأمر.

كان يقول: «والآن يا ايللا، لقد تحدثت عن نفسى، وأشهد أنك تجيدين الإنصات. لكنى لا أعرف شيئا عنك مطلقا».

الآن، فكرت ايللا، الآن.

لكنها ناورت: «هل تعرف أن الوقت تجاوز الثانية عشرة؟»

«كلا. أحقاً؟ أمر سئ. فلست أذهب إلى الفراش قبل الثالثة أو الرابعة وأقوم فى السابعة. كل يوم هكذا».

الآن. المضحك أن يكون الأمر عسيرا هكذا. أن تقول ما قالته الآن كان ضد أعمق غرائزها، ودهشت عندما خرجت الكلمات من فمها، كأنما جاءت بوحى من الصدفة فى الظاهر، وإن كانت تشى بقليل من التوتر:

«أتحب أن تنام معى؟»

نظر إليها مبتسما. لم يدهش. كان مهتما. أجل، فكرت ايللا أنه مهتم. وأحبت هذا فيه. وفجأة دفع رأسه الكبير، المفعم صحة، إلى الوراء وهتف: «ياللهول!، أحب؟ أجل ياسيدتى، ايللا. لو لم تقولى هذا ما كنت أعرف ماذا أقول».

قالت: «أعرف»، وابتسمت متظاهرة بالرصانة (كان بامكانها

أن تتمثل ابتسامتها المتحفظة، وتعجبت منها). قالت برصانة: «أظن ياسيدى أنك يجب أن تفعل شيئا الآن».

ابتسم. كان يقف أمامها، عبر الغرفة. وبدا لها كتلة من اللحم، جسدا من اللحم الدافئ، الوفير، المفعم بالحيوية. حسنا جدا إذن، هذا ماسيكون. (كانت ايللا قد انفصلت عن ايللا، وانتحت جانبا، ترقب وتتعجب).

نهضت واقفة وهى تبتسم، وشرعت تنزع رداءها بينما خلع هو، مبتسما، سترته، ثم تجرد من قميصه.

فى الفراش، كانت صدمة بهيجة من اللحم الدافئ المتوتر (كانت ايللا تقف جانبا وهى تفكر بسخرية: حسنا، حسنا!!). اخترقها على الفور وتلاشى بعد ثوان. وأوشكت أن تهوّن عليه، عندما اعتدل فوق ظهره وهو يطوح بذراعيه إلى أعلى ويهتف: «يا للمجد!»

(فى هذه اللحظة أصبحت ايللا ونفسها شخصاً واحداً، يفكر كلاهما كواحد).

رقدت إلى جواره مبتسمة وهى تحاول السيطرة على إحباطها الجسدى.

قال: «أوه! ياللمجد! هذا هو ما أفضله. فليس ثمة مشاكل معك».

فكرت ببطء فى معنى عبارته، وذراعاها تحيطان به. ثم انطلق يتحدث عن زوجته: «هل تعرفين أننا نذهب إلى النادى ونرقص مرتين أو ثلاث فى الأسبوع. انه أفضل نادى فى البلدة. ويتطلع إلىّ كل الرجال وهم يفكرون: ياللوغد السعيد! إنها أجمل فتاة هناك، برغم الأطفال الخمسة. إنهم يظنون أننا نقضى وقتا حافلا. وكثيرا ما أفكر: ماذا لو ذكرت لهم الحقيقة؟ لدينا خمسة أطفال. وقد فعلناها خمس مرات منذ زواجنا. حسنا، اننى أبالغ قليلا، لكن هذا هو الواقع فهى

لاتعبأ بهذه المسألة رغم أنها تبدو على عكس ذلك».

سألت ليللا فى رصانة: «ماهى المشكلة؟»

«ليتنى أعرف. قبل الزواج، عندما كنا نتواعد، كانت متوقدة بما فيه الكفاية. أوه، يا الهى، عندما أفكر بذلك».

«كم إستمرت فترة التواعد هذه؟»

«ثلاث سنوات. ثم استمرت خطبتنا أربع أخرى».

«ولم تمارسا الحب خلال ذلك؟»

«نمارس الحب.. أوه، فهمت. كلا، لم تكن لتمسح لى، وما كنت لأريدها أن تفعل. لكنها كانت ملتهبة فى ذلك الوقت. ومن شهر العسل تجمدت. والآن لا ألمسها قط. حسنا، أحيانا إذا ما أكثرنا الشراب فى إحدى الحفلات». وأطلق ضحكته الفتية القوية وهو يقذف ساقيه الكبيرتين الداكنتين إلى أعلى ثم يتركهما تسقطان: «ونذهب لنرقص وقد تزينت لتصرع. وكل الرجال ينظرون إليها ويحسدوننى. وأفكر: لو يعرفون!»

«ألا تعبأ بالأمر؟»

«ياللجحيم، بالطبع. لكنى لن أفرض نفسى على أحد. وهذا هو ما يعجبنى فيك. تقولين: لنذهب إلى الفراش. هذا لطيف وسهل».

رقدت إلى جواره مبتسمة. كان جسده الكبير الفائر ينبض بالصحة والرضى. قال: «انتظرى قليلا. سأقوم بجولة أخرى. أظن أنى أفتقد شيئاً من المران».

«أكانت هناك نساء أخريات؟»

«أحياناً، عندما تتاح لى فرصة. لست أطارد أية واحدة. ليس لدى الوقت».

«مشغول بتحقيق أهدافك؟»

«تماماً»

مد يده وأخذ يتحسس نفسه.

«تحب أن أفعل أنا ذلك؟»

«ماذا؟ ألا يسوؤك هذا؟»

قالت مبتسمة وهي تعتدل على مرفقها: «يسوؤني؟»

«ياللجحيم، زوجتي لاترضى بلمسي. النساء لايحببن ذلك».
وانفجر ضاحكا مرة أخرى: «لايسوؤك الأمر إذن؟»

بعد لحظة شرع وجهه يتغير ويكسوه تعبير من الخسية المتعجبة: «يا للجحيم! يا للمجد!»

قالت أخيراً: «والآن لاتكن متعجلاً».

قطب مفكرا، وكان بوسعها أن تدرك أنه يتدبر عبارتها. حسنا، إنه ليس غبيا. لكنها كانت تتساءل عن زوجته وعن النساء الأخريات اللاتي نام معهن. وعندما جاءها كانت تفكر: لم أفعل هذا من قبل أبدا.. أنا أعطي اللذة. أمر شديد الغرابة، فلم يسبق لي أن استخدمت هذا التعبير أو فكرت به. مع بول كنت أقع في الظلمة وأكف عن التفكير. جوهر الأمر اني واعية، ماهرة، وحريصة: أني أعطي اللذة. لاعلاقة بين ذلك وما كان بيني وبين بول. لكني في الفراش مع هذا الرجل.

تحرك بسرعة ودون حذق، وللمرة الثانية لم تأت، بينما كان هو يزأر مسرورا، ويقبلها هاتفا: «أوه! يا للمجد!، يا للمجد!»

كانت تفكر: مع بول، كان الأمر سيحدث في هذه اللحظة. إذن أين الخطأ؟ لايكفي أن أقول إني لا أحب هذا الرجل. وأدركت فجأة أنها لن تأتي أبدا معه. فكرتْ: «بالنسبة إلى أمثالي من النساء، ليس الكمال في العفة والإخلاص، أو أي من تلك الكلمات القديمة.

الكمال هو الأورجازم. إنه شئ لا أملك عليه أية سيطرة. ولن يحدث أبدا مع هذا الرجل. كل مايسعنى هو أن أعطيه اللذة. لكن لماذا؟ ألن أستمتع أبدا إلا مع من أحب؟ ما أقسى الصحراء التى أحكم بها على نفسى لو كان هذا صحيحا».

كان سعيداً بها للغاية، كريما فى التعبير عن تقديره، يشع رضى، وصحة. وكانت هى مسرورة من نفسها لأنها أسعدته.

وعندما ارتدت ملابسها لتنصرف إلى منزلها، وتلفتت من أجل سيارة أجرة، قال: «ترى، كيف يكون الزواج من واحدة مثلك.. ياللجحيم!»

قالت فى رزانة: «ستحب ذلك؟»

«سيكون الأمر.. ياللمجد! امرأة يمكن الحديث إليها، والإستمتاع معها فى الفراش أيضا..لايمكننى أن أتخيل روعة ذلك».

«ألا تتحدث إلى زوجتك؟»

قال مترويا: «إنها فتاة ممتازة. أنا أعزها للغاية هى و الأطفال».

«هل هى سعيدة؟»

فاجأه السؤال، فاعتمد على مرفقه ليتدبر الاجابة. وتطلع إليها مقطباً فى جدية. وألفت نفسها تشعر نحوه بمودة بالغة. جلست على حافة الفراش وهى تتأمله فى مودة. قال، بعد تفكير: «لديها أفضل منزل فى البلدة. وكل ما طلبته من أجل المنزل. ولديها خمسة من الصبية. أعرف أنها ترغب فى فتاة، لكن ربما يتحقق هذا المرة القادمة... وهى تقضى وقتا طيبا معى.. فنخرج للرقص مرة أو إثنين فى الأسبوع، وهى دائما الألمع والأبرز بين الفتيات أينما ذهبنا. ثم لديها أنا. وأنا أقول لك يا ايللا.. لست أتفاخر (أرى من ابتسامتك أنك تظنين هذا) لكن لديها رجلا ناجحا بمعنى الكلمة.»

ورفع صورة زوجته من مكانها إلى جوار الفراش وقال: «هل تبدو إمراة غير سعيدة؟».

نظرت ايللا إلى الوجه الدقيق الجميل وقالت: «كلا». ثم أضافت: «لم يعد بوسعى أن أفهم امرأة مثل زوجتك».

«فعلاً، لا أظن هذا بإمكانك».

كانت سيارة الأجرة في الإنتظار، فقبلته وانصرفت بعد أن قال: «سأتلفن لك غدا. فلابد أن أراك ثانية».

وقضت ايللا المساء التالى معه. ليس بدافع الأمل فى أية متعة، وإنما بدافع من شعورها بالمودة نحوه. وبالإضافة إلى ذلك، فقد شعرت بأنها لو رفضت لقاءه، فإن ذلك سيؤذى مشاعره.

تناولا العشاء في المطعم نفسه. (قال لها فى عاطفية: «مطعمنا يا ايلا»، كما لو كان يقول: «أغنيتنا يا ايللا»).

تحدثا عن عمله.

«وعندما تجتاز كل الفحوص وتحضر كل المؤتمرات، ماذا بعد ذلك؟»

«سأرشح نفسى لعضوية الكونجرس».

«ولم لا ترشح نفسك للرئاسة؟»

ضحك معها، من نفسه، بروح طيبة، كدأبه. «كلا، رئيس لا. سناتور، أجل. أقول لك ياايللا: إنتبهى لإسمى. ستجدينه بعد خمسة عشر عاما على رأس مهنتى. لقد قمت بكل ماقلت أنى سأقوم به حتى الآن، أليس كذلك؟ ولهذا أعرف ما سأفعله فى المستقبل. السناتور ساى ميتلاند.. تراهنين؟»

«لست أراهن أبدا عندما أعلم أنى سأخسر».

كان عائداً إلى الولايات المتحدة فى اليوم التالى بعد أن قابل

دستة من كبار الأطباء في مجاله، وشاهد دستة من المستشفيات، واشترك في أربعة مؤتمرات. لقد إنتهى من انجلترا.

قال: «أود لو أذهب إلى روسيا. لكني لا أستطيع، بسبب الأوضاع الراهنة».

«تعني مكارثي؟»

«سمعت عنه إذن؟».

«أجل، سمعنا عنه».

«هؤلاء الروس، إنهم متقدمون للغاية في مجالي، أنا أتابع مايكتبونه، ولست أمانع في رحلة، لكن ليس في الظروف الراهنة».

«موقفي؟ أتمزحين؟»

«أبدا».

«عندما تصبح في الكونجرس، ماذا سيكون موقفك من مكارثي؟»

«موقفي.. حسنا، إنه على صواب، فلا يمكن أن نسمح للشيوعيين بالإستيلاء على السلطة».

ترددت ثم قالت برصانة: «المرأة التي تشاركني المنزل شيوعية».

شعرت به يتصلب، ثم يفكر، وعندئذ لان. قال: «أعرف أن الأمور مختلفة هنا. ولست أفهم ذلك».

«لا أهمية للأمر».

«كلا. أتأتين معي إلى الفندق؟»

«إذا أنت أحببت».

«اذا أنا أحببت!».

ومرة أخرى أعطت اللذة. كانت تستلطفه، ولاشئ غير هذا.

تحدثا عن عمله. كان متخصصاً في جراحة إستئصال الجزء المسئول عن الشعور في المخ: «لقد شققت مئات الأمخاخ إلى نصفين!»

«ولا يزعجك هذا، ماتفعله؟»

«ولماذا يزعجني؟»

«لكنك تعلم عندما تنتهي هذه الجراحة أنها نهائية. وأن أصحابها لن يعودوا أبدا كما كانوا من قبل».

«لكن هذه هي النقطة. فأغلب هؤلاء الناس لا يريدون أن يعودوا كما كانوا من قبل». ثم، بدافع من روح الإنصاف التي يتميز بها، أضاف: «أعترف باني أنزعج أحيانا لهذه الفكرة».

قالت ايللا: «لن يوافقك الروس على ماتفعل مطلقاً».

«ولهذا لا أمانع في القيام برحلة إلى هناك، لأرى ما يفعلونه بدلا من هذه الجراحة. قولي لي، كيف عرفت بشأنها؟»

«كانت لي مرة علاقة عاطفية بطبيب نفسي. وكان متخصصا أيضا في الأمراض العصبية. لكنه لم يكن جراح مخ. وقد ذكر لي أنه لايوصي بتلك الجراحة إلا نادرا جدا».

قال فجأة: «منذ أن قلت لك انى متخصص في تلك الجراحة لم تعودي تستلطفينني كثيرا».

قالت بعد لحظة: «لا . لكن لا حيلة لي في ذلك».

فضحك وقال : «طيب، أنا أيضا لا حيلة لي في الأمر». ثم قال: «تقولين: كانت لي مرة علاقة عاطفية، هكذا ببساطة؟ هل أحببته؟»

لم تكن كلمة الحب قد إستخدمت بينهما من قبل، ولم يستخدمها عندما تحدث عن زوجته.

قالت: «جدا».

«ولم ترغبي في الزواج؟»

قالت برصانة: «كل إمرأة ترغب في الزواج».

أطلق عاصفة من الضحك ثم تحول إليها مفكرا: «أتعرفين أني لا أفهمك؟ لا أفهمك على الإطلاق. لكني أدرك أنك من النوع المستقل تماما».

«أجل، أعتقد كذلك».

عندئذ أحاطها بذراعيه وقال: «ايللا، لقد علمتني أشياء»

«يسرني هذا. آمل أن تكون أشياء سارة».

«أجل، كانت كذلك أيضاً».

«جيد».

«أتسخرين مني؟»

«قليلاً».

« لا بأس، فلست أبالي. أتعرفين أني ذكرت إسمك اليوم لأحد الأشخاص وقال أنك كتبت كتابا؟»

«كل إنسان كتب كتابا».

«إذا ذكرت لزوجتي أني قابلت كاتبة حقيقية، لن تتحمل الصدمة، فهي مجنونة بالثقافة وكل هذه الأمور».

«ربما يحسن ألا تخبرها».

«ما رأيك لو قرأت كتابك؟»

«لكنك لاتقرأ كتباً».

قال مداعباً: «بوسعي أن أفعل: ماذا يتناول؟»

«.. دعني أرى.. إنه يتحدث عن نفاذ البصيرة، والكمال، وعدة أشياء أخرى».

«أراك لا تأخذينه بجدية».

«بالطبع آخذه بجدية».

«أوكى إذن. أوكى. لايمكن أن تكونى ذاهبة؟»

«يجب أن أنصرف، فسوف يستيقظ إبنى بعد أربع ساعات، كما أنى، على العكس منك، أحتاج إلى النوم».

«حسنا، لن أنساك أبداً يا ايللا. إنى لأعجب، كيف يكون الزواج منك».

«لدى شعور أنك لن تحب هذا كثيرا».

كانت ترتدي ملابسها، بينما رقد هو على الفراش يرقبها مفكرا. ثم ضحك وبسط ذراعيه: «لعلك على حق».

قالت: «أجل».

وافترقا فى ود.

مضت إلى منزلها فى سيارة أجرة، وصعدت السلم فى حذر كى لا تزعج جوليا. لكن الضوء كان يتسلل من أسفل بابها، وسرعان مانادتها: «ايللا؟»

«أجل. كيف كان ميشيل؟»

«لم أسمع له صوتا. كيف كان الأمر معك؟»

أجابت ايللا عامدة: «لابأس».

«لابأس؟»

ولجت ايللا المخدع. كانت جوليا مكومة فوق الوسائد، تدخن وتقرأ. وتأملت ايللا فى إمعان.

قالت ايللا: «كان لطيفا للغاية».

«هذا حسن».

«وسأشعر باكتئاب شديد فى الصباح. الواقع انى أشعر بذلك من الآن».

«لأنه عائد إلى أمريكا؟»

«لا».

«شكلك فظيع. ماذا حدث، ألم يكن موفقا فى الفراش؟»

«ليس كثيرا».

«أوه. هل لك فى سيجارة؟»

«كلا. سأذهب لأنام قبل ان تحل بى الكآبة».

«لقد أصابتك بالفعل. لماذا تذهبين إلى الفراش مع رجل لا تميلين إليه؟»

«لم أقل أنى لم أمل إليه. الفكرة أنه لافائدة من ذهابى إلى الفراش مع أحد غير بول».

«سوف تتغلبين على ذلك».

«أجل، بالطبع. لكن ذلك يستغرق وقتا طويلا».

قالت جوليا: «يجب أن تصمدى».

قالت ايللا: «هذا ما أنتويه». وألقت عليها تحية المساء ثم صعدت الى جناحها.

جامعة الكنوز
للكاتبة الأفريقية
بيسى هيد
(١٩٧٧)

The Collector of treasures

by

Bessie Head

(1977)

كان سجن الدولة المركزى، المخصص للعقوبات الطويلة، فى جنوب البلاد، على مسافة يوم سفر كامل من قرى الجزء الشمالى. غادروا قرية بولنج فى التاسعة صباحا، وظلت شاحنة الشرطة تهدر طول اليوم، وهى تسرع جنوبا فوق الطريق الواسع المترب الذى يربط طرفى البلاد. وعبر شبكة السلك التى غطى الباب الخلفى للشاحنة، بدا العالم اليومى المؤلف من الحقول المحروثة، والماشية الراعية، والمساحات الشاسعة من الآكام والغابات، لامباليا لعيون السجينة الجوعى. وكأنها بلغت فجأة قرار الشعور بالألم والوحدة، فقد تهاوت ببطء إلى الأمام، دون أن تعى بغير ألمها. وغربت الشمس، ثم حل الغسق، وتبعته الظلمة، وما زالت الشاحنة تهدر غير مبالية.

فى البداية، تجلى الوهج البرتقالى لأضواء بلدة الأستقلال الجديدة جابوروني، شاحبا فى الأفق، مثل شبح مدهش فى الظلمة الماحقة للآكام، إلى أن بلغت الشاحنة طرقا مرصوفة، وأضواء نيون، ودكاكين، ودور سينما، فغرق الشبح فى الضوء الوهاج. كل هذا مر دون أن تشعر بما استغرقه من زمن، ودون أن تتبعه، ولم تتحرك عندما توقفت الشاحنة أخيرا خارج بوابة السجن.

لطم ضوء الكشاف جانب وجهها مثل ضربة مؤلمة. وظن الحارس أنها نائمة، فناداها فى حدة: «استيقظى. لقد وصلنا».

صارع القفل فى الظلام، ثم جذب الباب السلكى. وزحفت خارجة

وهى تتألم فى صمت.

صعدا سويا بضع درجات، وانتظرا حتى طرق أحدهم برفق فوق الباب الحديدى الثقيل. انفرج الباب عن ثغرة ضيقة أطل منها الحارس الليلى ثم اتسعت الثغرة لتسمح لهما بالولوج. وقادهما الحارس الليلى إلى مكتب صغير، ونظر إلى زميله متسائلا: «ماذا لدينا اليوم؟»

أجاب الآخر فى غير مبالاة وهو يناوله ملفاً: «إنها قضية مقتل الزوج فى قرية بولنج».

أخذ الحارس الملف وجلس إلى مائدة تحمل دفتراً كبيراً مفتوحاً. وفى خط كبير سجل التفاصيل: ديكيليدى موكوبى. التهمة: ذبح رجل. العقوبة: مدى الحياة. وظهرت حارسة ليلية فقادت السجينة إلى غرفة جانبية، وطلبت منها أن تخلع ملابسها.

سألتها وهى تناولها رداءً قطنيا أخضر اللون، هو بذلة السجن: «معك نقود؟»

فهزت السجينة رأسها نفيا دون أن تنبس بحرف.

قالت الحارسة فى شئ من التفكه: «إذن قتلت زوجك؟ ستجدين نفسك فى صحبة طيبة. فلدينا أربع أخريات بنفس الجريمة. أضحت مودة هذه الأيام. تعالى معى». وقادتها فى دهليز، ثم اتجهت يسارا، وتوقفت أمام بوابة حديدية فتحتها بمفتاح، وانتظرت حتى تقدمتها السجينة، ثم أغلقت الباب بالمفتاح مرة أخرى. ولجتا فناء صغيرا ذا جدران بالغة الارتفاع، اصطفت فى ناحية منه عدة مراحيض وأدشاش ودولاب. مضت الحارسة إلى الدولاب، فاستخرجت منه لفافة سميكة من البطاطين التى تنبعث منها رائحة النظافة، ناولتها للسجينة. وكان ثمة باب حديدى ثقيل فى طرف الفناء المسوّر، يؤدى إلى زنزانة. مضت الحارسة إلى هذا الباب، وطرقته بصوت مرتفع وهى تصيح: «الشمعة يامسجونات».

رد صوت من الداخل: «طيب». وتردد صوت احتكاك الثقاب. أولجت الحارسة مفتاحها من جديد، ففتحت الباب، وقفت تتابع السجينة وهي تبسط بطاطينها على الأرض. وكانت السجينات الأربع المحتجزات في الزنزانة قد اعتدلن جالسات، وأخذن يحدقن صامتات في رفيقتهن الجديدة. وعندما أغلق الباب، وجهن إليها التحية بهدوء وسألتها إحداهن: «من أين جئت؟»

أجابت الوافدة الجديدة: «بولنج». اكتفت النسوة بهذه الإجابة الموجزة، فأطفأن النور، ورقدن ليواصلن النوم. وكأنما بلغت السجينة الجديدة نهاية رحلتها، فقد استغرقت أيضا في نوم عميق بمجرد أن سوت البطاطين من حولها.

دق جرس الإفطار في السادسة من صباح اليوم التالي. وأقبلت النسوة على روتينهن اليومي. فنفضن البطاطين، ثم طوينها وصففنها في أكوام مرتبة. وصلصل مفتاح حارسة النهار في القفل، وسرعان ما أطلقت السجينات إلى فناء أسمنتي صغير ليقمن بطقوس الإغتسال الصباحية. ثم ظهر سجينان عند البوابة، ترافقهما جلبة مايحملان من دلاء وصحون. وقدم الرجلان لكل امرأة صحنا من العصيدة وكوبا من الشاي الأسود، فاقتعدن الأرض الأسمنتية، وأقبلن على الأكل.

والتفت إحداهن، المتحدثة باسم المجموعة، إلى رفيقتهن الجديدة، وقالت لها في رقة: «خذي بالك! فالشاي بدون سكر. ونحن نتحايل على ذلك بأن نكشط السكر من فوق العصيدة ونضعه في الشاي».

رفعت المرأة، ديكيليدي، رأسها وابتسمت. كان الرعب الذي ساورها في انتظار المحاكمة، قد جعلها أقرب إلى الهيكل العظمي. وكان جلد وجنتيها يحدث صريراً من جراء ماهو مشدود.

ابتسمت المرأة الأخرى كدأبها. كان وجهها يحمل دائما تعبيرا ساخرا من التفكه الغريب. وكان لها جسد ممتلئ ريان. قدمت نفسها

ورفيقاتها: «اسمى كيبونى. وهذه أوتستسوى، والأخرى جاليبوى ثم مونوانا. وأنت ما اسمك؟»

«ديكيديلى موكوبى».

قالت كيبونى: «ولماذا هذا الاسم المأساوى؟ لماذا أسماك أبواك بالدموع؟»

قالت ديكيليدى: «مات أبى عند مولدى، فأسمونى بدموع أمى». ثم أضافت: «وماتت أمى بعد ذلك بست سنوات، فتولى عمى تنشنتى».

هزت كيبونى رأسها فى رثاء وهى ترفع فى بطء ملعقة عصيدة إلى فمها. وبعد أن ابتلعتها سألت: «وما هى جريمتك؟»

«قتلت زوجى».

قالت كيبونى: «كلنا هنا لنفس الجريمة»، ثم سألت بابتسامة ساخرة:

«أأنت نادمة؟»

أجابت: «ليس كثيرا».

«كيف قتلتيه؟»

قالت ديكيليدى: «اجتززت كل أعضائه الخصوصية بسكين».

قالت كيبونى: «أنا فعلت المثل بموسى». وتنهدت ثم أضافت: «كانت حياتى صعبة».

ساد الصمت بعض الوقت بينما انهمكن جميعا فى الأكل، ثم استطردت كيبونى فى تأمل: «رجالنا لايظنون أننا نحتاج إلى حنان ورعاية. كان زوجى يركلنى بين ساقى عندما يشاء. ومرة أجهضت بسبب ذلك. لم أكن أستطيع التهرب منه إذا مرضت، لهذا قلت له مرة انه يستطيع الأتيان بامرأة أخرى لأنى عاجزة عن اشباع كافة

رغباته. كان مسئولا تعليميا، وكل سنة يوقف حوالى سبعة عشر مدرسا لأنهم تسببوا فى حمل التلميذات، بينما كان يفعل مثلهم. وفى آخر مرة جاءنى أبوا الفتاة يشكوان. فقلت لهما: اتركا الأمر لى. فقد فاض بى الكيل. وقتلته».

أكملن طعامهن فى صمت، ثم حملن الصحاف والاكواب ليشطفنها فى المغسل. وجاءت الحارسة بدلو ومكنسة. لم يكن ثمة أثر وسخ فى أى مكان، لكن لابد من غسل أماكن النوم بالماء الغزير، فهو روتين السجن. ولايتبقى بعد ذلك سوى جولة تفقدية من المدير. وهنا تحولت كيبونى إلى القادمة الجديدة محذرة: «خذى بالك عندما يأتى المدير للتفتيش فهو مجنون بشئ واحد... انتباه! قفى معتدلة! يداك إلى جانبك! فان لم تفعلى فقد صوابه وكال لك السباب. إنه لايهتم بغير ذلك».

ما إن انتهى التفتيش حتى أخذت النسوة، عبر عدد من البوابات، إلى فناء مكشوف مشمس، يحيط به سور مرتفع من السلك الشائك، حيث يقمن بعملهن اليومى. كان السجن مركزا للتأهيل، ينتج فيه السجناء السلع التى يعرضها حانوت السجن للبيع. فيصنع النساء الملابس والصوف، والرجال أشغال النجارة والجلود والطوب والخضروات.

كانت ديكيليدى تجيد عدة أعمال، فهى تطرز وتحيك وتغزل. وكانت النسوة الموجودات منهمكات فى تطريز الملابس الصوفية، وبعضهن يعملن ببطء لأنهن ما زلن يتعلمن. تطلعن إليها فى اهتمام عندما تناولت كتلة الصوف وإبر التطريز، وأنجزت غُرَزْ الصف الأول بسرعة. كانت يداها ناعمتين رقيقتين، كأنهما بلا عظام، وتتميزان بقوة غريبة، فشكلت بهما أعمالا جميلة. وعندما انتصف النهار، كانت قد أتمت الجانب الأمامى من الجُرْسى، فتوقفن جميعا عن العمل

ليبدين اعجابهن بالتصميم الذى ابتكرته.

قالت كيبونى فى اعجاب: «أنت موهوبة حقا».

أجابت ديكيليدى بابتسامة: «هذا ماتقوله صديقاتى. فأنا المرأة التى لا ترشح المياه من قش نسجته. ولهذا تلجأ إلىّ كل صديقاتى عندما يبغين إعداد أكواخهن. فهن لايستطعن ذلك بدونى. كنت دائما مشغولة، مُستخدمة، لأنى بهاتين اليدين كنت أطعم أطفالى وأتولى تنشئتهم. تركنى زوجي بعد أربعة أعوام من الزواج، لكنى تمكنت من تدبير أمورى واطعام أفواههم. واذا عجز أحد الناس عن دفع أجرتى نقداً، كان يعطيها لى هدايا من الطعام».

قالت كيبونى: «الأمور ليست سيئة هنا. فبوسعنا أن ندخر بعض المال من مبيع منتجاتنا. إذا اشتغلت هكذا ستحصلين على مال لأطفالك. كم لديك منهم؟»

«ثلاثة أولاد».

«هل هناك من يرعاهم؟»

«أجل».

غيرت كيبونى موضوع الحديث مرة واحدة: «أنا أحب طعام الغذاء. أنه أفضل وجبات اليوم. جريش ذرة ولحم وخضروات».

هكذا انقضى اليوم بين الثرثرة والعمل، وعند الغروب أقتيدت النسوة من جديد إلى الزنزانة بعد أن حان موعد اغلاقها. فبسطن البطاطين، وأعدت كل واحدة فراشها، ثم واصلن الحديث قليلاً في ضوء الشمعة. وعندما أوشكن على الرقاد، أومأت ديكيليدى برأسها فى رقة لصديقتها الجديدة كيبونى وقالت: «أشكرك. فقد كنت جد لطيفة معى».

أجابت كيبونى بابتسامتها الساخرة المتفكهة: «لابد وأن نساعد

بعضنا البعض. فهذا عالم فظيع. ليس هنا غير البؤس».

هكذا استهلت المرأة ديكيليدى المرحلة الثالثة من حياة أحالتها الوحدة والمرارة إلى رماد. لكنها كانت تجد الذهب دائماوسط الرماد، فيصل الحب بين قلبها وقلوب الغير. ابتسمت لكيبونى فى حنان لأنها أدركت أنها عثرت على حب مشابه. فقد كانت تهوى جمع هذه الكنوز.

***

هناك نوعان من الرجال فى المجتمع. أحدهما هو الذى يخلق التعاسة والفوضى، فيوصم أماء الكافة بالشر. فاذا ما راقب المرء كلاب القرية تطارد إحدى إناثها الهائجة، تجدها تتحرك فى مجموعات من أربعة أو خمسة. وعندما يبدأ الجماع، يحاول أحد الكلاب السيطرة على الموقف، ويبعد الآخرين عن فرج الأنثى. وتقف بقية الكلاب، سيئة الحظ، على مقربة وهى تنبح وتطبق فكيها، بينما ينهمك الكلب المتسيد فى قبض متواصل من الأورجازمات، نهارا وليلا، حتى يصاب بالإنهاك. ولابد أنه، خلال هذا الإنجاز الهرقلى، سيتصور أنه القضيب الوحيد فى العالم، وأن هناك تدافعا بالمناكب من أجله. هذا النوع من الرجال يعيش قرب المستوى الحيوانى، وسلوكه على نفس الشاكلة. ومثل الكلاب والثيران والحمير، لايتقبل أى مسئولية عن الصغار التى ينجبها. ومثل الكلاب والثيران والحمير، يدفع الإناث إلى الإجهاض. ولما كان هذا النوع من الرجال يمثل الأغلبية فى المجتمع، فإنه يحتاج إلى قليل من التحليل، لأنه مسئول عن الانهيار التام للحياة الأسرية.

يمكن تحليله طبقا لثلاث فترات زمنية. فى العصور القديمة، قبل الغزو الإستعمارى، كان يعيش حسب التقاليد والتابوهات التى حددها أسلاف القبيلة للكافة. لم يكن يملك من الحرية الفردية مايعينه على

تقويم هذه التقاليد، لأنها كانت تتطلب الطاعة العمياء. فهى نظم فضفاضة، تستهدف صالح المجتمع ككل، ولاتراعى الا قليلا الميول والاحتياجات الفردية. لقد ارتكب الاسلاف أخطاء كثيرة، أكثرها مرارة أنهم أعطوا للرجل مركز المتسيد في القبيلة، بينما اعتبروا المرأة، بالمعنى الخلقيّ، شكلاً ناقصاً من أشكال الحياة الانسانية. ومازالت المرأةَ حتى يومنا هذا تعانى من كافة الكوارث التى تتعرض لها أدنى أشكال الحياة الانسانية.

ويمثل العصر الإستعمارى، وفترة العمالة التعدينية النازحة إلى جنوب أفريقيا، بلوى أخرى أصابت هذا الرجل. فقد تحطمت سيطرة الأسلاف. تحطم الشكل القديم التقليدى للحياة العائلية، واضطر الرجل للإفتراق عن زوجته وأطفاله لفترات طويلة، يعمل خلالها من أجل الفتات فى أرض أخرى كى يجمع من النقود مايكفى لتسديد ضريبة الرأس الاستعمارية البريطانية. فلم يتمخض هذا الإستعمار عن اثراء حياته إلا فى أقل القليل. عندئذ أصبح مجرد «صبى» للرجل الأبيض، وأداة من أدوات مناجم جنوب أفريقيا.

وبدا الاستقلال الإفريقى مجرد بلوى جديدة فوق البلاوى التى نزلت بحياته. فقد غير الاستقلال نسق التبعية الإستعمارية تغييرا مفاجئا ودراميا. سنحت فرص أكثر للعمل فى ظل برنامج المحليات الذى تبنته الحكومة الجديدة، وارتفعت الرواتب ارتفاعاً صاروخياً فى الوقت نفسه. وتهيأت بذلك الفرصة الأولى لحياة أسرية من نوع جديد أرقى من نظام العادات الطفولى، ومهانة الأستعمار. وكان على الرجال والنساء، فى سبيل البقاء، أن يتحولوا إلى الداخل، إلى طاقاتهم الكامنة. وكان الرجل هو الذى وصل إلى نقطة التحول هذه، حطاماً هشاً، دون أى طاقات داخلية. وكأنه استبشع صورته، فحاول أن يهرب من فراغه الداخلى، ولهذا أخذ يدور مبتعدا عن نفسه، فسقط فى دوامة من التبديد والتدمير، أقرب إلى رقصة الموت.

هكذا كان شأن جاريسيجو مكوبى، زوج ديكيليدى . فطوال أربع سنوات قبل الإستقلال، عمل كاتباً فى ادارة الناحية، بمرتب ثابت مقداره خمسون روبية فى الشهر. وبعد الإستقلال قفز راتبه إلى مائتى روبية. كان يميل، حتى فى أيام فقره، إلى النساء والشراب، فصارت لديه الآن الإمكانيات للإنغماس فى الملذات. لم يعد أحد يراه فى منزله، إذ أصبح يعيش وينام متنقلا من امرأة إلى أخرى. ترك زوجته وثلاثة أبناء- بانابوثى، الأكبر وعمره أربع سنوات، ابنالامى وعمره ثلاث، والأصغر، موتسومى الذى لم يتجاوز العام- يدبرون أمورهم بانفسهم. ولعل السبب فى سلوكه هذا، يرجع إلى أن زوجته كانت من النوع التقليدى، نصف الأمى، الذى يبعث على السأم، بينما وُجدت، بكثرة، أخريات، جديدات، مثيرات. فقد صنع الاستقلال الأعاجيب.

وكان ثمة نوع آخر من الرجال فى المجتمع، يمتلك القوة على إعادة خلق نفسه من جديد. وجه هذا النوع كل قواه، العاطفية والمادية، نحو حياته العائلية، ومضى فى طريقه بايقاع هادئ كنهر. انه قصيد من الحنان.

هكذا كان شأن بول ثيبولو، الذى انتقل مع زوجته كيناليبى، وأطفالهما الثلاثة إلى قرية بولنج فى عام١٩٦٦، عام الإستقلال. كان قد حصل على نظارة المدرسة الإبتدائية بالقرية. وخُصص له ولأسرته حقل فارغ بجوار فناء ديكيليدى موكوبى، يبنى فيه منزله الجديد.

يشكل الجيران مركز العالم بالنسبة لبعضهم البعض. فهم يتبادلون المساعدات فى جميع الأوقات، ويقرضون بعضهم البعض السلع المختلفة. هكذا تابعت ديكيليدى باهتمام فناء جيرانها الجدد. فى البداية ظهر الرجل مع بعض العمال لإقامة السور، الذى شُيدَ بسرعة وكفاءة. وترك الرجل لديها انطباعا حسنا فى الحال، عندما ذهبت تقدم نفسها، وتعرف القليل عنهم.

كان طويلا، عريض العظام، بطئ الحركة، بالغ الوداعة لدرجة أن ضوء الشمس وظلها كانا يتلاعبان بعينيه، ويجعلان من العسير تحديد لونهما الفعلي. وعندما يقف ساكنا، ويبدو مستغرقا في التفكير، يتسلل ضوء الشمس إلى عينيه، ويعشش بهما، فيعطيهما لون الظل في أحيان، ولونا بنياً خفيفا في غيرها.

التفت نحوها مبتسماً في ود عندما قدمت نفسها، وقال أنه نقل هو وزوجته من قرية بوبونونج. وأنها مازالت هي وأطفالها، لدى أقاربهما في القرية إلى أن ينتهي من إعداد الفناء. كان يتعجل الإستقرار لأن الفترة الدراسية تبدأ بعد شهر. وقال أنهم سيشيدون كوخين من الطين أول الأمر، ثم يقيمون منزلا صغيراً من الطوب فيما بعد، وستأتي زوجته بعد أيام مع بعض النسوة، لإقامة الجدران الطينية للكوخين.

قالت ديكيليدي : «أحب أن أساعدكم. فإذا بدأنا العمل في ساعة مبكرة من الصباح، وكنا ست نساء، أمكننا ان ننتهي من إقامة الجدران في أسبوع. وإذا رغبت في أن يكون أحد الكوخين من القش، فإن الجميع يعرفون اني المرأة التي لاتتسرب المياه من قشها».

أجاب الرجل مبتسماً انه سينقل هذه المعلومات إلى امرأته، وأضاف بعذوبته معربا عن ثقته في أنها ستحبها عندما تلتقي بها، فهي ودودة تحظى بحب الجميع.

عادت ديكيليدي إلى فنائها بمعنويات عالية. لم تكن تتلق زيارات كثيرة. فمنذ تركها زوجها لم يعد أحد من أقاربها يتردد عليها خوفا من أن تطلب منه شيئا. واقتصر زائروها على المتعاملين معها في شأن من شؤونهم، فهم إما يريدون منها حياكة ملابس لأطفالهم، أو تطريز جرسيات للشتاء. وعندما تجد نفسها بلا عمل، تصنع السلال ثم تبيعها. هكذا استطاعت أن تقوم بأود نفسها وأطفالها الثلاثة،

لكنها ظلت محرومة من الأصدقاء الحقيقيين.

أثبتت الأيام صدق الزوج، فقد كانت زوجته لطيفة المعشر. كانت طويلة بعض الشئ ونحيفة، ذات شخصية مشرقة ومفعمة بالحيوية. ولم تحاول اخفاء ما تتمتع به من سعادة. وتحقق ما وعدت به ديكيليدى. فقد نجح فريق العمل المكون من ست نساء فى إقامة جدران الكوخين الطينيين فى أسبوع واحد، وبعد أسبوعين اكتمل إعداد الكساء الخارجى المصنوع من القش. وانتقلت اسرة ثيبولو إلى مقرها الجديد كما انتقلت ديكيليدى إلى أكثر فترات حياتها ازدهارا وسعادة، صنعت فيها منحنى كبيرا، منفرجا إلى أعلى. وتجاوزت علاقتها باسرة ثيبولو حدود التبادل الودى بين الجيران، إذ كانت علاقة غنية وخلاقة.

لم يمض وقت طويل حتى نشأت بين المرأتين صداقة من ذلك النوع العميق، الودود، الذى يتضمن المشاركة فى كل شئ، ولا يعقد أواصره غير النساء. وبدا أن كينالييى فى حاجة إلى عدد لاحصر له من الأثواب لها ولبناتها الصغيرات الثلاث. ولما كانت ديكيليدى قد رفضت أن تتقاضى أجراً نقديا على هذه الخدمات، بحجة المنافع العديدة التى تتلقاها من جيرانها الطيبين، فقد رتب بول ثيبولو الأمر بحيث تأخذ أجرها على صورة سلع منزلية، بحيث إطمأنت ديكيليدى إلى توفر احتياجاتها من الذرة والسكر والشاى واللبن الجاف وزيت الطهى، لعدة سنوات قادمة. وكانت كينالييى أيضاً من ذلك النوع من النساء الذى يجعل العالم كله يدور حولها، فشخصيتها الجذابة كانت تجتذب عديدا من النساء إلى فنائها، وبالتالى عديدا من الزبائن لصديقتها صانعة الثياب: ديكيليدى. وسرعان ما أصبحت الأخيرة مثقلة بالعمل واضطرت لأبتياع ماكينة ثانية للحياكة، والاستعانة بمساعدة. وألفتْ الصديقتان القيام بكل شئ سوية، فهما دائما معاً، فى مناسباتَ الزواج، والجنازات، واحتفالات القرية. وفى ساعات الفراغ كانتا تبحثان أمورهما الخميمة، بحيث أصبحت كل منهما تعرف

تفاصيل حياة الأخرى معرفة تامة.

وذات يوم قالت ديكيليدي في أسي: «أنت حقا محظوظة. فليس هناك زوج مثل بول».

قالت كيناليبى فى سعادة: «أجل. إنه رجل أمين». كانت تعرف القليل عن بلاوى ديكيليدى فسألتها: «لماذا تزوجت رجلاً مثل جاريسيجو؟ لقد تأملته جيدا عندما عينته لى فى ذلك اليوم، وتبينت من الوهلة الأولى انه من هواة الملذات».

أجابت ديكيليدى : «أظن أنى كنت أريد الخروج من فناء عمى، فلم أحبه أبدا. فبرغم ثرائه كان قاسياً، شديد الأنانية. كنت مجرد خادمة لديه، وكان يسئ معاملتى. التحقت به فى السادسة من عمرى، عندما ماتت أمى، ولم أكن سعيدة عنده. وكان أطفاله يزدروننى لأنى كنت خادمتهن. ودفع عمى نفقات تعليمى طوال ست سنوات، ثم طالبنى بترك الدراسة. وكنت أود الإستمرار، لأن التعليم، كما تعرفين، يفتح أبواب العالم أمام الواحدة. وكان جاريسيجو صديقا لعمى، والوحيد الذى تقدّم إلىّ. وناقش الأثنان الأمر فيما بينهما ثم قال لى عمى:«الأفضل لك أن تتزوجى من جاريسيجو، لأن وجودك هنا أصبح مثل السلسلة حول رقبتى». فوافقت كى أبتعد عن هذا الرجل الفظيع. وقال جاريسيجو ساعتها أنه يفضل الزواج من واحدة مثلى على الأقتران بمتعلمة، لأن المتعلمات يتميزن بالغباء، ويرغبن فى السيطرة على الرجل. والحق انى لم أرفع صوتى بالاحتجاج أبدا عندما بدأ يلعب بذيله. أنت تعرفين ما تفعله الأخريات. فهن يطاردن رجالهن من كوخ إلى آخر، ويضربن العشيقات. والنتيجة؟ أن ينتقل الرجل إلى كوخ جديد. وبذلك لا تكسب الواحدة شيئا. وما كنت لأسلك هكذا. فيكفينى أن لدى أطفالاً. إنهم نعمة وبركة».

قالت صديقتها وهى تهز رأسها فى تعاطف: «كفاية. لا أفهم

الطريقة التى توزع بها الحياة عطاياها. البعض يحصلون على الكثير جدا، والآخرون لا ينالون شيئاً على الأطلاق. لقد كنتُ دائما محظوظة. يوما ما سيزورنى أبواى، اللذان يعيشان فى الجنوب، وسترين كيف يهتمان بشأنى. وهو ما يفعله بول. إذ يعنى بكل شئ فلا يساورنى القلق، ولا أنشغل بهمّ».

اجتذب الرجل، بول، كثيرا من الأصدقاء مثل زوجته. وكان الإثنان يستقبلان الضيوف كل مساء، رجالاً أميين يريدون منه أن يدوّن لهم بيانات الضرائب أو يكتب لهم الرسائل، أو رفاقا راغبين فى مناقشة القضايا السياسية، فمنذ الأستقلال أصبح ثمة جديد كل يوم. وكانت المرأتان تستمعان لهذه المناقشات بأذان مسحورة، لكنهما لم تشتركا فيها أبداً. وانما كانتا تلوكان المناقشات فى حكمة وجدية. فتقول كيناليبى: «عقول الرجال غريبة: فهى تطوّف بعيدا وبجرأة.اننى أرتعد عندما أسمعهم ينتقدون حكومتنا الجديدة بحرية. هل سمعت ما قاله بطرس بالأمس؟قال انه يعرف كل أولاد الزنا هؤلاء، وانهم ليسوا سوى حفنة من اللصوص المحتالين! ارتعدت كثيراً عندما سمعت ما قاله. فالطريقة التى يتحدثون بها عن الحكومة تُشْعرك فى عظامك ان هذا العالم ليس آمنا، ليس مثل الأيام القديمة عندما لم تكن لدينا حكومات. وقال لينتسوى أن عشرة بالمائة من السكان فى انجلترا يتحكمون فى ثروة البلاد بينما يعيش الباقون تحت حد الجوع. وقال أن الشيوعية ستحل كل هذه المشاكل. وفهمت من الطريقة التى ناقشوا بها هذه النقطة ان حكومتنا لا تحبذ الشيوعية. وارتجفت كثيرا عندما اتضح لى ذلك». وصمتت برهة ثم ضحكت فى زهو: «لقد سمعت بول يكرر عدة مرات ان البريطانيين لم يحكمونا سوى ثمانين سنة. ولا أدرى لماذا هو مغرم بترديد هذه العبارة؟»

هكذا انفتح عالم جديد تماما أمام ديكيليدى. بدا لها عالماً شديد الثراء، يفيض بالسعادة، فانغمست فيه يوما بعد يوم، متغاضية عن

جدب حياتها الخاصة. لكن هذا الأمر ظل مثل الصداع المزمن في رأس صديقتها كينالبيي.

قالت لها ذات يوم مستحثة: «يجب أن تجدي رجلا آخر. فليس من صالح المرأة ان تعيش بمفردها».

فأجابتها ديكيليدي التي لم تعد تستسلم للأوهام: «ومن يكون؟ لن يتمخض عن ذلك سوى المتاعب لي ولأولادي، بينما كل شئ الآن على مايرام. فابنى الأكبر يذهب إلى المدرسة وأنا قادرة على تسديد نفقاتها. هذا هو في الحقيقة كل ما يعنينى».

قالت كينالبيي: «أقصد أننا جئنا لهذا العالم لنمارس الحب ونستمتع به».

أجابت الأخرى: «أوه. لم أعبأ أبدأ بهذا الأمر. فعندما تجربين أسوأ مافيه، تفقدين الرغبة كلية».

اتسعت حدقتا كينالبيي: «ماذا تعنين بذلك؟»

«أعنى ان الأمر لم يكن أكثر من قفزة! وكنت دائما أتساءل عن مغزاه وجدواه. وصرت أنفر منه».

قالت كينالبيي مصعوقة: «أكان جاريسيجو هكذا؟ اذن فهو لا يعدو أن يكون مثل ديك يقفز من دجاجة إلى أخرى. ترى ماذا يفعل مع كل هاته النسوة.. أنا متأكدة انهن لايسعين إلا وراء نقوده، ولهذا يتملقنه..» وصمتت برهة ثم أضافت في جدية: «هذا سبب آخر يحتم عليك البحث عن رجل آخر. آه لو تعرفين حقيقة الأمر لجننت من اللهفة عليه. أقول لك. أحيانا أظن أنى استمتع بهذا الجانب من الحياة أكثر مما يجب. فبول يعرف الكثير عن ذلك. ولديه دائما جديد يفاجئنى به. وهو يبتسم بطريقة معينة عندما يكون قد فكر في شئ جديد، فارتعش قليلا وأقول لنفسي: «ترى، ماذا ينوى بول هذه الليلة!»

صمتت كيناليبي ثم ابتسمت لصديقتها في خجل وقالت: «يمكنني أن أقرضك بول إذا شئت»، ورفعت يدها لتوقف ماظهر على وجه صديقتها من احتجاج: «سأفعل ذلك لأني لم أنعم في حياتي بصديقة مثلك أثق فيها إلى هذه الدرجة. لقد عرف بول فتيات عديدات قبل أن يتزوجني، ولهذا فالأمر بالنسبة إليه ليس غريباً، فضلا عن أننا كنا نمارس الحب قبل الزواج، ولم أحمل أبدا، فهو يراعي هذا الجانب أيضا. لا مانع لدي في أن أقرضه لك، لأنني أنتظر طفلا جديدا هذه الأيام، وأشعر أني لست على مايرام».

نظرت ديكيليدي طويلاً إلى الأرض، ثم رفعت إلى صديقتها عينين مبللتين بالدموع وقالت بتأثر: «لايمكنني أن أقبل هدية كهذه منك. لكن طالما أنك متعبة، سأتولى عنك غسيلك وطهيك».

لم تعبأ كيناليبي برفض صديقتها للعرض السخي، وناقشت الأمر مع زوجها في نفس الليلة. وفوجئ بول بموضوع لم يتوقعه، فبدت عليه الدهشة ثم انفجر في ضحك مدوي، استمر طويلا حتى بدا عاجزا عن التوقف.

سألته كيناليبي في دهشة: «لماذا تضحك هكذا؟»

واصل الضحك، ثم بدت عليه فجأة الجدية، واستغرق في التفكير بعض الوقت. وعندما سألته عن محور تفكيره أجاب: «لن أخبرك بكل شيء. أحب أن أحتفظ ببعض أسراري لنفسي».

وفي اليوم التالي روت كيناليبي لصديقتها ماجرى بينها وبين زوجها من حوار متسائلة: «ماذا يعني بقوله انه يريد الأحتفاظ ببعض أسراره لنفسه؟»

قالت ديكيليدي مبتسمة: «أظنه مغرورا بعض الشئ. كما أن الشخص عندما يحب بقوة، لا يميل إلى الإعتراف بذلك ويفضل الصمت».

بعد ذلك بقليل، أُجْهضت كينالييى، ودخلت المستشفى لإجراء جراحة بسيطة. وأوفت ديكَاليدي بوعدها «أن تغسل وتطهى» لصديقتها. فدبرت أمور منزلها، وتولت اطعام الأطفال، وحافظت على كل شئ فى نظام. وبالإضافة إلى ذلك، كان الناس يشكون من ضئالة غذاء المستشفى، فأخذت على عاتقها الطواف بأرجاء القرية كل يوم بحثاً عن البيض والدجاج، وبعد ان تُعِدّ ما حصلت عليه، تحمله إلى كينالييى، كل يوم، ساعة الغذاء.

وذات مساء، اصطدمت ديكيليدى بعقبة غير منتظرة، اعترضت روتينها اليومى.

كانت قد أعدت الطعام لأطفال صديقتها، وأفرغته فى الصحون، عندما جاءتها زبونة تطلب تعديلاً عاجلاً فى ثوب زفاف. وكان الزفاف مقررا فى اليوم التالى. فتركت الأطفال يأكلون حول النار ومضت إلى كوخها. وبعد ساعة، كان أطفالها قد أخلدوا للنوم، فقررت أن تمضى إلى فناء جارتها لتطمئن على الأمور. ولجت كوخ الأطفال ورأت أنهم التجأوا إلى فرشهم واستغرقوا فى النوم، بينما تبعثرت صحون العشاء حول النار دون غسيل. وكان الكوخ الآخر الخاص ببول وكينالييى غارقاً فى الظلام. معنى هذا أن بول لم يعد بعد من زيارة المساء المعتادة لزوجته. فجمعت الصحون وغسلتها، ثم صبت مياه الغسيل القذرة فوق رماد النار المتوهج فى الفناء. وكوّمت الصحون بعضها فوق بعض وحملتها إلى الكوخ الثالث الإضافى الذى يقوم بدور المطبخ. وفى تلك اللحظة ولج بول ثيبولو الفناء، ولمح ضوءا وحركة فى كوخ المطبخ، فمضى إليه وتوقف فى مدخله المفتوح.

خاطبها فى ود باسم إبنها الأكبر باناثويى، كما جرت العادة: «ماذا تفعلين الآن يا أم باناثويى؟»

أجابته ديكيليدى فى سعادة: «أنا أعرف جيداً ما أنا فاعلة».

واستدارت نحوه لتقول أنه ليس من الصواب ترك الصحون الوسخة حتى الصباح، لكنها فغرت فمها مدهوشة. فقد طالعتها فى عينيه بحيرتان صافيتان من الضوء السائل، ومر بينهما شئ بالغ الحلاوة، فائق الجمال، كأنه الحب.

قال برقة: «انت امرأة طيبة يا أم باناثوبى».

كانت تلك هى الحقيقة. وقُدّمت الهدية ككتلة من الذهب. لا يستطيع تقديم هدايا كهذه سوى رجَال من طراز بول ثيبولو. أخذت الهدية وأودعت قلبها كنزا جديدا. ثم أحنت ركبتيها بالتحية التقليدية وابتعدت فى هدوء نحو منزلها.

***

انقضت ثمانى سنوات على ديكيليدى فى ايقاع هادئ من العمل، والصداقة التى ربطتها باسرة ثيبولو. وانفرجت أزمة ابنها الأكبر باناثوبى. فقد كان يواجه امتحان الشهادة الابتدائية فى نهاية العام. وبتأثير هذا الحدث الهام، أفاق الصبى لنفسه، بعد أن كان، مثل بقية الصبية، مغرماً باللعب. فأحضر كتبه إلى المنزل وقال لأمه أنه يرغب فى استذكار دروسه بالأماسى، ويريد ان ينجح بدرجة «أ» ليسرّها. حكت ديكيليدي القصة لجارتها فى انفعال وزهو.

قالت: «بانابوثى يقرأ دروسه كل مساء الآن. ولم يكن يهتم بها من قبل. لقد ابتهجت كثيرا بمسلكه فابتعت له مصباحاً اضافياً، ونقلته من كوخ الأطفال إلى كوخى حيث يمكنه أن يستمتع بشئ من الهدوء. ونحن نسهر كل ليلة حتى ساعة متأخرة: أنا أحيك الأزرار وذيول الفساتين، وهو يستذكر».

كما انها افتتحت لنفسها حسابا ادخاريا فى مكتب البريد ليتوفر لديها المال الكافى للإنفاق على تعليمه الثانوى. فمصاريفه عالية بعض الشئ: ٨٥ روبية. ورغم كل ما ادخرته، وجدت فى نهاية العام،

انها تحتاج عشرين روبية إضافية لإستكمال المبلغ. وعندما أعلنت النتائج فى عطلة الكريسماس، نجح بانابوثى بدرجة «أ». فانتاب أمه فرح هستيرى. لكن ما العمل؟ كان الإبنان الآخران، اللذان يصغرانه سنا، قد بدا المرحلة الأبتدائية، ووجدت أنها عاجزة عن تدبير مصاريف الثلاثة من مدخراتها، فقررت ان تُذكر جاريسيجو موكوبى بأبوته للأولاد.

لم تكن قد رأته فى الثمانى سنوات، إلا كما ترى أحد المارة فى طرقات القرية. وكان يلوّح لها أحياناً، لكنه لم يتحدث إليها أبدا أو يستفسر عن حياتها أو عن أطفالهما. فلم يكن شئ من هذا يعنيه. كانت تمثل له شكلاً دنيئا من أشكال الحياة الانسانية. واذا بهذا الشئ البغيض يظهر أمام مكتبه ذات يوم، بينما كان فى طريقه لتناول طعام الغذاء. كانت قد سمعت من ثرثرة القرية انه استقر أخيرا مع امرأة متزوجة ذات أطفال، بعد أن طرد زوجها فى واقعة مثيرة من الوقائع المألوفة فى القرية تخللها العراك والسباب. والغالب أن الزوج لم يعبأ بما حدث، إذ توجد دائما سواعد مفتوحة لأى رجل، طالما أنه يبدو كذلك. أما ما اجتذب جاريسيجو إلى هذه المرأة بالذات، فهو طبقا لما ذكره عشاقها السابقون ضاحكين، انها مولعة بأشكال الجماع العنيفة مثل العض والخمش.

غادر جاريسيجو موكوبى مكتبه، ونظر فى ضيق إلى هذا الشبح من ماضيه، زوجته.أدرك أنها تريد أن تتحدث إليه، فمشى نحوها وهو يتطلع إلى ساعته طول الوقت. وكان قد صار له، مثل كافة «الرجال الناجحين» كرش ضخم، وعينان محتقنتان، ووجه منتفخ، تحف به رائحة مختلطة من بيرة الليلة الماضية وجنسها.

خاطبها بصبر نافذ: «قولى ماتريدينه بسرعة، ففسحة الغذاء قصيرة، ولابد أن أعود إلى مكتبى فى الثانية».

لم يكن بوسعها أن تتحدث إليه عن زهوها بنجاح بانابوثى، ولهذا قالت ببساطة وهدوء : «جاريسيجو. أتوسل إليك أن تساعدني في سداد مصاريف المدرسة الثانوية لباناثوبي. إنه ناجح بدرجة «أ»، وكما تعرف فإن المصاريف تدفع في اليوم الأول من الدراسة وإلا طردوا التلميذ. وأنا من جانبي جاهدت طول السنة لتدبير النقود، لكني مازلت في حاجة إلى عشرين روبية».

قدمت إليه دفتر النقود البريدى، فتناوله وألقى عليه نظرة، ثم أعاده إليها وهو يبتسم في تكلف ابتسامة ذات مغزى. قال وهو يظن أنه يوجه إليها ضربة في وجهها: «لماذا لاتطلبي النقود من بول ثيبولو؟ الجميع يعرفون أن له بيتين، وانك امرأته الإحتياطية. الجميع يعرفون بأمر زكيبة الذرة التي يأتيك بها كل ستة شهور، فلماذا لا يدفع نفقات المدرسة أيضا؟»

لم تنكر شيئا أو تؤكده. وطاشت الضربة عن وجهها الذي رفعته إلى أعلى في كبرياء. ثم مشت مبتعدة.

التقت المرأتان بعد الظهر كمألوف عادتهما، وروت ديكيليدى الحديث الذي دار بينها وبين زوجها، فهزت جارتها رأسها في غضب وهتفت: «الخنزير! يظن الرجال جميعا مثله. سأذكر الأمر لبول، فلاشك انه سيقوم بتأديبه».

وهو ماحدث لجاريسيجو. كان في أعماقه مومساً نسائية، يستمتع مثل كل المومسات المحترفات بالفضيحة والتشهير، لأنهما يخدمان تجارته. فابتسم في دماثة وبلا تحفظ عندما اندفع بول ثيبولو غاضباً إلى باب المنزل الذي يسكنه مع محظيته. واجه جاريسيجو أمثال هذا الموقف كثيرا، وكان يعرف عن ظهر قلب ماسيدور من حوار.

صاح بول ثيبولو: «يا ابن العاهرة! زوجتك ليست محظية لي،

هل تسمع؟ »

قال جاريسيجو: «لماذا إذن تزودها بالطعام؟ الرجال لايفعلون ذلك إلا للمرأة التى ينكحونها! فهى لاتفعل ذلك بغير مقابل».

استند بول ثيبولو باحدى يديه إلى الجدار وهو يرتجف من الغضب وقال في توتر: «أنت تدنس الحياة ياجاريسيجو موكوبى. ليس فى عالمك غير الدنس. أم باناثوبى تحيك الملابس لزوجتى وأطفالى، ولا تقبل منى نقودا، فكيف إذن أدفع لها أجرتها؟ »

أجاب الآخر بوضاعة: «وهذا ما يؤكد القصة من كل الجوانب. فالمرأة تفعل هذا للرجل الذى ينكحها».

أطلق بول يده الأخرى فى لكمة عنيفة لإحدى عينيه الباسمتين، وانصرف. من يستطيع اخفاء عين زرقاء متورمة؟ كان يرد على كل استفسار بلهجة الضحية: «انه عشيق زوجتى، بول ثيبولو».

جلب هذا إليه اهتمام القرية كلها، وهو كل ما يبغيه حقيقة. فأمثاله من الرجال يحتلون الدرك الأسفل من الحكومة ويتوقون خفية للرئاسة، حتى تتجه اليهم الأعين. ولهذا أضاف جاريسيجو المزيد من الوقود إلى الفضيحة، معلنا أنه سيتكفل بمصاريف دراسة إبن محظيته، لكنه لن يدفع مصاريف إبنه هو، باناثوبى.

لم يعترض أهالى القرية على تلطيخ سمعة بول ثيبولو، لأنه كان انساناً كاملاً فوق كل تصور، مما يصعب عليهم تصديقه. فوجدوا لذة فى أن يجعلوه موضوعاً للقيل والقال، ومع ذلك عنفوا جاريسيجو قائلين: «ربما تحصل زوجتك على أشياء من بول ثيبولو، لكن ليس هناك من يستطيع أن يدفع كلا من مصاريف دراسة أطفاله، ومصاريف دراسة أطفال رجل آخر. وما كان باناثوبى سيوجد لو لم تتولى أنت انجابه. فواجبك إذن أن ترعاه. وبالإضافة إلى هذا، فإن زوجتك إذا التحقت برجل آخر، تكون أنت المسئول لأنك تركتها وحيدة

سنوات طويلة».

عاش الناس مع هذه القصة أسبوعين، لأنهم أرادوا ان يكون بول ثيبولو من عالمهم، ومثلهم بلا أخلاق ثابتة. لكن القصة تطورت فى اتجاه درامى أثار الرعب فى أوصال الرجال، وانقضت أسابيع عدة قبل ان يجدوا الشجاعة على مشاركة نسائهم الفراش.

كانت طريقة جاريسيجو فى التفكير هى التى أدت به إلى الهلاك. فقد أيقن فعلا أن رجلاً آخر دق وتده فى حظيرة دجاجه، وكأى ديك كانت هذه الفكرة كفيلة باثارة شعر رأسه. فقرر أن يذهب إليها- الحظيرة- مؤكدا حقوقه. وما ان زال ورم عينه بعد أسبوعين، حتى استوقف بانابوثى فى القرية وسأله أن يحمل إلى أمه ورقة ويجلب منها رداً. كانت الورقة تقول: «الأم العزيزة، سأعود إلى المنزل لأسوّى خلافاتنا. أرجو أن تعدى لى طعاما وبعض الماء الساخن لحمامى».

تلقت ديكيليدى الورقة وقرأتها فارتجفت من الغضب. كانت تلميحاته واضحة، فهو قادم من أجل الجنس. فلم تكن بينهما أية خلافات، ولم يدر بينهما أى حوار.

قالت لإبنها: «بانابوثى. هل لك أن تلعب قليلا فى الجوار؟ أريد أن أفكر قليلا قبل أن أبعث معك بالرد».

لم تكن أفكارها واضحة. كان ثمة شئ لا تستطيع أن تضع يدها عليه فى الحال. فقد أصبحت تقدس الحياة التى عاشتها فى السنوات الأخيرة، وكافحت خلالها لتقوم بأود نفسها وأطفالها. وهى حياة امتلأت بكنوز المودة والحب التى جمعتها من الآخرين. كل هذا أرادت الآن ان تحميه من التلوث على يد الرجل الشرير. وبدافع الرعب خطر لها أن تأخذ أطفالها وتهرب من القرية. لكن أين تذهب؟ لم يكن جاريسيجو يريد طلاقاً، فقد تركت له أن يفاتحها فى هذا الصدد، ولم تسمح لنفسها أن ترافق رجلا آخر. قلّبت الفكر بلا جدوى، حتى أيقنت

أنه لامفر من مواجهته. وهنا ظهرت على وجهها نظرة متأملة متمعنة. وأخيرا، اطمأنت نفسها، ومضت إلى كوخها فكتبت الرد: «سيدى، سأعد كل شئ كما طلبت. ديكيليدى».

كان النهار قد انتصف عندما جرى بانابوثى بالرد إلى أبيه. وانهمكت ديكيليدى بعد الظهر فى الاستعداد لمجئ زوجها. وجاءت كينالييى تتأمل فى ذهول الإستعدادات الضخمة، وإناء الماء الحديدى الكبير الذى امتلأ بالماء وتوهجت النيران أسفله، وأوانى الطهى الإضافية فوق النار. ولم تنتبه للسكين إلا فيما بعد، فلم تر منه سوى لمحة عابرة. كان من سكاكين المطبخ الكبيرة التى تستخدم فى تقطيع اللحوم، وقد أمسكت به ديكيليدى، وركعت أمام حجر رحى، وراحت تصقله فى أناة. ما استحوذ على اهتمام كينالييى عندئذ هو التعبير المأساوى على وجه صديقتها المتلع إلى أعلى. أصابها الإرتباك، وألفت نفسها عاجزة عن الاشتراك فى الثرثرة النسائية المألوفة. وعندما قالت ديكيليدى: «أنا أقوم ببعض الاستعدادات من أجل جاريسيجو. فهو قادم الليلة»، هرعت إلى كوخها مذعورة. كانت تدرك أن الأمر يعنيها هى وزوجها، وعندما ذكرت له النبأ، قضى بقية اليوم شاردا، قلقا، يفعل كل شئ بالمعكوس، لايرد على سؤال، ويترك كوب الشاى حتى يبرد، وبين الحين والآخر ينهض واقفاً، ويخطو جيئة وذهابا، وهو غارق فى التفكير. وبلغ بهما القلق ذروته مع حلول المساء، فلم يعودا قادرين على إخفاء مشاعرهما خلف ستار من الحديث، وجلسا بكوخهما فى صمت. وحوالى الساعة التاسعة، بلغ مسامعهما الخوار الوحشى لعذاب الإحتضار، فاندفعا سوية إلى فناء ديكيليدى موكوبى.

***

جاء البيت مع الغروب، وألفى كل شئ معدا له كما طلب، فاتخذ مجلسه عازما على الإستمتاع بحياة الرجال. كان قد جلب معه

حزمة من علب البيرة، فجلس فى الخارج يرتشفها على مهل، وعيناه تستقران بين الفينة والأخرى على فناء ثيبولو. لم يلمح غير امرأته وأطفالها، أما الرجل فكان غائباً عن الأبصار. وابتسم جاريسيجو لنفسه، وقد سره أنه قادر على الصياح، مثل الديك، بأعلى ما يستطيع من صوت دون أن يتحداه أحد.

وضعت ديكيليدى أمامه حوضا من الماء الدافئ ليغسل يديه، ثم قدمت إليه طعامه. وفى ركن آخر، قدمت الطعام لأطفالها، ثم أمرتهم بالاغتسال والإستعداد للنوم. ولاحظت أن جاريسيجو لم يبد أى اهتمام بهم. كان مشغولا تماما بنفسه، لايفكر إلا فى راحته الخاصة. ولو كان أبدى لأطفاله ذرة من الحنان، لفلّ ذلك من عزمها، وصرفها عن الفعل الذى خططت له بعناية طول فترة بعد الظهر. لم ترق هى أيضا إلى مستوى اهتمامه، فعندما جلبت صفحة طعامها وجلست بالقرب منه، لم يوجه نظرة واحدة إلى وجهها. شرب بيرته وهو يرمق الفناء المجاور بين الفينة والأخرى. ولم يظهر رجل الفناء مرة واحدة إلى أن ساد الظلام ولم يعد من الممكن تمييز شئ. فبدا عليه الإرتياح التام. وقرر أن يكرر هذا المشهد كل يوم إلى أن يحطم جَلَدْ الديك الآخر، ويدفعه إلى الغضب والغلط. كان يحب هذه المناورات.

سألته: «جاريسيجو. هل ستساعدنى فى مصاريف مدرسة بانابوثى؟»

أجاب فى غير مبالاة: «سأفكر فى الأمر».

نهضت واقفة، وحملت جرادل المياه إلى الداخل، وصبتها فى حوض استحمام كبير من القصدير، ليأخذ حمامه. وبينما كان يفعل، انهمكت فى ترتيب الكوخ، واستكمال آخر الأعمال المنزلية الروتينية. وعندما انتهت، ولجت كوخ الأطفال. كانوا قد لعبوا كثيراً طول اليوم، فوجدتهم غارقين فى النوم من التعب. انحنت إلى جوار الحصائر التى استلقوا فوقها، وحدقت إليهم طويلا فى حنان بالغ. ثم أطفأت مصباحهم، ومضت إلى كوخها. وجدت جاريسيجو مستلقيا فوق

الفراش، وقد بسط يديه وساقيه بطريقة توحي بأنه لم يفكر إلا في نفسه، ولا ينتوي أن يتيح لأحد مشاركته الفراش. كان قد امتلأ بالطعام والشراب، فاستغرق في نوم عميق ثقيل. والظاهر أن محظيته علمته أن الرجل يجب أن يلجأ إلى الفراش عاريا. هكذا رقد، غير محمي، مجردا من وسائل الدفاع، منبطحاً فوق ظهره.

أحدث حوض المياه قعقعة عالية عندما أخرجته من الغرفة، لكنه واصل نومه، غائبا عن الوجود. عادت إلى الكوخ، وأغلقت بابه. ثم انحنت وتناولت من أسفل الفراش السكين الذى أخفته في قطعة قماش. وبدقة ومهارة يديها الكادحتين، أمسكت بأعضائه التناسلية، واجتثتها بضربة واحدة. وبفعلتها هذه، قطعت الشريان الرئيسي الذى يمتد إلى الفخذ، فتدفق شلال من الدماء، وزأر جاريسيجو وخار معرباً عن ألمه. ثم ساد الصمت. وقفت ترقب احتضاره الأليم بنظرة متفحصة لاتهمل أدق التفاصيل. وانتزعتها طرقة على الباب من استغراقها. كان الصبي، بانابوثي. فتحت له وحدقت إليه صامتة. كان يرتعد في عنف.

قال هامساً في رعب: «أمي . أسمعت أبي يصرخ؟»

قالت وهي تلوح بيدها في الهواء بإيماءة تعني: هذه هي الحكاية ومافيها: «لقد قتلته». ثم أضافت بحدة: «بانابوثي. استدع الشرطة».

استدار وهرب إلى الظلام. وتردد في أعقابه وقع زوج من الأقدام فقد جرت كيناليبي عائدة إلى فنائها وقد أوشكت أن تفقد صوابها من الخوف. ومن الظلام برز بول ثيبولو، فتقدم من الكوخ ووجه. التقط كل التفاصيل، ثم استدار إلى ديكيليدي ونظر إليها في ألم أعجزه عن النطق. وأخيرا قال: «لا تشغلي بالك بأمر الأطفال يا أم بانابوثي. سأتولى أمرهم كأطفالي تماماً، وسأوفر لهم جميعا المدرسة الثانوية».

سولا

« رقيقة من الذهب تحتها مرمر »

للكاتبة الامريكية

تونى موريسون

(الحائزة على جائزة نوبل)

١٩٧٣

Sula

by

Toni Morisson

1973

عند عودتها إلى البلدة، ألفت الحديث الأجتماعى مستحيلاً عليها، لأنها لاتعرف الكذب. لم يكن بوسعها أن تقول لواحدة من معارفها القدامى: «أنت تبدين فى أحسن حال»، بينما ترى كيف كست السنون البشرة البرونزية بالرماد، وكيف أن العيون التى كانت مفتوحة لآخرها على القمر قد تقوست من الهم. وكلما ضاقت حياة الواحدة منهن، إعرضَ حوضها. من منهن لها زوج، طوت نفسها فى تابوت مُنَشّى، انتفخت جوانبه بأحلام الآخرين اللحمية ولوعاتهم العظيمة. أما اللاتى كن بلا رجال، فكانت الواحدة منهن مثل إبرة نَكِدَة الطرف، تبرز منها عين فارغة دوما. أولئك اللاتى كن مع رجال، امتَصت المواقد والقدور الحلاوة من أنفاسهن. وصار أطفالهن مثل جراح نائية لكن مفتوحة، لم يخفف من ألمها انفصالها عن لحمهن. لقد نظرن إلى العالم، ثم إلى أطفالهن، ثم إلى العالم، وإلى أطفالهن مرة ثانية، وأدركت سولا أن عيناً صافية شابة واحدة، هى كل ما أبقى السكين بعيدة عن استدارة الرقبة.

كانت إذن منبوذة، وكانت تعرف ذلك. تعرف أنهم يزدرونها، وتؤمن بأنهم يصوغون حقدهم فى قالب الازدراء للسهولة التى ترقد بها مع الرجال. فقد كانت تذهب إلى الفراش مع الرجال كلما تيسر ذلك. فهو المكان الوحيد الذى يمكنها ان تجد فيه ما تبحث عنه: التعاسة والقدرة على الإحساس بالأسى العميق. لم تكن دائما واعية أن الحزن هو ماتتوق إليه. ففى البداية، بدا لها فعل الحب، خلقاً لنوع

خاص من الفرح. فكرت انها تحب سخام الجنس وكوميديته، وكثيراً ما كانت تضحك خلال البدايات الفظة، وترفض العشاق الذين ينظرون إلى الجنس باعتباره ممارسة صحية وجميلة. كانت جماليات الجنس تثير ضجرها. فرغم أنها لم تعتبر الجنس ممارسة قبيحة (لأن القبح مضجر أيضاً)، كانت تفضل ان ترى فيه شيئا من الأذى والشر. ومع تكرار تجاربها أدركت خطأ هذه النظرة بل وتبينت أنها ليست فى حاجة لإستحضار فكرة الشر كى تتمكن من الإشتراك فيه بكليتها. فقد وجدت خلال فعل الحب، وكانت فى حاجة لأن تجد، الحافة القاطعة. وعندما تخلت عن التعاون مع جسدها وبدأت تؤكد نفسها فى الفعل، تجمعت فيها ذرات من القوة، مثل شظايا الصلب المنجذبة الى مركز مغنطيسى شاسع، وشكلت عنقوداً متلاحماً، لايمكن تحطيمه. كان ثمة سخرية وإهانة بالغتين، فى الرقاد أسفل شخص ما، فى وضع الإستسلام، بينما تشعر بقوتها الصامدة، وسلطانها غير المحدود. لكن العنقود تكسر، وتناثرت أجزاؤه، وفى لهفتها على لمّ أشلائه، قفزت من الحافة إلى السكون، وهوت مولولة، مولولة وقد غمرها إدراك لاذع بنهايات الاشياء: عين من الأسى فى مركز إعصار من الفرح. فى مركز هذا الصمت، ولم تكن هناك الأبدية، وإنما موت الزمن، ووحدة عميقة لدرجة تجعل الكلمة نفسها بلا معنى. لأن الوحدة تفترض غياب الآخرين، بينما العزلة التى صادفتها فى حقل اليأس هذا، لم تكن تسمح بوجودهم. عندئذ بكت. دموع موات الأشياء الصغيرة: أحذية الأطفال المستهلكة والملقاة جانباً، السيقان المحطمة لعشب المستنقعات بعد أن سحقها البحر وأغرقها، صور حفلات التخرج لنساء ميتات لاتعرفهن، خواتم زواج فى نوافذ دكاكين الرهونات، الأجساد المرتبة للدجاج فى عش من الأرز.

وإذ ينفصل عنها جسد رفيقها، تتطلع إليه فى عجب، محاولة أن تتذكر اسمه، بينما ينظر إليها من عل، مبتسماً فى ادراك حنون

لحالة العرفان الدامعة التي يعتقد أنه أوصلها إليها. وتنتظر هي في نفاد صبر أن يتحول عنها، ويغرق في رضى لزج وقرف خفيف، فيتركها لخصوصية ما بعد الجماع، حيث تلتقي نفسها، ترحب بنفسها، وتنضم إليها في إنسجام فريد.

في التاسعة والعشرين، عرفت أنه لن يكون ثمة طريق آخر. لكنها لم تتوقع تلك الخطوات فوق المدخل المسقوف، والوجه الأسود الجميل، الذي حدق إليها من خلال زجاج النافذة الأزرق. أجاكس.

يبدو كما كان منذ سبعة عشر عاماً، عندما ناداها «بلحمة الخنزير». كان وقتها في الحادية والعشرين، بينما كانت هي في الثانية عشرة. كَوْنٌ من الزمان بينهما...

فتحت الباب الثقيل، وأبصرته واقفاً خلف الآخر المنخلي، حاملاً زجاجتين من الحليب، مدسوستين بين ذراعيه مثل تمثالين من الرخام. ابتسم وقال:

«بحثت عنك في كل مكان».

سألت: «لماذا؟»

«لأعطيك هذه»، وأومأ إلى إحدى الزجاجتين.

قالت: «لا أحب الحليب».

قال وهو يقدم إليها واحدة: «لكنك تحبين الزجاجات، أليس كذلك؟ أليست جميلة؟»

كانت كذلك فعلاً. بدت وقد تدلت من أصابعه، تؤطرها سماء زرقاء، ثمينة، نظيفة، ودائمة. وأيقنت أنه ارتكب أمرا ذا خطر في سبيل الحصول عليها.

جرت بأصابعها فوق المصراع المنخلي مفكرة، ثم فتحت له الباب ضاحكة. دخل واتجه مباشرة إلى المطبخ. وتبعته على مهل. وما إن

بلغت الباب حتى ألفته قد أزال الغطاء السلكى المعّقد، وترك الحليب البارد يتدفق فى فمه.

راقبته، أو بالأحرى راقبت الإيقاع البادى فى رقبته، باهتمام متصاعد. وعندما جرع كفايته، صب باقى الزجاجة فى الحوض، وشطفها ثم قدمها إليها. تناولت الزجاجة بيد، ورسغه باليد الأخرى، وجذبته إلى حجرة المؤن. لم يكن ثمة حاجة لإستخدام تلك الغرفة، لأن أحدا لم يكن بالمنزل، لكن الإيماءة صدرت عن إبنة أمها بصورة طبيعية. وفى غرفة المؤن الخالية الآن من زكائب الدقيق، المجردة من حبال الحبات الصغيرة للفلفل الأخضر، قابضة بشدة على زجاجة الحليب المبتلة بساعدها، وقفت منفرجة الساقين لصق الحائط، واستخرجت من وركيه كل ما استطاع فخذاها أن يستوعبا من لذة.

***

أصبح يأتى بانتظام، حاملاً هدايا: عناقيد من التوت الأسود مازالت فوق فروعها، أربع سمكات مقلية ملفوفة فى صفحة من جريدة «بتسبرج كوريير» بلون سمك سليمان، حفنة من السمك صغير الحجم والسن، صندوقين من شراب الليمون، قطعة ضخمة من ثلج العربات، علبة منظف «أولد داتش» بصورة المرأة ذات القلنسوة التى تطرد الوسخ بعصاها، صفحة من مجلة للقصص المصورة، ومزيد من زجاجات الحليب البيضاء البراقة.

على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن، عندما يُشاهد متسكعا حول حمام السباحة، أو صارخا فى مستر «فينلى» لأنه ضرب كلبه (كلب مستر فينلى)، أو موجها كلمات الغزل البذيئة للمارات، كان أجاكس رقيقا للغاية مع النساء. وكانت نساؤه، بالطبع، يعرفن ذلك، الأمر الذى قادهن للإشتباك فى معارك ضارية حوله، فكثيرا ما خضبت النسوة- لحيمات الأفخاذ، المتشاجرات بالسكاكين- ليالى

الجمع بالدماء، واجتذبن الجموع الهادرة. وفى تلك المناسبات، كان أجاكس يقف بين المتجمهرين، يتفرج على المتقاتلات- بنفس اللامبالاة- من عيونه الذهبية التى يتابع بها الرجال المسنين وهم يلعبون الداما. ففيما عدا أمه، التى تقبع فى عشتها مع ست أبناء صغار، عاكفين على جذور النباتات، لم يلتق أجاكس فى حياته امرأة جديرة بالإهتمام.

لم تكن رقته مع النساء فى عمومها، طقسا من طقوس الغواية (فلم تكن لديه حاجة لذلك)، وإنما عادة اكتسبها من تعامله مع أمه، التى بثت فى أولادها روح الكرم والمراعاة لمشاعر الآخرين.

كانت تمارس السحر، وحظيت بسبع أطفال محبين، يستمدون البهجة من تزويدها بما تحتاجه من نباتات، وشَعْر، وملابس داخلية، وقلامات أظافر، ودجاج أبيض، ودماء، وكافور، وصور، وكيروسين، وتراب الأقدام، وبأن يطلبوا لها من مدينة «سيسيناتى» «فان فان»، و«هاى جون» الفاتح، و«ليتل جون» من أجل المضغ،وأربطة حذاء الشيطان، والطمى الصينى، وبذور المستردة، والأعشاب التسعة.

كانت عليمة بأمور الجو، والنذُر، والأحياء، والموتى، والأحلام، وكافة الأمراض، وتكسب عيشا متواضعا من هذه المهارات. ولو كانت لها أسنان، أو استقام ظهرها وحسب، لصارت أبهى وأروع ماتحمل البسيطة، جديرة بأن يعبدها أولادها لجمالها وحده، فضلاً عما تتيحه لهم من حرية مطلقة (مما يعرف فى بعض الدوائر بالإهمال)، وثقل معارفها الجليلة.

أحب أجاكس هذه المرأة ومن بعدها الطائرات. ولم يكن ثمة شئ بينهما. فاذا لم يكن مسحورا بالأستماع إلى كلمات أمه، تراه يفكر فى الطائرات والطيارين، والسماء العميقة التى تحمل الإثنين. وظن الناس أن رحلاته الطويلة إلى المدن الكبيرة فى الولاية، تهدف إلى

قضاء أوقات بالغة المتعة يعجزون عن تخيلها لكنهم يحسدونه عليها وحسب، بينما يكون في الواقع منحنيا فوق الأسلاك الشائكة للمطارات، أو متسللا بين حظائر الطائرات كي يستمع إلى حديث الرجال الذين أسعدهم الحظ بالإنتماء إلى هذا العالم. وماتبقى من وقت كان يقضيه في الشواغل العادية لعازب بلا عمل في مدينة صغيرة. وكان قد سمع الحكايات الرائجة عن «سولا»، فثار فضوله. وذكرته مراوغاتها، ولامبالاتها بعادات السلوك المستقرة، بأمه التي كانت صلبة في ايمانها بالسحر والتنجيم، مثلما كانت نساء طائفة القديس «ماثيو» الأعظم في إيمانهن بفضيلة التخليص من الخطيئة بتضحية لصالح الطرف الآثم. وما إن بلغ فضوله الحد الضروري، حتى التقط زجاجتي حليب من شرفة أسرة بيضاء، ومضى إليها، معتقدا أنها المرأة الوحيدة، عدا أمه، التي تمتلك حياتها، وتتعامل مع الحياة بكفاءة، ولا تبالي بإيقاعه في حبائلها.

كانت سولا هي الأخرى تشعر بالفضول. لم تكن تعرف عنه شيئا، سوى الكلمة التي ناداها بها منذ سنوات، وما أثاره لديها وقتئذ من مشاعر. وكانت قد ألفت الكليشيهات التي تمتلئ بها حيوات الآخرين، وضاقت ذرعاً ببلدة «ميداليون». ولو كانت فكرت في مكان تذهب إليه، فربما كانت قد رحلت، لكن هذا كله كان قبل أن ينظر إليها عبر الزجاج الأزرق، ويقدم إليها الحليب، عالياً، كنصب تذكاري.

لكن الهدايا لم تكن هي التي دفعتها إلى احتوائه بين ساقيها. كانت الهدايا فاتنة بالطبع (وخاصة برطمان الفراشات التي أطلقها في المخدع)، لكن متعتها الحقيقية نبعت من تحدثه إليها. كانت لهما محاورات حقيقية. لم يتعال عليها، أو يحط من شأنها، ولا اكتفى بأسئلة صبيانية عن حياتها، أو بمنولوجات عن نفسه. فقد اعتقد أنها ربما متقدة الذكاء مثل أمه، ولم تخيب ظنه. وفي كل محاوراتهما، كان يصغي أكثر مما يتكلم. وكان من شأن استمتاعه الواضح بصحبتها،

واستعداده الكسول لأن يحدثها عن الأرواح الشريرة وقوى النباتات، وعزوفه عن معاملتها كطفلة أو محاولة حمايتها، وافتراضه أنها صلبة العود، قادرة- كل هذا بالإضافة إلى وجدان يتميز بالكرم ونادرا ما ينفث حمم الإنتقام، هو ما أبقى على اهتمام سولا وحماسها.

كانت فكرته عن الجنة (على الأرض مقابل جنة السماء) تتعدى حماما طويلا فى مياه شديدة السخونة، وقد استندت رأسه إلى الحافة البيضاء الفاترة، وأغمض عينيه فى حلم يقظة.

وقفت فى مدخل الحمام، تتطلع إلى ركبتيه اللامعتين، البارزتين فوق سطح مياه الصابون الرمادية: «النقع فى المياه الساخنة يسبب لك آلام الظهر».

أجابها: «النقع فى سولا هو الذى يؤلم ظهرى».

«هل هو يستحق؟»

«لا أعرف بعد. اذهبى»

«طائرات؟»

«طائرات.»

«هل يعرف ليندبرج* شيئا عنك؟»

«اذهبى».

تركته، وانتظرته فى فراش ايفا المرتفع، وقد استدارت برأسها إلى النافذة المغطاة بألواح من الكرتون. كانت تبتسم وهى تفكر أنه مثل «جود» يعشق القيام بعمل الرجل الأبيض، عندما جاء التوأمان بأسنانهما الجميلة وقالا:

---

* شارلس ليندبرج، أول طيار يعبر الأطلنطى بمفرده سنة١٩٢٧. وتجرى أحداث القصة فى سنة ١٩٣٩. (المترجم)

«نحن نشكو المرض».

أدارت رأسها ببطء وغمغمت: «اشفيا».

«نحتاج بعض الأدوية».

«ابحثا فى الحمام».

«أجاكس هناك».

«اذن انتظرا».

«نحن مريضان الآن!»

انحنت ومدت يدها أسفل الفراش، والتقطت حذاء، قذفتهما به. صرخا: «ماصة...»، قفزت من الفراش عارية مثل كلب فناء. وأمسكت التوأم ذا الشعر الأحمر من قميصه ورفعته من عقبيه فوق السياج حتى بال على نفسه. وانضم إلى الثانى ثالث، وأخذا يبحثان فى جيوبهما عن حجارة، ويقذفانها بها. انحنت لتتفاداها وهى تترنح من الضحك، وحملت الولد المبلل إلى المخدع، وعندما تبعها الآخران، بلا أسلحة عدا أسنانهما، ألقت به فوق الفراش، وبحثت فى كيس نقودها. أعطت كل منهم دولارا، اختطفوه، وهبطوا السلم جريا إلى حانوت «ديك» ليبتاعوا دواء السعال الذى يعشقونه.

دلف أجاكس إلى الغرفة والمياه تتساقط منه، واستلقى فوق الفراش، تاركا للهواء مهمة تجفيفه. ولزم الإثنان السكون مدة طويلة قبل أن يمد يده ويلمس ذراعها.

كان يحب أن تركبه حتى يمكنه أن يراها فوقه، ويوجه إليها، مواجهة، البذاءات الرقيقة. اهتزت وتأرجحت، مثل صنويرة من «جورجيا» فوق ركبتيها، عالية فوق الإبتسامة الغاربة، المتلاشية، عالية فوق العيون الذهبية وقلنسوة الشعر المخملية، مهتزة، متأرجحة، وهى تركز أفكارها لتصد الأعتلال الذى كان ينتشر فى فخذيها.

تطلعت الى أسفل، أسفل مما بدا علواً سامقاً، إلى رأس الرجل الذى كانت ملابسه الجبردين، ذات اللون الأصفر الليمونى، هى أول مشاعر جنسية عرفتها. تاركة أفكارها تدور حول وجهه، من أجل أن تكبح، مدة أطول، اندفاع جسدها نحو صمت الأورجازم العالى.

(لو أنا تناولت قطعة من جلد الشامواه، ودعكت بشدة العظمة، بالضبط فوق عظمة خدك، فان بعض الأسود سيتلاشى. سوف يتقشر ويعلق بالشامواه، كاشفاً عن رقيقة من الذهب. يمكننى رؤيتها تلتمع خلال السواد. أعرف أنها هناك).

كم بلغ سموقها فوق جسده، الصوبخان النحيل، كم كانت مراوغة ابتسامته الزلقة.

(ولو أنا أخذت مبرد أظافر، أو حتى قشارة ايفا القديمة- فهى تصلح - وكشطت الذهب، سيتساقط كاشفا عن مرمر. فالمرمر هو الذى يعطى وجهك تدرجاته واستداراته. هو السبب فى أن ابتسام فمك لايبلغ عينيك. فالمرمر يعطيه وقارا يقاوم الإبتسامة الكلية).

أصابها العلوّ والأرجحة بالدوار، فانحنت، وتركت ثدييها يحكان صدره.

(عندئذ ألتقط أزميلاً، ومطرقة صغيرة، وأنقر فوق المرمر لأكشطه. سيتصدع عندئذ كما يفعل الثلج أسفل المعول، وخلال الشقوق سألمح الطَفْلة، خصبة، خالصة من الحصى وأغصان النباتات. لأن الطَفْلة هى التى تُكسبك تلك الرائحة).

انزلقت يديها تحت إبطيه، لأنها أدركت عجزها عن الحيلولة دون انتشار الكلل الذى شعرت به أسفل جلدها إلا إذا استندت إلى شئ ما.

(سوف أدس يدى عميقاً فى تربتك، وأرفعها، وأتخللها بأصابعى، متلمسة سطحها الدافئ وقشعريرة الندى تحته).

أراحت رأسها أسفل ذقنه، وقد ضاع كل أمل فى صدّ أى شئ.

(لسوف أروى تربتك، وأحفظها غنية مبللة. لكن بأى مقدار؟ كم من المياه تكفى للمحافظة على بلل الطُفْلة؟ وكم يعوزنى من الطُفْلة لكبح مياهى؟ ومتى تصنع الأثنتين طينا؟)

إبتلع فمها، كما إبتلع فخذاها أعضائه، وساد المنزل هدوء بالغ.

***

بدأت سولا تكتشف معنى الامتلاك. ليس الحب، ربما، وإنما الامتلاك، أو على الأقل، الرغبة فيه. روعها هذا الشعور الجديد عليها والغريب. فى البداية، كان الصباح الذى سبقته تلك الليلة، عندما تساءلت عما إذا كان سيمر عليها بالنهار. وبعد ظهر يوم آخر وقفت أمام المرآة، تتلمس بأصابعها خطوط الضحك حول فمها وتحاول أن تقدر مدى جمالها. وانتهت من هذا البحث العميق بتجربة شريط أخضر فى شعرها. أحدث الحرير الأخضر عندما مررته فى شعرها همسة متموجة، أشبه بضحكة خافتة صادرة عن أمها، هُسّ بطيئة خفيفة من الأنف، اعتادت أن تصدرها عندما يسرُّها أمر. مثل جلوس النساء ساعتين أسفل مكواة الشعر، ليتساءلن بعد يومين عن قرب احتياجهن لموعد جديد. وأعقب ربط الشريط نشاط آخر. وعندما جاء أجاكس فى المساء، جالباً لها مزماراً من القصب نحته لها بنفسه فى الصباح، لم تكن بالشريط الأخضر وحسب، وإنما كان الحمام يلمع، والسرير مرتب، والمائدة معدة لإثنين.

أعطاها مزمار القصب، وفك رباط حذائه ثم جلس فى مقعد المطبخ الهزاز.

اقتربت منه وقبلت فمه. وتحسس هو مؤخرة عنقها بأصابعه.

سألها: «أراهن أنك لم تفتقدى ابن القطران، أليس كذلك؟»

قالت : «أفتقده؟ كلا. أين هو؟»

ابتسم للامبالاتها اللذيذة: «في السجن».

«منذ متى؟»

«السبت الماضي».

«أمسكوه ثملاً؟»

«أكثر من ذلك قليلاً». ومضى يحكي لها اشتباكه في احدى بلاوى «ابن القطران».

لم يبدُ عليه أنه منزعج كثيراً لما حدث. الضيق فقط وعدم الإرتياح. فقد سبق له الإحتكاك بالشرطة عدة مرات، أغلبها في غارات القمار، ويعتبر ذلك من المخاطر الطبيعية في الحياة الزنجية.

لكن سولا، بالشريط الأخضر اللامع في شعرها، غمرها الشعور بوقع العالم الخارجي عليه. فاستقرت على ذراع الكرسي الهزاز، وتخللت مخمل شعره بأصابعها وهي تغمغم: «استند عليّ».

طرف أجاكس بعينيه. ثم ألقى على وجهها نظرة سريعة. كان في كلماتها، وصوتها، نغمة يعرفها جيدا. ولأول مرة رأى الشريط الأخضر. وتطلع فرأى المطبخ يومض، والمائدة معدة لإثنين، والتقط رائحة العش. انتصبت كل شعرة فوق جسده، وعرف أنها سرعان ما ستوجه إليه، ككل شقيقاتها اللاتي سبقنها، السؤال/ الإنذار: «أين كنت؟» وغامت عيناه بأسف عابر.

نهض واقفا، وارتقى الدرجات معها، ولج الحمام الناصع، الذي أزيل الغبار من أسفل حوضه. كان يحاول أن يتذكر تاريخ العرض الجوي في «دايتون». وعندما دخل المخدع، رآها راقدة فوق ملاءات بيضاء جديدة، محفوفة بالرائحة المميتة لكولونيا مستخدمة في التو.

جذبها أسفله، وأحبها بكل العزم والحدة، القمينين برجل على

وشك الرحيل إلى «دايتون».

***

بين الحين والآخر، تنظر حولها، تتطلع حولها، بحثا عن دليل ملموس، يؤكد لها أنه كان هنا. أين ذهبت الفراشات؟ التوت البرى،؟ المزمار القصبى؟ لم تجد شيئا من ذلك، لأنه لم يترك غير غيابه المدوّخ المذهل. غياب زخرفى، منمق، يحول بيها وبين أن تفهم، كيف أمكنها أن تتحمل - دون أن تتهاوى ميتة، أو تتلاشى - حضوره الفائق الروعة.

لم تكن المرآة المجاورة للباب مرآة بجوار الباب، وإنما مذبحاً وقف أمامه لحظة، قبل أن يغادر، ليرتدى قلنسوته. الكرسى الهزاز الأحمر، كان هزازا لفخذيه عندما جلس فى المطبخ. ومع ذلك، لم يكن ثمة شئ منه، من ذاته، يمكن العثور عليه. كأنما خشت أن يكون الأمر مجرد هلوسة، وأرادت برهانا على الحقيقة. كان غيابه فى كل مكان، يلسع كل شئ، يعطى الفرش ألوانه الأولية، وأركان الغرف خطوطاً حادة، والغبار الذى تجمع فوق سطوح الموائد ضوءا ذهبيا. أثناء حضوره كان يجتذب كل شئ نحوه. ليس فقط عينيها، وكل حواسها، وإنما أيضا الاشياء المجردة من كل حياة، بدت وكأنها تدين اليه بوجودها، ستائر خلفية لمسرح حضوره. والآن وقد ذهب، فإن هذه الأشياء التى طغى عليها حضوره طويلا، قد غمرها السحر فى أعقابه.

وذات يوم، بينما هى تنقب فى أحد الأدراج، عثرت على ما كانت تبحث عنه، البرهان: رخصة قيادة. كانت تحمل كل ما احتاجت إليه تماما من أجل التثبت. المواصفات الأساسية: الميلاد١٩٠١، الطول١١ر٥، الوزن١٥٢رطل، العيون عسليه، الشعر أسود، اللون أسود. أجل، البشرة سوداء. شديدة السواد. سوداء لدرجة أن الدعك طويلاً وبعناية بالصوف الفولاذى، سيزيل اللون، لتتجلى لمعة رقيقة

الذهب، وتحتها المرمر البارد، وأسفله، تحت خالص أسفل المرمر البارد، مزيد من السواد، لكنه هذه المرة سواد الطفْلَةَ الدافئة.

لكن ماهذا؟ ألبرت جاكس؟ اسمه ألبرت جاكس؟ أ.جاكس. وكانت تظنه أجاكس. كل تلك السنوات. منذ اللحظة التى مشت فيها الى جوار قاعة السباحة، وأشاحت عنه بعينيها وقد جلس منفرج الساقين فوق مقعد خشبى، أشاحت بعينيها لتتجنب الفضاء الواسع من الترتيب المفرط بين ساقيه، الفضح الذى لايحمل أية علامة، لاعلامة على الاطلاق، للحيوان الرابض فى بنطلونه. أشاحت بعيدا عن منخريه المتغطرسين، والإبتسامة التى ظلت تنزلق وتهوى، تهوى حتى أرادت أن تمد يدها وتمسك بها قبل أن تبلغ الرصيف، وتتلطخ بأعقاب السجائر وأغطية الزجاجات، والبصاق، أسفل قدميه، وأقدام الرجال الآخرين الذين جلسوا أو وقفوا خارج القاعة، يصيحون ويغنون لها هى و«نيل» والنساء البالغات أيضا، أناشيد مثل «لحم الخنزير»، و«السكر العسلى»، و«يا إلهى، ماذا فعلت لأستحق الغضب» و«خذنى أيها المسيح، فقد رأيت الأرض الموعودة»، و«تذكرنى يا إلهى»، بأصوات متلعثمة، رفقتها عاطفة فقدت الأمل. حتى وقتئذ، عندما كانت هى و«نيل» تحاولان جاهدتين ألا تحلما به، وألا تفكرا به عندما تلمسان النعومة الملساء تحت ملابسهما الداخلية، أو تحلأن ضفائر شعرهما بمجرد أن تغادرا المنزل، ليتموج ويتطاير حول آذانهما، أو يلفان الأربطة القطنية حول صدريهما، حتى لاتخترق الحلمات قماش البلوزتين، فتعطيه ذريعة لأن يبتسم ابتسامته المنزلقة الهاوية، التى ترسل الدماء فى بشرتيهما. وحتى فيما بعد، عندما رقدت لأول مرة مع رجل، ونطقت اسمه مكرهة، أو قالته وهى تعنيه (هو)، لم يكن الإسم الذى تهتف به وتتلفظه هو إسمه على الإطلاق.

وقفت وبين أصابعها قطعة بالية من الورق وقالت بصوت مرتفع، مخاطبة لا أحد: «لم أعرف حتى اسمه. وبما أنى لم أعرف اسمه،

فليس هناك ما عرفته، ولم أعرف شيئا على الإطلاق منذ كان الشئ الوحيد الذى أردت أن أعرفه هو اسمه فكيف إذن لايتركنى وقد كان يمارس الحب مع امرأة لاتعرف حتى اسمه.

«وأنا طفلة، كانت رؤوس عرائسي المصنوعة من الورق تنفصل عن أجسادها، ومضى وقت طويل قبل أن أكتشف إن رأسى أنا لن تقع إذا ما أحنيت عنقى. اعتدت أن أمشى برأس متصلبة خوفا من أن تنقصف رقبتى إذا ما هبت عليها ريح قوية أو تعرضت لدفعة شديدة. «نيل» هى التى صححت لى أوهامى. لكنها كانت مخطئة. فلم تكن رأسى متصلبة بالقدر الكافى عندما التقيته، ففقدتها مثل العرائس.

«حسن أنه رحل. فسرعان ماكنت سأمزق اللحم عن وجهه لأتأكد من أمر الذهب، وما كان أحد ليفهم هذا النوع من الفضول. كانوا سيعتقدون أنى أردت إيذائه، كما حدث مع الصبى الصغير الذى سقط فوق السلم وكُسرَتْ ساقه، وظن الناس أنى دفعته لمجرد انى انحنيت فوقه أتفحصها».

زحفت إلى فراشها، ورخصة القيادة بين أصابعها، واستغرقت فى نوم مفعم بأحلام زرقاء مخضرة.

وعندما استيقظت، كانت فى رأسها نغمة لم تتمكن من تمييزها، ولم تتذكر أنها سمعتها من قبل. فكرت: «لعلنى ابتدعتها». ثم تذكرت- اسم الاغنية وكل كلماتها كما سمعتها من قبل مرات عديدة. جلست على حافة الفراش تفكر: «لم تعد هناك أغان جديدة، وقد غنيت كل ما هو موجود منها. غنيتها كلها. كل الأغانى الموجودة». وعاودت الرقاد، ومضت تترنم بنغمة قصيرة نشاز تتألف من كلمات «غنيت كل الأغانى كل الأغانى غنيت كل الأغانى الموجودة»، حتى تأثرت بتهويدتها، فنعست، وفى غور حافة النوم ذاقت طعم الذهب الحريف، وشعرت بقشعريرة المرمر، واشتمت النتانة السوداء الحلوة للطفلة.

القلب النازف
للكاتبة الامريكية
مارلين فرنش
(١٩٨٠)

The bleeding heart
by
Marlyn French
(1980)

(«دولوريس» أستاذة جامعية أمريكية في الخامسة والأربعين من عمرها، مطلقة ولها طفلان، طويلة، نحيفة، ينحني كتفاها دائما إلى الأمام «كأنما تحاول حماية ثدييها أو قلبها».

منذ البلوغ، اعتبرت النشاط الجنسي عبودية للجسد، فنظرت إليه بامتعاض. لكنها تعلمت على مر الأعوام، أن تثق بجسدها: «فهو الشئ الوحيد الذي ينبئك بالصدق. العقل يكذب، لكن الجسد لايفعل».

تحصل على منحة دراسية في جامعة «أوكسفورد» الإنجليزية لمدة عام. وفي القطار تلتقي «فيكتور»، نائب مدير شركة أمريكية كبرى للألكترونيات، في نفس عمرها، متزوج وله أطفال، جاء انجلترا ليفتح فرعا لشركته.

تنشأ بين الاثنين علاقة. وتحدثه عن ماضيها فتقول أنها التزمت العفة عدة سنوات: «مررت بفترة سيئة مع رجل كنت مجنونة بحبه. أو ظننت أني مجنونة بحبه. ولم تندمل جراحي لبعض الوقت. ثم بدأت أعمل في كتابي الثاني، عن صورة المرأة في أدب عصر النهضة.. واستحوذ هذا العمل على كل كياني، وملأني

بالغضب... الغضب مما ارتُكب في حق النساء.
وبالإضافة إلى ذلك، كان الكتاب يأخذ كل وقتي- كل الوقت الذي لا أقضيه في التدريس ورعاية الطفلين، اللذين كانا في دور المراهقة وقتها، والعناية بالمنزل، والتنظيف، والطهي.. لم يكن لدي وقت لأي شئ آخر... هكذا انتقلت إلى مرحلة العفة»).

سرعان ماتخذت حياتهما معاً نسقاً واضحاً، روتينيا، وهو ما كانت دولوريس تفزع منه. لكن شهرا انقضى دون أن تتعرض علاقتهما لشئ. كانت لفيكتور شقة في لندن تدفع شركته ايجارها. وكان يقضي بها أغلب ليالي الأسبوع، ثم يأتي إلى «أوكسفورد» ليقضي معها نهاية الأسبوع. وعندما تطلب عملها أن تتردد على المتحف البريطاني يومين، أقامت معه في لندن. وعندما طرأ له عمل في أوكسفورد، أقام في فندق «رادولف» وصار يأتيها في الأمسيات. ولم يحدث أن أخذها معه إلى الفندق. لاحظت ذلك.

أحيانا سيضطر إلى القيام برحلات عمل إلى «مانشستر» أو «بيرمنجهام» «أوليدز». وأحيانا إلى القارة. ذكر لها هذا في سرور. ألن يكون الأمر رائعا لو ذهبنا سويا؟ سيستأجر سيارة، وينطلقان بها. سيكونان معاً، ويشاهدان شيئاً من انجلترا.

تراجعت قليلا إلى الوراء: «أجل. أظن. ذلك. وقتا ما...»

«ألا تريدين؟» غير مصدق.

«أجل.. سأحب ذلك.. عندما أستطيع».

«وما الذي يمنعك؟»

«فيكتور. عندي عمل لابد من القيام به. لدي سنة واحدة فقط هنا، ومادة كثيرة تتطلب الدراسة».

«ألا يمكنك ان تأخذي عملك معك؟ أنت تعملين هنا.» وأشار إلى مائدة غرفة المعيشة التى تكومت فوقها المذكرات، وبطاقات الأرشفة.

«أحيانا. الأمر يتوقف على النقطة التى أعالجها. أحيانا لابد من العمل فى المكتبة».

لزم الصمت، عابسا، بينما كانت تعض شفتها من الداخل.

قال أخيرا: «لدينا فسحة ضئيلة من الوقت. وأريد أن أستغل كل دقيقة، كل دقيقة تتاح لنا».

« وأنا أيضا. لكنى لا أطلب منك أن تنتزع أياماً من عملك».

«الأمر مختلف».

«لماذا؟» دائما الأمر مختلف عندما يتعلق بالمرأة. فأيا كان ما تفعله، فهو بغير أهمية. «تود» الذى كان يتوسل إليها أن تدق له رسالته على الآلة الكاتبة. وتقول له: «عندي امتحان تخرج»، فيرد: «الأمر مختلف. فليس لديك موعد نهائى». وكان ذلك هو نهاية تلك العلاقة.

قال: «لا حيلة لى فى نظام حياتى. فهو مفروض علىّ من الخارج. فيجب أن أكون فى أماكن معينة فى أوقات معينة. أما أنت فتملكين تنظيم وقتك كما تشائين.»

قالت فى فتور: «العمل هو الذى ينظم حياتى».

نهض واقفا ومضى إلى المطبخ. كان بوسعها أن تسمعه وهو يعد القهوة. وانصرفت إلى أوراقها.

عاد بفنجان واحد من القهوة، وجلس فى طرف الحجرة، عابسا.

توقفت عن العمل ونظرت إليه. «فيكتور. ماقولك لو طلبت منك أن تتغيب يومين عن عملك لنذهب إلى «الدبرج» حيث نقضى عطلة نهاية اسبوع طويلة؟»

«أين؟»

«الدبرج. أى مكان».

«سأقول أني سأرى. سأحاول».

«حسنا. هذا هو ماقلته أنا لك».

قال عابساً: «أوكى».

قالت ساخطة: «ماذا تريد منى؟»

«لاشئ. لاشئ». يحاول أن يبدو شهيدا؟

«أنت معتاد على المرأة التى تلقى بما فى يدها بمجرد أن تناديها. أليس كذلك؟ هل لديك صفارة؟» شريرة.

حملق فيها مغضباً: «لم أحتج لواحدة أبدا». شرير مضاد.

لكنها ضحكت، فضحك بدوره، فى شئ من المرارة والعناء، مرتبكاً.

قال: «أوكى. ستحاولين. مارأيك فى الثلاثاء والأربعاء القادمين. علىّ ان أذهب إلى برمنجهام».

«سأحاول. سأحاول».

بشفتين مطبقتين: «متى تعتقدين انه سيكون بوسعك إخبارى؟ لأنى سأذهب بالطائرة إن لم تأت. فهى أسرع. ثم هناك الترتيبات والحجز واستئجار سيارة...»

«سأعرف يوم الجمعة. سأرى قدر ما أنجزت، والنصوص التى يتعين على مراجعتها».

«سيكون هذا متأخرا بعض الشئ».

«إذن قم بالعمليتين. احجز فى الطائرة وفى السيارة. ثم إلغ الحجز الذى لن تحتاجه».

«لست فى حاجة لمساعدات فى إيجاد مخرج، شكرا».

عادت إلى عملها نافدة الصبر. وجلس يحتسى القهوة، وقد تناثرت أوراقه على الأرض إلى جوار مقعده، بينما استقرت حقيبة أوراقه فوق المقعد الواطئ. وفجأة ركل المقعد.

رفعت بصرها إليه. إنه يتصرف حقا كالأطفال.

قال: «أعرف، أعرف. أفهم. لكنى لم أعتد ذلك بعد. سيستغرق الأمر بعض الوقت حتى آلفه».

«تألف ماذا؟»

«أنت! دماغك المتصلبة».

«دماغى المتصلبة!» مجرد الرغبة فى انجاز العمل؟

ابتسم فى بذاءة: «عنادك إذن!»

بادلته الأبتسامة البذيئة: «كل ماعليك أن تألفه هو قليل من المرونة».

«أوكى، أوكى» وركل المقعد حتى قَلَبه. «لقد سئمت هذه الأوراق. تعالى نخرج ونتريض قليلا».

تصلّب ظهرها. كانت فى وسط شئ وتريد أن تنتهى منه.

قالت: «أوكى».

نهضا واقفين، وتقدم منها فوضع يده على ظهرها.

«للأمانه يالورى، لم أقصد مضايقتك».

«ألم أطلب منك ألا تنادينى بهذا الأسم؟»

«أنا أحبه. ألا يمكنك أن تكونى مرنة قليلا أنت الأخرى؟»

«بشأن إسمى؟» يظن الرجال أن بوسعهم اطلاق مايشاؤون من أسماء على النساء، لأن هذا ما فعله آدم. وبهذا يعطون المرأة الشكل

والوظيفة اللتين يريدونهما لها. «طوال أعوام زواجى، لم يدعونى زوجى باسمى مطلقا».

«كيف كان يدعوك اذن؟»

«حسب الأحوال. عسل، وحلوة. أو فاجرة وعاهرة».

ضحك: «خطيئة لم أرتكبها».

«لكنك فعلت. لورى. إنها تحط من شأنى».

«انها تعبر عن الحب».

«لورى. جودى. جيل. بانسى. أسماء فتيات صغيرات. نحن نعطى النساء أسماء لايمكنهن أن ينضجن وينمون معها. هل بوسعك أن تتصور سيدة فى التسعين من عمرها تدعى «جودى»؟ أو «جيل» بصلعة وعكاز؟ أو «دونا» تخلع أسنانها الصناعية؟»

«يمكنك أن تنادينى بما شئت من أسماء، وسأستجيب لك دائما». وابتسم متظاهرا بالعُهر، ثم مضى إلى الصالة ليجلب سترتيهما.

ابتسمت فى خبث: «وماذا عن أنتونى؟»

«ماذا قلت؟» بصوت غير واضح من بين المعاطف. عند باب المسكن. «ماذا؟ أوه، اسم زوجك؟»

ورأى ابتسامتها، فانفجر ضاحكاً، وانقض عليها، وصارعها إلى أن أوقعها أرضا، وكانت تلك هى نهاية التمشية المقترحة.

***

فى النهاية، مضت معه إلى برمنجهام. انطلقا فوق طرق السيارات، مخترقين الأراضى الإنجليزية الخضراء. كانت الأبقار تستريح فوق سهول من المخمل الأخضر، بينما انتصبت فى الأفق مداخن بيضاء.. أجزاء من مولدات كهربائية؟ - وبالقرب أبراج كهرباء تحمل أسلاكا سميكة متأرجحة.

قالت وهى تومئ إلى المشهد:« إنهم يفعلون ذلك أفضل منا.. أقصد الجمع بين الصناعة والأرض الزراعية».

«فى بعض الأماكن. لكن معدل الإنتاج لديهم لا يرقى إلى مثيله عندنا أبدا».

«من السهل أن تكون فعالا وأكثر كفاءة عندما تريد شيئاً واحداً وحسب».

رمقها بنظرة سريعة: «ماذا تعنين؟»

«إذا كان الربح هو كل مايعنيك، يمكنك أن تحصل عليه بسهولة. أما اذا كنت تهتم أيضا بأمر الأرض التى تلوثها، والناس الذين تسممهم، وبسلامة المنتج الذى تصنعه، لن يكون الأمر سهلا. فأمامك أهداف عديدة، ولابد أن تكون دائريا لا خطيا».

«التفكير الدائرى لايؤدى إلى شئ. فهناك الكثير منه.. كثير من النقاد ذوى الرؤوس الخفيفة الذين لايعرفون عما يتحدثون».

«تقصد أنصار حماية البيئة؟»

«هم وغيرهم. الأكاديميون. من لايملكون السلطة وينتقدون حائزيها».

«أوه، فيكتور، هل تظن حقاً أن هذا هو كل ما فى الأمر؟ وأنه لا يوجد أساس حقيقى للإهتمام بالقضايا العامة؟»

«بالتأكيد يوجد لدى البعض. لكن ما أعرفه، هو أن الدوافع الحقيقية للبشر، برغم ما يدعونه، هى حيازة القوة والسطوة. السطوة هى ما يسعى وراءه الجميع فى واقع الأمر».

حاولت أن تكيف ذهنها، وتحول تروسه إلى نقطة تمكنها من مجادلته. وكان ذلك عسيرا. فقد بدا لها حديثه آتيا من أرض غريبة تماما عن تلك التى عاشت فيها، ولم تجد العبارات الواضحة التى

تمكنها من اختراق الحدود.

بدأت في تردد: «هناك أنواع كثيرة من السطوة».

وافقها في سرور: «بالتأكيد. ولدى كل شخص النوع الذى يناسبه. هذا مايجب أن يدركه فاعلو الخير. الجميع يعرفون مايريدون، وهم يحصلون عليه».

انتصب جدار في الحدود القائمة بين بلديهما.

«القوة السياسية لا يريدها كل انسان. ولايستطيع الجميع استخدامها. لكن كل واحد يريد بعضا منها. ولدى الجميع بالفعل هذا البعض. قد تكون مجرد السلطة على الزوجة والأولاد، أو في لعبة كرة أو شطرنج».

«القوة التى تتحدث عنها تبدو ذكورية تماما.. السلطة على الزوجة والأولاد؟»

«أوه، ياللنساء! يا إلهى، هل راقبتهن عن كثب، هاته الأمهات، التابعات، السلبيات، المجردات من كل حيلة؟ إياك أن تقللى من شأن قوة الضعفاء والعاجزين!».

حدقت فيه صامتة. كان يقود بسرعة. ولم تربكه القيادة على الجانب الأيسر من الطريق. كانت نافذته مفتوحة، يهب منها الهواء على شعره، وذراعه اليمنى مستقرة على حافة النافذة، بينما يسراه توجه المقود في ثقة. بدا لها جميلا، بدا لها كأنه يقود قاربا في مواجهة الرياح. جميل وواثق ومحدد. يعرف ماذا يفعل. ويعرف فيم يفكر. ويملك العبارات التى يعبر بها عن أفكاره.

من السهل أن تكون جميلا، وأن تكون متناسقا مع نفسك، عندما تفكر بنفس الطريقة التى تفكر بها القوى الموجودة فى عالمك. سهل جدا أن تكون على صواب، واثقا، واضحا، إذا كنت رجلا،

أبيض، مهتماً بالربح، وناجحا. بينما هي عاجزة عن صياغة عبارة واحدة تجادله بها.

حاولت من جديد: «هناك القوة (ل) فعل شئ ما، ويجب أن تتوفر للكافة، لكنها ليست موجودة لدى الجميع. القوة لعزف «باخ»، أو للعب التنس. وهناك القوة (فوق) شئ أو إنسان، ولايجب ان يتمتع بها أحد، لكن الناس يمارسونها».

«ها، ها! أرأيت أبدا عالما لا يفعلون فيه غير ذلك؟ انك تحوّلين الواقع إلى موضوع أكاديمي، إلى علم سياسي أو شئ آخر ملعون. كل شخص يملك شكلي القوة اللذين تصفينهما».

«بالله عليك يافيكتور، ما هي نوع القوة التي يملكها طفل أسود في أحياء الزنوج الفقيرة المزدحمة؟ أو عامل زراعي متجول؟ أو امرأة غير متعلمة مع زوج متوحش تعمل في مصنع مع ملاحظ على نفس الدرجة من الوحشية؟»

«ربما القوة على تمزيق شخص ما إربا، أو لجمع كمية من الخس أكثر من غيره، أو لطهي حلة كبيرة من اليخني. لا أعرف. أعرف فقط أن كل انسان يمتلك شيئا ما».

انفجرت كالقذيفة: «لم ألتق في حياتي بمثل هذا القدر من الرضاء عن النفس! ما أجمل أن تعتقد أننا نحصل على كل مانرغب فيه، ونمتلك جميعا مانستحقه! ما أجمل أن تتصور البشر جميعاً في حالة حرب- لأن هذا هو ماتقوله في الحقيقة- عندما تكون بين الرابحين! أما الحقيقة فهي أن كثيراً من الناس لم تتح لهم حتى الفرصة ليعرفوا مايريدونه، فضلاً عن التوصل إلى وسائل الحصول على هذا الذي يريدونه!»

«الأمر لايحتاج إلى فرصة، يحتاج فقط إلى مجرد التفكير».

«إنه يحتاج إلى فضاء! فضاء للإختيار، فضاء لتقليب

الإمكانيات. أية امرأة هندية فى بلدة ناعسة بجواتيمالا لا يمكنها أن ترى ما وراء قريتها المغبرة، ولاتستطيع أن ترى لنفسها مستقبلا يختلف عن ذلك الذى تعيشه أمها وخالاتها و أخواتها وصديقاتها».

«وما هو الخطأ فى هذا؟»

«الخطأ فى هذا أنها ربما تكون تعسة!».

«هراء. ان تطلعاتها ليست كبيرة، وبالتالى فهى غالبا أقل تعاسة من امرأة من الطبقة المتوسطة ذات طموح. وعندما تصبح بلدة امرأتك الناعسة فى جواتيمالا مستعدة للتقدم، ستعثر عليه».

أطبقت يديها بعنف حتى حفرت أظافرها فى راحتيها.

واصل: «أغلب الناس يعيشون فى حالة من اللامبالاة وفتور الشعور. وهؤلاء لايستحقون منى تنهيدة».

تكلمت بهدوء وحزن: «كأنك تؤمن بأن كل مايحتاجه الناس هو الطموح والإرادة. لكن هناك الملايين الذين لن يتاح لهم ابدا امكانية الأختيار لأنهم لايرون جيدا، ولايملكون الطاقة لذلك لأنهم لم يتلقوا غذاء كافياً. الناس يوضعون قسراً فى الأماكن التى يحتلونها فى الحياة».

***

كيف حدث أنها أصبحت عازفة عن الجنس؟ متى بدأ ذلك، متى بدأت الوجوه تتلاشى، والأفواه تنفرج وتنغلق من تلقاء نفسها، فى بلاهة وغباء، مرددة أنا، أنا، أنا، سيارتى، مباراة الكرة، أفضل مطعم فى لندن باريس نيويورك ميلواكى، نفس الأشياء مراراً وتكراراً.... متى بدأت أذاناى تنغلقان؟ هل حدث ذلك بعد (سول)، الذى أخذ خطوتين إلى الأمام وثلاث إلى الخلف؟ أم (دوج) الذى كان يمارس الجنس ثم كف مجللاً بالعار؟

أو لأنها فى كل مرة تتعرض فيها لتجربة سيئة مع رجل تقول: لن أكرر هذا ثانية... أُقلُّ شخصاً ما إلى برينستون، وأصغى إلى مشاكل صبى مع أهله، ولا أبدى غضبى عندما أكون جائعة.. وكل «لن أكررها ثانية» تؤدى إلى مسافات أطول وأطول بين العشاق. وأخيراً لاعشاق بالمرة.

وبفطنتها، كانت تقرأ بسهولة، وتفسر السلوك، فتحذر ما إذا كان أحدهم يريد أمومة، تمريضاً، تطبيباً، علاجا نفسياً، تثقيفاً، إسترضاء، إطعاماً، ملاطفة، مديحا. عطاء، عطاء، عطاء. دائما.

ولم لا. العبودية للجسد، الجنس. وفضلا عن ذلك، ليس الجنس هو ما تريده النساء من الرجال فى واقع الأمر. فهن يشبعن أنفسهن بشكل أفضل. إنما هو شئ آخر، الرغبة فى جسد من وراءك، يمكنك أن تستند اليه برأسك، وتثق فى أنه لن يتحرك من مكانه، لن يجز رقبتك، أو يقطع رأسك، أو يجذب شعرك. إنه رفقة شخص ما موجود. كارول بصوت متليد: «أجل، ٢٥ سنة. إنها مدة طويلة. ليس زواجا ناجحا. بل هو ميت تماماً. فنحن لانتحدث. إننا مجرد ساكنين لنفس المنزل. كل ما هنالك اننا نعيش فى منزل واحد. شئ واحد هو الذى يبقينى هنا. وهو يساوى كل الملل والروتين. إنه الرقاد فى الفراش إلى جواره. لست أتحدث عن الجنس. فقط الرقاد إلى جواره، وجسده دافئ ومتين إلى جوارى. انه أمر لطيف. مريح».

***

لماذا تتكرر القصة القديمة دائما؟ دائما المرأة هى التى تدفع الثمن، رغم كل النوايا الطيبة من الجميع.

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

للمؤلف

روايات:

**** تلك الرائحة**

الطبعة الأولى (صودرت)، مكتب يوليو، القاهرة ١٩٦٦

صدرت فى طبعة كاملة عن دار «شهدى» بالخرطوم١٩٨٦.

**** تلك الرائحة وقصص أخرى**

دار شهدى، القاهرة ودار عيون، الدار البيضاء،١٩٨٦دار المستقبل، الاسكندرية،١٩٩٣.

**** نجمة أغسطس**

الطبعة الأولى، إتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٧٤.

الطبعة الرابعة، مكتبة مدبولى، القاهرة١٩٨٧.

**** اللجنة**

الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت١٩٨١.

الطبعة الخامسة، دار شرقيات، القاهرة١٩٩١.

**** بيروت بيروت**

دار المستقبل العربى، القاهرة،١٩٨٤ـ١٩٨٨.

**** ذات**

دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٩٢ ١٩٩٣.

ترجمة:

** **العدوّ**، جيمس دروت، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٥، والفنك، الدار البيضاء ١٩٩٣.

** **الحمار**، جونتر دى برون، دار ابن رشد، بيروت ١٩٧٧، ١٩٨٣.

** **معونة أم استعمار جديد؟**، أرنولد أنوخكين، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٠.

** **ولد لايعرف الخوف**، الأخوان جريم، الورشة التجريبية لكتب الأطفال، القاهرة، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت١٩٨١.

روايات علمية: (دار الفتى العربى، بيروت)

** عندما جلست العنكبوت تنتظر، ١٩٨٠ ١٩٨٣ ١٩٨٦.

** البرقات فى دائرة مستمرة، ١٩٨٠ ١٩٨٣ ١٩٨٦.

** يوم عادت المملكة القديمة، ١٩٨. ١٩٨٣ ١٩٨٦.

** زعنفة الظهر يقابل الفك المفترس، ١٩٨٣ ١٩٨٦.

** الدلفين يأتى عند الغروب،١٩٨٣. ١٩٨٦.

**الحياة والموت فى بحر ملون،١٩٨٣. ١٩٨٦.

حكايات علمية للصغار: (دار الفتى العربى، بيروت)

** الصقر الأسود يتلقى انذارا،١٩٨٩.

** المرجان يستعين بالصواريخ،١٩٩٠.

** الحصان ينتقم لرفيقة، ١٩٩٠

** ثعلب الصحراء والرمال المفردة، ١٩٩٠.

** أبو العيد فى يوم مجيد، ١٩٩٠

قصص تاريخية مصورة:

** رحلة السندباد الثامنة (رسوم: نبيل تاج)، دار الفتى العربى، بيروت، ١٩٨٩.

رقم الايداع	٩٤/٣٢٩٣
رقم دولـــي ـ ٠٤٦ ـ ٢٢١ ـ ٩٧٧	

التجربة الأنثوية

أجرأ ما كتبته المرأة عن نفسها ...

رؤية عصرية للمرأة : مراهقة ، عاشقة لجنسها ، و للرجل ، و لغير زوجها .. ضائعة ، مجرّبة ، محبطة ... باردة ، أم ، و قاتلة !

مختارات قصصية لـ **دوريس ليسينج** ، **إدنا أوبريان** ، **مارلين فرنش** ، **فرانسواز ماليه** ، وغيرهن من أبرز الكاتبات العالميات المعاصرات ، بالإضافة إلى أول نص ينشر كاملا بالعربية للكاتبة الأمريكية الحائزة على جائزة نوبل ١٩٩٣ : **تونى موريسون** .

اختارها و قدم لها **صنع الله إبراهيم**

كتاب يزيد من معرفتنا بالمرأة ، و فهمنا لأنفسنا !



دار الثقافة الجديدة

إتحاد كتاب دولة الإمارات العربية المتحدة